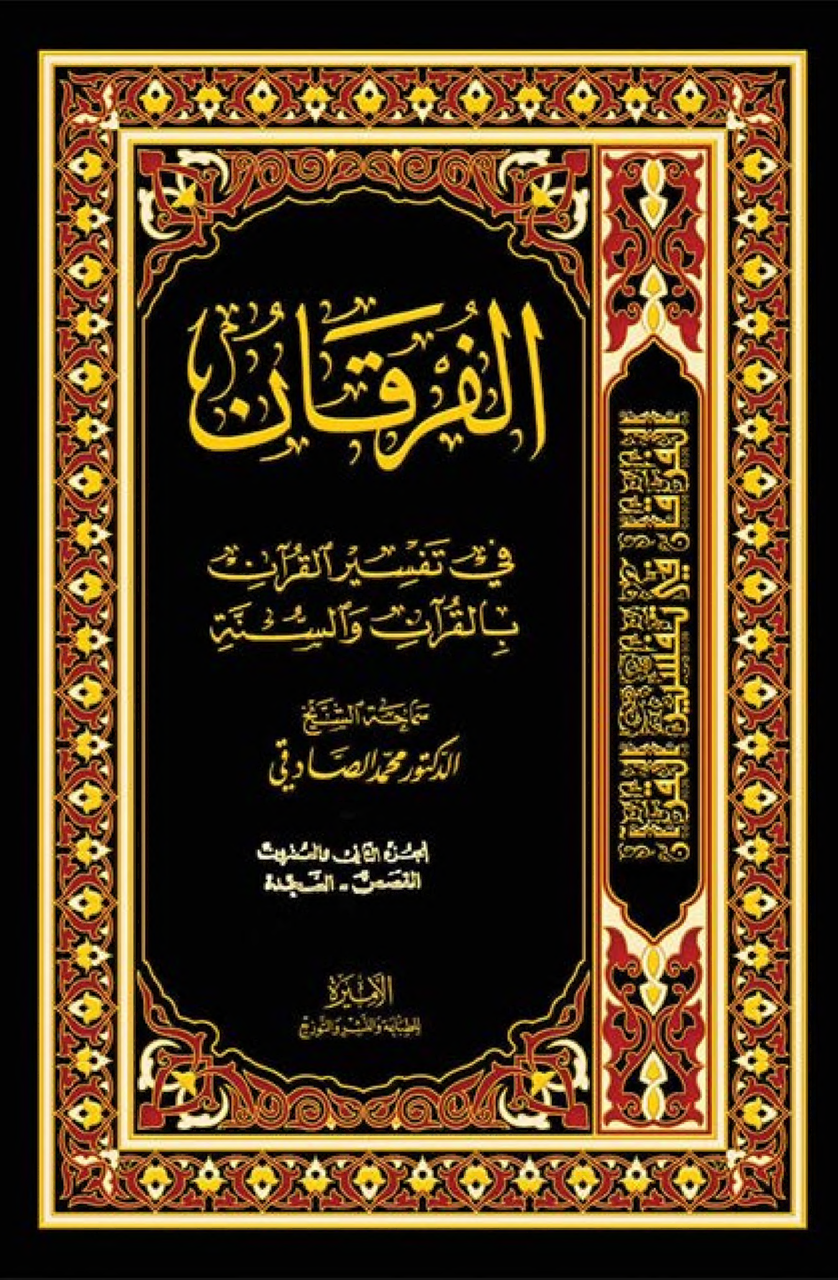

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة
سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي
الجزء الثاني والعشرون
القصص - السجدة
الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

الجزء الثاني والعشرون

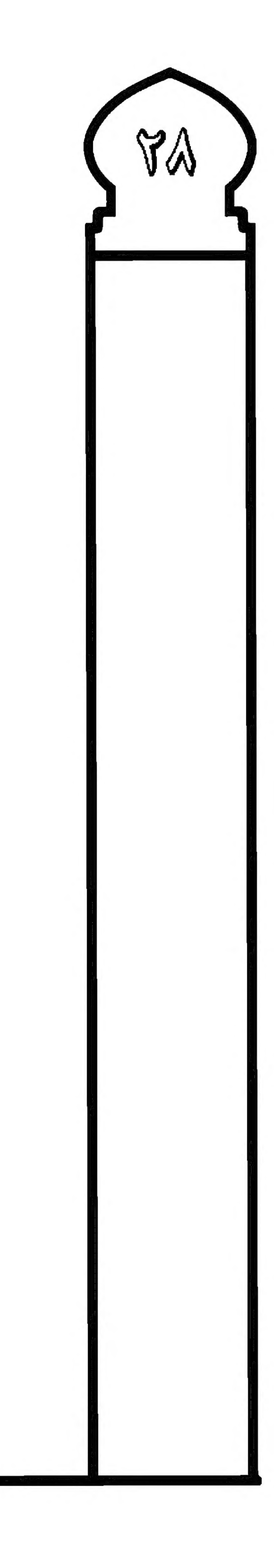
تتمة سورة القصص - سورة العكبوت

سورة الروم - سورة لقمان - سورة السجدة



سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي



تتمة

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ
بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ
ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ
أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ
تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ
ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن
نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ
وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ
أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟
سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ
ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟
لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى
مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ
ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن
قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ
بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟

عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ﴾ تأكيدان اثنان تؤكدان ضرورة إيتاء الكتاب ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ وهي التي قبل قرنه منذ قرن نوح وعاد وثمود إلى قرن فرعون ومن بينهم من المهلكين ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: التوراة ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾: تبصِّرهم تأريخ الهالكين وعاقبة الظالمين، تأتي البصائر توصيفة غالية في الذكر الحكيم خمساً، ثلاثاً تخصه نفسه: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾(1) - ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(2) - ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(3).

ورابعة للآيات الرسالية الموسوية: ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾(4) وخامسة للتوراة كما هنا.

والقرآن هو مجمع البصائر في كلتا المرحلتين، هما مقسومتان على توراة موسى ومعجزاته وأين بصائر من بصائر؟.

ثم ﴿بَصَآئِرَ﴾ هي جمع «بصيرة» وقد تكون تاؤها للمبالغة كما ﴿ٱلْإِنسَٰنُ

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٣.
(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٠.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٠٢.

عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾[١] مبالغة اطلاعه على نفسه، وبصيرة التوراة وآيات موسى فضلاً عن بصيرة القرآن هي مبالغة في الإبصار، كأنها التي تبصر الناظرين إليها، أو تبصر نفسها لهم لشدة التماعها وإشراقتها كما ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[٢] بصيرة تجلب إلى الإبصار إليها لمحجتها البيضاء.

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى﴾ مصدراً هي نفس الهداية وخالصها دون شوب، ﴿وَرَحْمَةً﴾ وذلك المثلث البارع من الإضاءة والإلماع ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ الحقَّ فبه يؤمنون.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿وَمَا كُنتَ﴾ بطبيعة الحال ولمّا كوِّنت ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ من الوادي ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ الرساليّ بإنزال التوراة ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ صورة القضية إذ ذاك، ولكنا بيناها لك وضْحَ الشمس في رابعة النهار.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

﴿وَمَا كُنتَ ... وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ منهم ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أغفالاً وجهالاً ثم أشهدناك قصصهم ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ مقيماً ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ لترى ما مضى على شعيب وموسى فيها ﴿وَمَا كُنتَ ... تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ لترى ردة الفعل منهم ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا﴾ على طول خط التكليف ﴿مُرْسِلِينَ﴾ دونما وقفة في إرسال الرسل، و﴿مُرْسِلِينَ﴾ إياك لـ ﴿تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

---

(١) سورة القيامة، الآية: ١٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٢.

﴿بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ أول ما ناديناه «ما كنت» لا هنا ولا هناك لتسمع النداء والوحي فتعلم ما عُلِّمه موسى ﴿وَلَٰكِن﴾ ناديناك وأنزلنا إليك الكتاب ﴿رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ في قمتها العالية المنقطعة النظير بين كلّ بشير ونذير ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ في الفترة الرسالية البعيدة المدى، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فأمرك - إذن - يا محمد ﷺ أصعب من أمر موسى، ولأن عبئك أثقل ورسالتك أعلى وأشمل، فطريقك أطول وأعضل، فاصبر يا حامل الرسالة الأخيرة التي تحمل جوهرة خالدة من كلّ الرسالات.

وقد تلمح «ما كنت إذ قضينا ونادينا» أن جرى ذكر محمد ﷺ فيما نودي إلى موسى وقضي إليه، وكما نجده في بشارات توراتية باقية حتى الآن رغم تطاولات التحريفات والتجديفات! وهنا روايات تؤيد تلك اللمحة اللّامعة بحق الرسول ﷺ وأمته(١).

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٣٠ - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: لما قرب الله موسى إلى طور سيناء نجيا قال: أي رب هل أحد أكرم عليك مني قربتني نجياً وكلمتني تكليماً؟ قال: نعم محمد ﷺ أكرم علي منك، قال: فإن كان محمد أكرم علي منك فهل أمة محمد أكرم من بني إسرائيل فلقت لهم البحر وأنجيتهم من فرعون وعمله وأطعمتهم المن والسلوى؟ قال: نعم أمة محمد ﷺ أكرم علي من بني إسرائيل، قال: إلهي أرنيهم، قال: إنك لن تراهم وإن شئت أسمعتك صوتهم، قال: نعم، فنادى ربنا أمة محمد أجيبوا ربكم فأجابوا وهم في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم إلى يوم القيامة فقالوا: لبيك ربنا حقاً ونحن عبيدك حقاً، قال: صدقتم وأنا ربكم وأنتم عبيدي حقاً ونحن عبيدك حقاً، قال: صدقتم وأنا ربكم وأنتم عبيدي حقاً قد غفرت لكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني فمن لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلّا الله دخل الجنة» أقول علّه تعالى أسمعهم صوتاً يشبه صوتهم إذ لا صوت لمن في الأصلاب والأرحام ذرا ولا عقل ولا تكليف!.

وفي نور الثقلين ٤: ١٣٠ عن عيون أخبار الرضا عليه السلام في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من الأخبار المتفرقة حديث طويل وفيه أن رسول الله ﷺ قال: - وذكر ما في معناه بزيادة قبل فضل أمته هي «قال موسى يا رب فإن كان محمد أكرم عندك من جميع خلقك فهل في آل الأنبياء أكرم من آلي؟ قال الله جل جلاله: يا موسى أما علمت أن فضل آل محمد على جميع =

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾:

«لولا» امتناعية تمنع ﴿مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ في الدنيا، وعلّ الجواب بقرينة ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ...﴾ هو: لما أرسلنا رسولاً، وذلك مصيبة تصيب منكري الرسالات لو أن الدنيا دار جزاء، وأنهم لا يحتجون على الله ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا...﴾ ولكنهم محتجون لولا الإرسال رغم ما قدمت أيديهم من التكذيب على مدار الزمن الرسالي، فيُرسل الله رسلاً تترى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[1] - ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ۝٤٨﴾:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ﴾ هؤلاء المشركين وأهل الكتاب أجمعين ﴿ٱلْحَقُّ﴾ رسول الحق محمد ﷺ بالكتاب الحق في بُعدي الشرعة وآية الرسالة ﴿قَالُواْ﴾ المشركون ﴿لَوْلَآ أُوتِيَ﴾ محمد ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾ من كتاب وآية رسالية، فلا أن القرآن مثل التوراة، ولا معجزة القرآن كالآيات الرسالية لموسى.

= آل النبيين كفضل محمد على جميع المرسلين، وزيادة أخرى في جواب موسى بالنسبة لأمة محمد ﷺ: يا موسى لن تراهم وليس هذا أو أن ظهورهم ولكن سوف تراهم في الجنان جنات عدن والفردوس بحضرة محمد في نعيمها يتقلبون وفي خيراتها يتبجحون أفتحب أن أسمعك كلامهم... وعبارة أخرى هي التلبيات بدلاً عما مضت: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك أن الحمد والنعمة والملك لك لا شريك لك، قال: فجعل الله عزوجل تلك الإجابة شعار الحاج...

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٩.

وهنا أجوبة ثلاثة حلاً ونقضاً وتحدياً أكتفي هنا بالثاني: ألم يكفروا ذلك الجيل المشرك بكل الرسالات ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ كما كفروا بما أوتيت يا محمد من بعد[١] إذ ﴿قَالُوا﴾ فيك وفي موسى على سواء ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾.

والحل ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[٢] - ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[٣] وليست من لزامات آيات الرسالات المشابهة إلّا في التدليل على صدقها وهي دالة حيثما حلت، فالمشركون لم يكونوا صادقين في اعتذارهم، إذ كانوا مع أهل الكتاب في الجزيرة فلم يصدقوا بما أوتي موسى من قبل، فهنا الاعتذار باعتراض: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ مردود عليهم بنقض المثل ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا...﴾ فماذا تفيدهم المماثلة المقترَحة إلّا مماثلة الكفر، ولا يزيدون غير تخسير.

كما و﴿قَالُوا﴾ أهل الكتاب هوداً أو نصارى نفس القالة: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...﴾[٤]. ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ كفراً بإشراك حيث عبدوا العجل، وكفراً في مواضع عدة كقصة البقرة وأضرابها، وكفراً بالبشارات المحمدية المودوعة في التوراة ﴿قَالُوا﴾ هؤلاء الكفرة من أهل الكتاب لموسى وهارون، وللتوراة والقرآن ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ لا «ساحران»

(١) الواو في «أولم» عطف على محذوف هو الكفر بالرسالات السابقة والرسالة الأخيرة، فهم في ثالوث الكفر بالرسالة ما تشابه منها وسواها.
ثم ﴿مِن قَبْلُ﴾ كما تتعلق بـ ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا...﴾ [القَصَص: ٤٨] قصداً إلى المشركين زمن موسى، كذلك تتعلق بـ ﴿مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ [القَصَص: ٤٨] قصداً إلى الحاضرين، توحيداً بين الحاضرين والغابرين في ذلك الكفر المماثل.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

تعميقاً في فرية السحر كأن كلّ كيان الكتابين والرسولين سحر ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾!.

ومهما كان المعنيان معنيين من ﴿سِحْرَانِ﴾ ولكنما الأصل هنا هما الكتابان كما يشهد له ﴿أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ كجواب التحدي فيهما: ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ بغير مَظهرهما كأنهما آية بينة، وأظهر القول هنا هو من المشركين، والكتابيون معنيون على هامشهم، فالنقض يشملهما جميعاً مهما اختلفت دركاتهما في كفرهما، وإلى جواب ثالث تحدياً أن يأتوا بمثل التوراة والقرآن:

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

وحين لا بد في الرسالات الإلهية من كتب الوحي ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾: التوراة والقرآن ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في فرية السحر، فأتوا من عند الله بغير سحر هو أهدى منهما اتبعه، وذلك تنازل في التحدي، فإنه من واجهة أخرى قبلها ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ... إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[(١)].

وترى التوراة الحاضرة هي كتاب هدًى مطلقة حتى يُتحدى بها؟ علّ القصد هنا إلى التوراة الأصيلة، أم والحاضرة المهيمن عليها القرآن مخطِّئاً أخطاءها ومصوِّباً صوابها، ثم التحدي بهما جميعاً ولا أهدى منهما جميعاً ولا مثلاً لهما!، ثم الهدى في بُعد الدعوة الرسالية ماثلة في التوراة الأصلية مهما لم تكن في بُعد الحجة للداعية.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾:

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ ولن ﴿فَٱعْلَمْ﴾ ثباتاً على علمك بالوحي بمزيد علم من ذلك التحدي ﴿أَنَّمَا﴾ ليس إلّا ﴿يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ لا عقولهم

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

المتحللة عنها، غير المحجوبة بها، وذلك هو الضلال البعيد أن متبع الهوى يحاول أن تتبعه الهدى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ضلالاً ذا بعدين بعيدين عن الهدى: اتباع الهوى - بغير هدى من الله! فقد تُوافق الهوى الهدى أحياناً كما تخالفها أخرى، واما اتباع الهوى كأصل، ثم التخلف عن الهدى الأصل فهما أضل ضلال، وأظلم ظلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فلا يهدي الهوى المتخلفة عن الهدى.

وكضابطة ثابتة كل ما لا يوافق كتاب الله وسنة رسول الله، أو تخالفهما من رأي، فهو هوّى ضالة، مهما أثبتته الأدلة العلمية والعقيلة أماهيه، فإما هدى تختص هي بوحي الله، وإما هوى تعم ثالوثها نفساً وعقلاً وعلماً، كما وأن رسول الهدى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[1] [2].

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١﴾:

وإنه قول الوحي الهدى حيث تترى على مدار الزمن دونما انقطاع ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3] ﴿وَلَقَدْ﴾ تأكيد في بعدي الرسل والرسالات، وهما والكتابات، وهما والمعجزات ﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ الحق المطلق ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ به ولمّا إلّا شذراً منهم قليلاً وأكثرهم كافرون.

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.

(٢) نور الثقلين ٤ : ١٣٢ في أصول الكافي عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن أبي الحسن عليه السلام في الآية قال: يعني من اتخذ دينه رأيه بغير إمام من أئمة الهدى.
وعن علي بن إبراهيم بسند متصل عن سدير قال قال أبو جعفر عليه السلام: يا سدير أفأريك الصادين عن دين الله ثم نظر إلى أبي حنيفة وسفيان الثوري في ذلك الزمان وهم حلق في المسجد فقال: هؤلاء الصادون عن دين الله بلا هدى من الله ولا كتاب مبين، إن هؤلاء الأخابث لو جلسوا في بيوتهم فجال الناس فلم يجدوا أحداً يخبرهم عن الله تبارك وتعالى وعن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم حتى يأتونا فنخبرهم عن الله تبارك وعن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم..

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٤٨.

فهؤلاء المشركون الناكرون لوحي القرآن دونما أية حجة إلّا لجة غامرة من الهوى، غير عامرة بالهدى، ثم أولاء أهل الكتاب وكأنهم لم يؤتوا الكتاب، وأما:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

أترى ضميري الغائب في «قبله - به» راجعان - فقط - إلى القرآن، لأنه هنا كان محلَّ النقض والإبرام كما ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ...﴾؟ والحق في ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ هو الرسول الحق برسالة حقة في القرآن: ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ هذا الحق الرسالي ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ...﴾! أم هما راجعان إلى رسول القرآن؟ و﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ لا تعني إلّا القرآن! الوجهان هما المعنيان، والرسول يُتلى عليهم كما القرآن، بل وهو أيضاً قرآن: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾[1]، وحتى إذا لا تناسبه أن يتلى، فهذه قرينة أنه القرآن، وتلك ﴿... ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾[2] إنه نبي القرآن، فهما - إذاً - معنيّان، فهما واحد مع أنهما اثنان.

فـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ رسولاً وقرآناً ﴿هُم بِهِۦ﴾ قرآناً ورسولاً ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وطبعاً ليسوا هؤلاء كلّ الذين أوتوا الكتاب، بل هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[3] [4]،

(١) سورة يس، الآية: ٦٩.

(٢) سورة يونس، الآية: ٧٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢١.

(٤) الدر المنثور ٥: ١٣١ - أخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي رفاعة قال: خرج عشرة رهط من أهل الكتاب منهم أبو رفاعة إلى النبي ﷺ فآمنوا فأوذوا فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [القَصَص: ٥٢] وفيه أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في الآية كنا نحدث أنها أنزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق يأخذون بها وينتهون إليها حتى بعث الله محمداً ﷺ وصبرهم على ذلك وذكر لنا أن منهم سلمان وعبد الله بن سلام. =

أجل أولئك الأكارم يؤمنون به قرآناً ونبيه، لا فحسب بل و﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(١) ﴿. . . ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٢) (٣) وقد نص عليه في التوراة كما في النص العبراني التالي «يِدعُوا ييسرائِل إوايِل حَنْبيا مَشُوكَاعْ إيشْ هَارُوحَ عَلْ رُوبْ عَوُنِخَا وِرَباهْ مَشِطْمَاهْ»:

بنو إسرائيل يعلمون ويعرفون أن النبي الأمي المصروع صاحب روح الهامي وصاحب الوحي»! و«المصروع» هنا تعريض عليهم حيث ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾(٤)!.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾:

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن - أو - ونبي القرآن عرضاً عليهم ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا

= وفيه (١٣٣) أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال: نزلت في عبد الله بن سلام لما اسلم أحب أن يخبر النبي ﷺ بعظمته في اليهود ومنزلته فيهم وقد ستر بينه وبينهم ستراً فكلمهم ودعاهم فأبوا فقال: أخبروني عن عبد الله بن سلام كيف هو فيكم؟ قالوا: ذاك سيدنا وأعلمنا، قال: أرأيتم إن آمن بي وصدقني أتؤمنون بي وتصدقوني؟ قالوا: لا يفعل ذاك هو أفقه فينا من أن يدع دينه ويتبعك! قال ﷺ: أرأيتم إن فعل؟ قالوا: لا يفعل! قال: أرأيتم إن فعل؟ قالوا: إذاً نفعل، قال: اخرج يا عبد الله بن سلام فخرج فقال ﷺ: أولم تثنوا عليه آنفاً؟ قالوا: إنا استحينا أن تقول اغتبتم صاحبكم من خلفه فجعلوا يشتمونه فقام إليه أمين بن يامين فقال: أشهد أن عبد الله بن سلام صادق فابسط يدك فبايعه فأنزل الله فيهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ . . .﴾ [القصص: ٥٢] وعن سعيد بن جبير نزلت في سبعين من القسيسين فبعثهم النجاشي فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ [يس: ١-٢] حتى ختمها فجعلوا يبكون وأسلموا ونزلت فيهم هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٥٢].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢.

(٣) الدر المنثور ٥: ١٣١ - أخرج البخاري في تاريخه وابن المنذر عن علي بن رفاعة قال: كان أبي من الذين آمنوا بالنبي ﷺ من أهل الكتاب وكانوا عشرة فلما جاؤوا جعل الناس يستهزئون بهم يضحكون منهم فأنزل الله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ . . .﴾ [القصص: ٥٤].

(٤) سورة القلم، الآيتان: ٥١، ٥٢.

﴿بِهِۦ﴾ نبياً بكتابه، وإن اختصت التلاوة بالقرآن، فحين يتلى عليهم يقولون آمنا به: تالياً ومتلواً عليهم، حيث القرآن برهان أن من جاء به رسول من عند اللّه ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ الآن ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ المطلق ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾ بل ليس فحسب الإيمان الآن فـ ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾ لما بُشِّرنا في كتاباتنا السماوية بالقرآن ونبيه، وكنا ناظرين ظهور ذلك الحق المبين، فـ :

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٥٤﴾:

مرة أولى من الأجر الموعود بما آمنوا بكتابهم وبنبيه، وأخرى أن آمنوا بما يتلى عليهم من القرآن ونبيه[1] أو الأولى بما آمنوا به من قبل، وأخرى لمّا يتلى عليهم، أم الأولى بإيمانهم في المرحلتين، ثم ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾[2] في المرحلتين من الإيمان، ﴿صَبَرُواْ﴾ على عقبات الإيمان وعقوباته من ضفة اللّاإيمان، لا فحسب إنهم صبروا على الأذى بل واستعلوا على الكبرياء النفسية: ﴿وَيَدۡرَءُونَ﴾: يدفعون أو يرفعون «بـ» الطريقة «الحسنة» وبنفس الحسنة ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ وكما أمروا ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[3] ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الإيمان، ودرء السيئة بالحسنة دفعاً عن الإيمان وقبيله وعن أنفسهم، بمال وقوة في الروح أو الجسم.

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣٣، أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن مردويه والبيهقي عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ: ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بالكتاب الأول والكتاب الآخر ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده وفيه أخرج أحمد والطبراني عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: من أسلم من أهل الكتاب فله أجره مرتين.

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٣١ - أخرج البخاري في تاريخه وابن المنذر عن علي بن رفاعة قال: كان أبي من الذين آمنوا بالنبي ﷺ من أهل الكتاب وكانوا عشرة فلما جاؤوا جعل الناس يستهزئون بهم ويضحكون منهم فأنزل الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ...﴾ [القصص: ٥٤].

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٩٦.

وقد تعني الحسنة والسيئَة الحياة، فبالحياة الحسنة وهي الإيمانية الصابرة المثابرة، يدفعون الحياة السيئَة المتكاثرة المكابرة، والتقية في مجالاتها الصالحة من الحسنة والإذاعة في غير صالحها سيئَة[1]: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[2].

ثم الدرءُ قد يكون دفعاً ولمّا تُصِبه السيئَة وهي مشرفة، أم رفعاً كما التوبة الرافعة للمعصية، وكذلك ترك كبائر السيئات وفعل كبائر الحسنات، وعلى أية حال فسنة الحياة الإيمانية المليئَة بالشبكات والشوكات والحرمانات هي - حتى المقدرة - أن تدرأ السيئَة بالحسنة، فقد تكون الحسنة هي التقية وأخرى هي الجهاد والمقاتلة كلٌّ في سبيل الحفاظ على صالح الإيمان والمؤمنين، فالحياة التي تفني في سبيل القضاء على الكفر هي من الحسنة التي تدرأ بها السيئَة، كما وكل ما ينفق من مال وحال ومنال وعقل وعلم في سبيل درءِ السيئات هي من الحسنة، «فلا تكونن ممن يقول في شيءٍ أنه في شيءٍ خاص» ما وسعت الدلالة لمداليل واسعة شاسعة.

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾:

أولئك الأكارم من أهل الكتاب، المؤمنون بالقرآن ونبيه هم صابرون في إيمانهم صامدون، ومن تصبُّرهم في الله ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ﴾ حين انتقلوا من كتابهم إلى القرآن، سمعوا من أهل ملتهم السابقين ﴿أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾

---

(١) نور الثقلين ٤ : ١٢٣ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٤] على التقية، ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [القصص: ٥٤] قال: الحسنة التقية والسيئة الإذاعة.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٢.

والإعراض عن اللغو هو عدم التأثّر به، والإجابة عنه، وهو من شيم المؤمنين الصادقين ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[١] ولم يقولوا لغواً جواباً عن لغو بل ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ فلماذا اللغو إذاً، فكما لا نُسمعكم لغواً إذ لم تؤمنوا فلا تُسمعونا لغواً إذ آمنآ، وليس منها إلّا ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ في لفظة القال وواقع الحال والأعمال ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[٢]! ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ اللاغين بلغوا القول وزخرفه رغم ما يبغون علينا هؤلاء المجاهيل، وهذا من درءِ السيئة بالحسنة، ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ إلّا أن ننصحهم ونهديهم إلى صراط مستقيم.

وهذه مفاصلة حسنة بينهم وبين اللاغين، إعراضاً عن المقابلة بالمثل أولاً، وجدالاً بالتي هي أحسن ثانياً، وسلام عليهم إعلاماً أنهم ليسوا لهم إلّا سلامة ثالثاً، ثم متاركة معهم أخيراً: ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أن نكالمهم أو نجالسهم إذا هم مصرون على الجهالة[٣].

ويا له من أدب بارع يقابلون به السوء الهارع، إذ هم يحتاجون إلى مزيد من صامد الإيمان، فلا يهتاجون أمام اللغو من قولة للإيمان، وإنما هو

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٢.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

(٣) روى محمد بن إسحاق في السيرة «ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة فلما فرغوا من مساءلة النبي ﷺ عما أرادوا دعاهم إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال؟ ما نعلم ركباً أحمق منكم! فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليهم لما نأل أنفسنا خيراً».

الترفع والسماحة وحب الخير حتى للمسيئين، مهما اقتضى الخير استئصالهم إذا كانوا مفسدين.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦)﴾:

إن رسول الهدى كان يحب أن يهدي الضالين كلهم أو جلّهم فيضيق صدراً بما يرى من صمودهم على الضلال قلقاً، ويحاول ليل نهار أن يحصل على عدد أكثر ممن يهتدي إلى الله، فنزلت هذه وأضرابها مسلية خاطره القلق ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾(١) - ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ...﴾(٢) و﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هداه ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ هدى التوفيق إلى صراط مستقيم بدلالتك الرسالية الوافية، فلا بد لواقع الهدى من ضم الهديين، هديٍ منك تدليلاً إلى شرعتك، وهديٍ من الله توفيقاً لتقبلها والإقبال إليها، وليس يوفق الله عبداً إلّا أن يريد هو الهدى فاهتدى بما تحرّى ووفقه الله ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾(٣).

وقد يروى عن رسول الهدى قوله في واقع الضلالة والهدى: «بعثت داعياً ومبلغاً وليس إلي من الهدى شيءٌ وخلق إبليس مزيناً وليس إليه من الضلالة شيء»(٤)، وهو ﷺ لا يعني من السلب إلّا التدليل في الهداية أو التضليل، ولا من الإيجاب إلّا واقعهما في حقل التخيير وليس التسيير.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٨. (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٢.

(٣) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٤) الدر المنثور ٥: ١٣٤ - أخرج العقيلي وابن عدي وابن مردويه والديلمي وابن عساكر وابن النجار عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ: ...

وفي نور الثقلين ٤: ١٣٤ في أصول الكافي محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن عيسى عن ابن فضال عن علي بن عقبة عن أبيه قال قال أبو عبد الله عليه السلام: اجعلوا أمركم هذا لله ولا تجعلوه للناس فأما ما كان لله فهو لله وما كان للناس فلا يصعد إلى السماء ولا تخاصموا بدينكم الناس فإن المخاصمة ممرضة للقلب إن الله عز وجل قال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] وقال: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ =

فليس الرسول هادياً إلّا في حقل الدلالة الرسالية: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1] ثم الهدى الواقعية توفيقاً لها فوصولاً إليها هي من الله لا سواه، فالثابتة له هي هداية البيان، والمسلوبة عنه هي هداية التوفيق.

هذه هي الوجهة العامة للآية وأضرابها، وأما الخاصة، المتناحرة فيها بين روايات العامة والخاصة فمما يجب أن نذود عن ساحة القرآن الحكيم، ما يمس من ساحة الرسول ﷺ أم ربِّه ووصيه علي أمير المؤمنين، نكاية أولى على الرسول مصارحة، وثانية عليه إشارةً في الإزراء بأخيه في أبي طالب أبيه، ومن أشنع ما رووه أن النبي ﷺ كان يحب إسلام أبي طالب فنزلت ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ...﴾. وكان يكره إسلام وحشي قاتل حمزة فنزلت فيه ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ...﴾[2] «فلم يسلم أبو طالب وأسلم وحشي»[3]! وذلك البعيد البعيد عرض للمعارضة بين حب الله ورسوله، نكاية بالإمام علي عليه السلام، والمختلِق أعمى!

وروايات أئمة أهل البيت عليهم السلام عن رسول الله ﷺ متظافرة في إيمان أبي طالب، وقد ألفت فيه كتب فذة وأنشدت أشعار، والشعر والنثر المنقول عنه شاهد لإيمانه، وقد آوى النبي ﷺ صغيراً وحماه كبيراً وحتى النفس الأخير من حياته كان من أعظم المناصرين له ﷺ! وقد تبلغ أشعاره في مدح النبي وتصديقه سفراً فذاً، كما الروايات في إيمانه.

= [يونس: ٩٩] ذروا الناس فإن الناس أخذوا عن الناس وإنكم أخذتم عن رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام ولا سواء وإني سمعت أبي عليه السلام يقول: إذا كتب الله على عبد أن يدخله في الأمر كان اسرع إليه من الطير إلى وكره، وفي كتاب التوحيد مثله سواء.

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٢. (٢) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

(٣) في المجمع قيل نزول قوله: ﴿إِنَّكَ...﴾ في أبي طالب فإن النبي ﷺ كان يحب... رووا ذلك عن ابن عباس وغيره، وفي الدر المنثور ٥: ١٣٣ عن أبي هريرة قال: لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه النبي ﷺ فقال: يا عماه قل لا إله إلّا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيامة فقال: لولا أن تعيرني قريش يقولون ما حمله عليها إلّا جزعه من الموت لأقررت بها عينك فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٧٥)﴾

هنا قولة أخرى عاذرة غادرة للمتخلفين عن الإيمان من هؤلاء المشركين القاطنين في حرم الله، بعد ما وُجموا بنقض وتحدٍّ في قولتهم الأولى، وشهدوا أن الرسول حق، يردها الله عليهم بإجابات عدة تستأصل كلّ أعذارهم وأغدارهم، فإما أن يؤمنوا أم يظلوا كافرين لمصلحيات متخلفة خاوية: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1]!

﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧)﴾:

﴿إِن﴾ هنا دليل قربهم إلى الإيمان لظهور الحجة وبهور الحجة، أم إظهاراً لقربهم لولا المانع، و﴿نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ﴾ دليل تصديقهم لها وإلّا لم يسمّوها هدًى، و﴿مَعَكَ﴾ دليل أنه ﷺ لم يطلب منهم اتباعه، بل اتباع الهدى معه، الهدى التي معه، واتباعها معه إلى الله.

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ وهي الحرم المستفاد من ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا﴾ والتخطف هو الاختلاس بسرعة، إذ لا تمهلنا كتلة الشرك أن نظل هنا بعد أن آمنا!.

وهنا عليهم ردودٌ عدة تلميحة وتصريحة، ومن الأولى المعطوف عليه المعروف لـ ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن...﴾ كـ: ألم نمكن المؤمنين طول التاريخ الرسالي ونورثهم الأرض كما في بني إسرائيل والذين من قبلهم ومَن بعدهم حتى هذه الرسالة الأخيرة، مهما تحملوا - على طول الخط - صعوبات هي طبيعة الحال في مسيرة الإيمان بسيرته خلاف اللّاإيمان.

ومن التصريحة كرد حاضر هو المعطوف هنا ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن...﴾ فقد مكنه الله لهم وهم مشركون، ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ يحترمونه فلا يحاربون فيه إلّا شذراً نذراً وهم عارفون تلك الحرمة المنقطعة النظير في ذلك الحرم المحترم[1].

فمن ذا الذي مكنه لهم حرماً آمناً - وهم لا حرمة لهم - إلّا الله، أمناً تكوينياً وتشريعياً، فأحرى لهم ذلك الأمن إن آمنوا وطبقوا شرائط الإيمان.

وهنا ﴿ءَامِنًا﴾ بدلاً عن «مأموناً فيه» للتدليل على مدى الأمن فيه كأنه هو الأمن فضلاً عن قاطنيه كما ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[2] ثم الكعبة المباركة

---

(١) نور الثقلين ٤: ١٣٥ في روضة الواعظين قال علي بن الحسين عليه السلام كان أبو طالب يضرب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - إلى أن قال -: فقال أبو طالب: يا بن أخ إلى الناس كافة أرسلت أم إلى قومك خاصة؟ قال: لا بل إلى الناس أرسلت كافة الأبيض والأسود والعربي والعجمي، والذي نفسي بيده لأدعون إلى هذا الأمر الأبيض والأسود ومن على رؤوس الجبال ومن في لجج البحار ولأدعون السنة فارس والروم، فتخيرت قريش واستكبرت وقالت: أما تسمع إلى ابن أخيك وما يقول؟ والله لو سمعت بهذا فارس والروم لاختطفتنا من أرضنا وتقلعت الكعبة حجراً حجراً فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ...﴾ [القصص: ٥٧] أقول: طبعاً لم يكونوا هم كلّ قريش، وإنما هم الذين وجموا بتلك البراهين ولم يبق لهم عذر إلّا هذا، كما تدل الآية.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

يزيد أمناً لحد كأنه بنفسه الأمن: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[1] ومما لا يريبه شك أن مكة المكرمة هي أأمن البلاد تكوينياً وتشريعياً وحتى قبل الإسلام، وقد كان يتخطف الناس من حولهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾[2] ولقد آمن قليل من هؤلاء العاذرين فآواهم الله وأيدهم بنصره مهما هاجروا: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[3].

﴿. . . حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ والإجباء هو الإجلاب و﴿يُجْبَىٰٓ﴾ مستقبلاً مما يدل على استمرارية جبيها من كلّ مكان في كلّ مستقبل أكثر مما كان، وطبعاً حسب الحاجيات الوقتية والمستمرة للحجيج والمعتمرين والقاطنين.

و﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ تعم ثمرات القلوب كما في دعاء إبراهيم ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ. . .﴾[4] إلى سائر الثمرات العلمية والعقلية والاقتصادية والسياسية أماهيه، كما هي قضية الحال في ذلك المجال بالحشد العظيم من الحجاج وسائر الزوار، ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ وهو الرزق المتميز المنقطع النظير في المعمورة كلها، جمعاً في هذا البلد الأمين بين كلّ الثمرات، في تلك الأرض القاحلة التي لا ماءَ وافراً فيها ولا كلاء!.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ جاهلين هذه النعمة والمكرمة العظيمة أو متجاهلين عنها، وعن أن الذي مكّن لهم وآمنهم ليس هو الشرك بالله، بل هو كرامة من الله بقبلة المؤمنين ومأمن الإيمان!.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٧.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٦.

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

ثم وأقلهم يعلمون وهم الذين آمنوا وحقق الله لهم وعدهم كما مضت في آية الأنفال (٢٦)، مهما كان منهم ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[(١)]! ولقد طمأن الله المؤمنين بنصرة من لدنه كما ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾[(٢)] مهما كانت في سبيل الإيمان عراقيل وعقبات.

فحتى إذا تُخُطِّفوا من أرضهم، فهل إن عِرضهم المتخطَّف أولى بالصيانة أم أرضهم، وقضية الإيمان الصادق اليقين أن يضحي المؤمن للحفاظ عليه بكل ما لديه فضلاً عما وعدهم الله من النصر مهما كان سبيله شائكاً ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾[(٣)].

ثم البقاء على أرض الوطن لا يضمن الأمن حين تكون الحياة متخلفة عن شرعة الله والمعيشة بطرة:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥٨﴾:

وذلك نقض ثان وحجة ثالثة تدحض عاذرتهم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ﴾ مجتمع كافر غادر ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ﴾ فالنعمة المعيشة حين تُحوَّل إلى النَّعمة فهي بَطِرة مُلهية، فالبَطْر دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها، فبطر المعيشة هو جعلها مبطرة ملهية في غير ما حقٍّ «والدهر يومان يوم لك ويوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر وإذا كان عليك فاصبر فبكلاهما ستختبر».

وقد تكون ﴿بَطِرَتْ﴾ من كلا البطْر: الشق، والبَطَر: تجاوز الحد في

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٢) سورة غافر، الآية: ٥١.
(٣) سورة يوسف، الآية: ١٨.

المَرَح، فعلها لذلك تعدت بنفسها إلى مفعولها، فقد شقت معيشتها إلى غير عيشتها فبدلت نعمة الله كفراً، وتجاوزت الحد في المرح والتغنج في النعمة فأصبحَت نعَمة ونقمة.

﴿فَتِلْكَ﴾ البعيد الرذيل العزيل ﴿مَسَٰكِنُهُمْ﴾ البطرة العطرة العالية الغالية ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ إذ هلكت عن سكناها ﴿إِلَّا قَلِيلًاۖ﴾ وقد يعم الاستثناء هنا مثلثاً من المستثنى منه أن «أهلكنا.. إلّا قليلاً - لم تسكن إلّا قليلاً منها - من بعدهم إلّا قليلاً» قلات ثلاث في استثناءات ثلاثة، مهما كان الأوسط منها يقتضي أدبياً «إلا قليلٌ» لكن الآخران يقتضيان النصب كما هو، والجمع بين الكل يقتضي النصب.

فقد أهلكنا إلّا قليلاً منها، ولم تسكن ما هلكت إلّا قليلاً منها، ولا من بعدهم إلّا سكنى قليلة حيث أصبحت ممرات المارة المستفيدة منها قليلاً دون أن تتخذ مساكن دائمة ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ إذ لا ساكن لها، فكما أن لله ملك السماوات والأرض في الأصل، ثم يجعلنا مستخلفين في بعض الملك مجازياً عارضياً ووقتياً، كذلك له هذا الثاني الذي يستخلفنا فيه حين تهلك أو يهلك أهلوها، فقد تهلك القرية بأهلها فلا بيوتَ حتى تُسكن وإنْ قليلاً، وقد يهلك أهلوها وتهلك هي بعضاً فتبقى بعض البيوت عامرة أو شبه عامرة فلا تُسكن إلّا قليلاً ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ على أية حال.

فيا أهالي أم القرى المرزوقة من كلّ الثمرات لا تبطروا معيشتها فتستحقوا الهلاك والدمار، فإن بطر المعيشة هو السبب الأصيل لهلاك القرى باستهلاكها، وقد أوتيتم ذلك الحرم الآمن، فاحذروا أن يحل بكم الهلاك كما بالغابرين، فقد بقيت قراهم شاخصة تحدِّث عن مصارع أهليها ولم يرثها أحدٌ بعدهم ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩)﴾:

ليس - فقط - إهلاك القرى أن بطرت معيشتها إلّا بحجة قاطعة تبين حق المعيشة عن باطلها، أن يبعث في أمها - لا كلها - رسولاً، فأم القرى وعاصمتها متَّبعة بطبيعة الحال في حق أم باطل، ﴿وَمَا كَانَ﴾ على طول خط التكليف ﴿رَبُّكَ﴾ الذي أرسلك في أم القرى ﴿مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾ لا فحسب ﴿يَبْعَثَ﴾ بل و﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ﴾ كلّ القرى آياتنا ﴿يَتْلُوا﴾ بنفسه أم مرسليه الحاملين دعوته معصومة عاصمة ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾[1] ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ فإنهم رغم الرسالات في أمها يظلمونها تكذيباً لها وبطراً في معيشتهم، ظلماً لا يُتحمل في حياة التكليف دون الظلامات اليسيرة القصيرة: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[2] ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾[3] ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾[4].

﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠)﴾:

وهذه حجة رابعة تقطع معاذيرهم عن بكرتها أن أرضكم وكل ما عليها ولكم ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فحتى إذا خُطِّفتم من أرضكم إن اتبعتم معي الهدى، فما هي أرضكم وكل حياتكم إلّا متاع الحياة الدنيا

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٠٨.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٦.
(٣) سورة طه، الآية: ١٣٤.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٣١.

وزينتها أمام عرضكم فلتشتروا بها ما عند الله ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ مما أوتيتم ﴿وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ رجاحة الهدى على الردى، وإن ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ﴾ من متاع ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؟[1].

وذلك هو التقويم الأخير لكل ما أوتيتم من شيء فتخافون أن تُختطف منكم إن آمنتم، والمفاضلة بين أمان الإيمان وأمان اللاإيمان بحاجة إلى عقل عن الحياة وقيمتها، في مفاصلة بين وعد الله لقبيل الإيمان ووعد الشيطان لقبيله اللّاإيمان:

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾:

كلا الوعد الحسن ومتاع الحياة الدنيا من الله لأهل الآخرة والدنيا، والوعد الحسن لأهله هو الحياة الطيبة في الدارين ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2] ف ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ تشملهما، و«لنجزينهم» تخص الأخرى.

كما وهي حياة النصرة الربانية فيهما: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[3] وأما من ﴿مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٣٥ - أخرج مسلم والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله عز وجل: يا بن آدم مرضت فلم تعدني، فيقول: رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ فيقول: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده، ويقول: يا بن آدم استسقيتك فلم تسقني فيقول: أي رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ فيقول تبارك وتعالى: أما علمت أن عبدي فلاناً استسقاك فلم تسقه أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي، قال: ويقول: يا بن آدم استطعمتك فلم تطعمني، فيقول: أي رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين، فيقول: أما علمت أن عبدي فلاناً استطعمك فلم تطعمه أما أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٣) سورة غافر، الآية: ٥١.

مطمئناً إليها، غافلاً عن الأخرى فـ ﴿هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ لسوء الحساب، حيث المحضرون هم المجبَرون على الحضور، حساباً لسيئاتهم وتحسباً لعقوباتهم، والحاضرون يوم الحساب هم أعم من المحضرين، كما في آيات ثمان تعد المحضرين من المعذبين اللهمّ إلّا البعض منها حيث تستثني عن الإحضار عباد الله المخلَصين: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[1] ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[2] في احتمال اتصال الاستثناء تعميماً لضمير الجمع كافة العباد، صحيح أن من الممتعين متاع الحياة الدنيا من يتذرّعها للحياة الأخرى، إلّا أن التقابل بينهم - هنا - وبين «من متعناه متاعاً حسناً» يختص هؤلاء الممتَّعين بمن ﴿وَرَضُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا﴾[3] فحتى إذا لم تخلف حياة المتاع عذاباً في الأخرى، فقد يكفي أنها محرمة لها، وهل من عاقل يرجح هذه الفانية الهزيلة الرذيلة على تلك الباقية الفضيلة؟! فضلاً عن أنها تخلف العذاب الدائب فيها، ذلك! وإلى سائر المفاصلات بين الفريقين في النشأتين، ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد!:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

وهؤلاء الشركاء المزعومون هم بين خيّرين كالملائكة والنبيين، والشريرين كفرعون ونمرود وسائر الطاغين، ثم عوانٍ بينهما ككلٍّ الأصنام والأوثان إذ لا عقل لها حتى تكون لها خيرة خيِّرة أم شِرِّيرة، فالأولون ناكرون أنهم شركاء، هناك كما هنا، والأوسطون ينكرون حق الشركة، معترفون بباطلها فهناك يستسلمون، والآخرون لا عقل لهم فيصدقوا وينكروا، والثلاثة شركاء في نكران شركهم مع الله إذ تزول الحجب فتظهر الحقائق: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾[4].

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٢٧.
(٢) سورة الصافات، الآية: ٤٠.
(٣) سورة يونس، الآية: ٧.
(٤) سورة يونس، الآية: ٢٨.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَاۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ هنا هم الشركاء الطغاة بين داعية إلى نفسها، أم إلى أصنامها، دون الأولين الأكارم، فهؤلاء هم حَصَب جهنم وأولاء من السابقة لهم الحسنى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ... إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾[1].

قال الأولون ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركون الأتباع ﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَاۖ﴾ فطبيعة الغاوي هي الإغواء، كما طبيعة المهتدي هي الإهداء، مهما كانت باختيار دون إجبار كما هيه، فكما غوينا دون قسر، كذلك أغويناهم دون قسر، فلا سلطان على القلوب في غواية ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾[2] ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾[3].

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أترى «ما» هنا موصوفة، المتبرَّأُ منه إلى الله هو عبادتهم إيانا، وهو في معنى قول قائدهم الأوّل: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ﴾[4]؟ وصيغته الصريحة «تبرأنا إليك من عبادتهم إياناً»! أم موصولة، فالمتبرأ منه هو أنفسهم؟ وصيغته الصريحة «تبرأنا إليك منا حيث عبدنا»! أم هي نافية نكراناً لعبادتهم إياهم كما ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾[5]؟ وقد تكون ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ تثبيتاً لعبادتهم إياهم!

---

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ٩٨-١٠١.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الصافات، الآيات: ٣٠-٣٢.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.
(٥) سورة يونس، الآية: ٢٨.

وعلّ الكل معنية فإن لكلٍّ شاهداً، فـ ﴿أَغْوَيْنَـٰهُمْ﴾ مهما كان تثبيتاً لعبادتهم إياهم، ولكنها في الأصل عبادتهم لأهوائهم، فهي هي آلهتهم التي ألهتهم عن عبادة الله إلى ما تهواه أنفسهم من دون الله، و﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ من عبادتهم إيانا ومن أنفسنا إذ عُبدنا ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ عن عبادتهم إيانا إذ ما كانوا إيانا يعبدون، وإنما يعبدون أهواءَهم، أم لم تنحصر عبادتكم بنا، بل ومع أهوائكم وهي البادئة فيها، كما يلمح تقديم ﴿إِيَّانَا﴾ فلم يقولوا: «ما كنتم تعبدوننا» فإنها كاذبة، بل ﴿مَّا كَانُوٓاْ إِيَّانَا...﴾ أي ما انحصرت عبادتكم فينا، بل ومعنا غيرنا وهي أهوائكم التي دعتكم إليها! وهي الأصل في عبادتكم المتخلفة، تبرأنا إليك من جريمة إغوائهم، ومن عبادتهم لنا، ومن أن يكونوا - في الحق - يعبدوننا فقط، وإنما هي أهواؤهم ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1] فإنما عبدوا أهواءهم مبدئياً، ولذلك أطاعونا فيما أغويناهم، إذ وجدوا فينا أهواءهم، وأما أنهم ما دعوهم إلى عبادتهم فلا تصريحة لها ولا لمحة، بل و﴿أَغْوَيْنَـٰهُمْ﴾ وأضرابها تصريحة لهذه الدعوة النكدة الناكبة.

﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ليُنجوكم من عذاب الله كما وُعدتم فيهم ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ شاؤوا أم أبوا إذ لا خيرة في أمر الله هناك ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ فيما دعوهم إذ لا يستطيعون، وهم من الذين حق عليهم القول، وذلك عذاب نفسي فوق العذاب، ثم ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ من فورهم متحسرين متمنين ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ فلا يرووا العذاب، وقد تعني ﴿لَوْ﴾ هنا استحالة ذلك المتمني فقد مضى يوم خلاص ولات حين مناص، إذ يتمنون لو رُدُّوا فاهتدوا فلم يروا يومئذٍ العذاب.

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾:

هذا سؤال تأنيب وتهييب والله يعلم ماذا أجابوا المرسلين، وكما المرسلون يُسألون، إلّا أن هناك تخجيلاً وهنا تبجيل: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ. . .﴾[1]، لا جواب هنا ولا هناك، فهنا ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[2] احتراماً على علمهم بما علمهم الله، وهناك تحيرٌ وانبهارٌ:

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

فرغم أنهم على علم بأنبائهم في تكذيب المرسلين عميت عليهم حتى يزدادوا حيرة على حيرة، فالذاكر لذنبه قد يعرضه اعتذاراً، وأخرى إنكاراً، وفي كلٍّ تخفيف وقتي، فحتى لا يخفَّف عنهم هول المطلع عميت عليهم الأنباء ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ بعضهم البعض عن أنبائهم لأنهم سواء في التعمية عليهم فهم حائرون مائرون، و﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ﴾ دون «عموا عنها» يلقي ظلام العمى عليهم ككل دونما منفذ ينفذون عنه، فهم في ذهولهم صامتون لا يدرون من أي إلى أيٍّ يميلون!.

وذلك - فقط - للمكذبين دون المؤمنين على اختلاف درجاتهم في إجاباتهم المرسلين:

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾:

هنا تقابُلٌ بين الصفحة المظلمة للكافرين، والصفحة المشرقة للمؤمنين، و«عسى» تُرجِّيهم بذلك المثلث البارع من الفلاح، توبة وإيماناً وعملاً صالحاً، أن يكونوا من المفلحين، إذ لا يضمن لهم - ككل - العاقبة

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٩.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١٠٩.

الحسنى، فقد يرجعون كفاراً في العاقبة، فليلجأوا إلى الله ملتمسين منه حسن العاقبة، كما وأن الإيمان بزميليه ليس هو السبب التام للإفلاح لولا رحمة من الله وفضل، فعساه لهذا وذاك يأتي هنا بعسى.

وقد تكون ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ...﴾ استثناء عن ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ تعميماً للسؤال في «يناديهم، أن الكل يسأل عنهم» ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بين تخجيل وتبجيل وكما يروى عن الرسول ﷺ[1].

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

ذلك هو الجواب القاطع القاصع الأخير عن عاذرتهم أن لا مؤثر في الوجود إلّا الله، فلا طاقة مستقلة تتخطفكم عن أرضكم، مستغِلة ذلك دون أن يشاء الله، فإن له الخلق والأمر دونما جبر ولا تفويض.

فعلى العبد أن يقدِّم في الله ما في طوقه ووسعه، ولله الخيرة في أمره أن يفعل ما يشاء كما يشاء، دون اتكالية بلا سعي ولا عمل، ولا استقلالية لهم فيما يشاؤون، بل «أمر بين أمرين» أن يسعى ويتوكل على الله فيما يسعاه.

فلا إلغاء هنا للعقول والإرادات والنشاطات، ولا تفويض لها في الحصول على كلّ المرادات، بل عليهم أن يتقبلوا ما يقع ويرضوا بما وقع بعد ما بذلوا - دون تبذُّل - ما في وسعهم من التفكير والاختيار والتدبير، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

فـ ﴿وَرَبُّكَ﴾ الذي خلقك واختارك ورباك ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لا ما

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣٥ - أخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد والنسائي والطبراني وابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «ما من أحد إلّا سيخلو الله به كما يخلو أحدهم بالقمر ليلة البدر فيقول: يا بن آدم ما غرك بي يا بن آدم ماذا عملت فيما علمت يا بن آدم ماذا أجبت المرسلين»؟.

يشاؤون ﴿وَيَخْتَارُ﴾ فيما يخلق أو يشرع دونما إجبار له فيما يخلق ويختار ما يشاء لا كما يشاؤون ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ لا في خلق ولا اختيار ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به في خلق أو اختيار.

إن ﴿يَخْلُقُ﴾ هنا تعم كلّ خلق للمادة الأولية أماهيه من خلق، لا شريك له في أيٍّ كان منه وأيان من أي كان، وكذلك «يختار» في حقلي التكوين والتشريع ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[١] ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[٢] مع العلم أن خيرة الرسول إنما هي خيرة الله إذ لا يختار ما يختاره إلّا بوحي من الله، و«ما كان» نهي وليس نفياً يسلب عنهم أي اختيار. ومن اختياره تعالى أمرَ التشريع أن يختار الرسول الحامل لشرعته، وأوصياءَه المحمّلين تبيين شِرعته، فكما له اختيار الرسول دون سواه، كذلك له اختيار أوصيائه لا سواه، وترى ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ تنفي عنهم الاختيار في الأفعال التكليفية؟ كلّا! والاختيار فيها ثابت بدليل العقل والكتاب والسنة، والاختيار المنفي عنهم يختص بما يختص اختياره بالله، كخيرة الخلق والأمر تشريعاً وسواه من أمر الخلق، وكذلك الاختيار المطلق في الأفعال الاختيارية، فللّه الاختيار المطلق في كلّ ما يختار، وليس لنا مطلق الاختيار إذ قد تمنعنا موانع عما نختار، ثم قد نختار صالحاً أو طالحاً لا يختاره الله تكويناً فهنالك يكلُّ الاختيار كما في ذبح إبراهيم ولده، وفي حرقه عليه السلام بالنار، إذ لم يؤثر الاختيار هنا وهناك.

فالاختيار المنفي عنا في حقل التكوين هو الاختيار المطلق، وفي حقل التشريع هو مطلق الاختيار، فحين «لا جبر ولا تفويض بل أمرٌ بين أمرين»

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

لم يكن لنا في أفعالنا الاختيارية الاختيار المطلق، فإنه تفويض فإشراك بالله في ذلك الاختيار ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وحين لا شارع إلّا الله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾(١) فمطلق الاختيار لنا في التشريع - وإنْ في حكم واحد - إشراك بالله ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

كما وأن اختيار الرسل وأوصياءَهم الحَمَلة لرسالاتهم من غير الله إشراك بالله في حقل التشريع ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وقد استدل الإمام الرضا والقائم المهدي والإمام الصادق عليهم السلام بالآية وسواها على انحصار نصب الإمام بالله وانحساره عمن سواه(٢).

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢١.

(٢) نور الثقلين ٤: ١٣٦ في أصول الكافي أبو القاسم بن العلا رفعه عن عبد العزيز بن مسلم عن الرضا عليه السلام حديث طويل في فضل الإمام وصفاته يقول فيه: هل يعرفون قدر الإمامة ومحلها من الأمة فيجوز فيها اختيارهم - إلى قوله عليه السلام - لقد راموا صعباً وقالوا إفكاً وضلوا ضلا لاً بعيداً ووقعوا في الحيرة إذ تركوا الإمام عن بصيرة، زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين، رغبوا عن اختيار الله واختيار رسول الله إلى اختيارهم والقرآن يناديهم: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨] وقال عزّ وجلّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وفيه عن كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سعد بن عبد الله القمي عن الحجة القائم عليه السلام حديث طويل وفيه: قلت فأخبرني يا بن مولاي عن العلة التي تمنع القوم من اختيار الإمام لأنفسهم؟ قال: مصلح أم مفسد؟ قلت: مصلح، قال: فهل يجوز أن تقع خيرتهم على المفسد بعد أن لا يعلم أحد ما يخطر ببال غيره من صلاح أو فساد؟ قلت: بلى، قال عليه السلام: فهي العلة وأوردها لك ببرهان ينقاد لك عقلك ثم قال عليه السلام: أخبرني عن الرسل الذين اصطفاهم الله عزّ وجلّ وأنزل عليهم الكتاب وأيدهم بالوحي والعصمة إذ هم أعلام الأمم، أهدى إلى الاختيار منهم مثل موسى وعيسى عليهما السلام، هل يجوز مع وفور عقلهما إذ هما بالاختيار أن تقع خيرتهما على المنافق وهما يظنان أنه مؤمن؟ قلت: لا - قال: هذا موسى كليم الله مع وفور عقله وكمال علمه ونزول الوحي عليه اختار من اعيان قومه ووجوه عسكره لميقات ربه عزّ وجلّ سبعين رجلاً ممن لا يشك في إيمانهم وإخلاصهم فوقع خيرته على =

وقد تحتمل «ما» هنا بسبب كونها نفياً، أنها موصولة: ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ اختياراً فوق كلّ اختيار، فلا يُمضى اختيار ولا يمشّى إلّا أن يختاره الله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[(١)] وهذا وإن كان في نفسه صحيحاً، وهو قضية الأمر بين أمرين، إلّا أنه ليس يختار كلَّ ما كان لهم الخيرة، كما في قصتي إبراهيم الخليل وأضرابهما، إلّا أن تختص ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ بالبعض دونما استغراق، لا سيما وأنه ضمن المعني من «ما» إذ تعنيهما كما هو الصالح لساحة الربوبية.

ومن الخيرة الاستخارة في مورد الحيرة، حين لا تزول بتفكير ولا مشورة فيظل الإنسان حائراً لا يدري من أي إلى أي وكما يروى عن الرسول ﷺ[(٢)]:

= المنافقين قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥] - إلى قوله - ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥] فلما وجدنا اختيار من قد اصطفاه الله عَزَّوَجَلَّ للنبوة واقعاً على الأفسد دون الأصلح وهو يظن أنه الأصلح دون الأفسد علمنا أن الاختيار لا يجوز أن يفعل إلّا من يعلم ما تخفي الصدور وتكن الضمائر وتنصرف إليه السرائر وأن لا خطر لاختيار المهاجرين والأنصار بعد وقوع خيرة الأنبياء على ذوي الفساد لما أرادوا أهل الصلاح»!، وفي تفسير الفخر الرازي ٢٥: ١٤ روى أبو أمامة الباهلي عن النبي ﷺ أنه قال: كان قارون من السبعين المختارة الذين سمعوا كلام الله تعالى.

وفيه عن مصباح الشريعة قال الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في كلام طويل: وتعلم أن نواصي الخلق بيده فليس لهم نفس ولا لحظة إلّا بقدرته ومشيته وهم عاجزون عن إتيان أقل شيء في مملكته إلّا بإذنه وإرادته قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ...﴾ [القصص: ٦٨].

(١) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.

(٢) الدر المنثور ٥: ١٣٥ - أخرج البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن مردويه والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال كان يعلمنا السورة من القرآن يقول: إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري وعاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري وعاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ورضني به ويسمي حاجته باسمها.

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

إذاً فهو - لا سواه - الذي له الخيرة إذ يعلم كائنات الصدور وكناناتها، فلا تخفى عليه خافية منها، فهو الذي يعلم صالحهم من طالحهم، تكويناً وتشريعاً وانتصاباً لرسل وأوصياء، وانتخاباً لآيات الرسالة وموادها كما يعلم بحكمته العالية، فيختار كما يعلم دون اختيار من سواه إذ لا يعلمون كما ﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

«هو الله» لا سواه ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا سواه ﴿لَهُ الْحَمْدُ﴾ كله لا لسواه، ﴿فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ فلا يحمد سواه إلّا من يحمل رضاه حمداً متجهاً في أصله إلى الله ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ لا حكم بجنبه لسواه ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا سواه ﴿تُرْجَعُونَ﴾ كما منه تبدؤون فـ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[1].

وإنها كلمة التوحيد بأركانها الثلاثة بعد ركني السلب والإيجاب، فلأنه ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذا ﴿لَهُ الْحَمْدُ﴾ في كلّ حقوله واتجاهاته، في الدارين ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ تكويناً وتشريعاً ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هنا في الخلق والأمر، وهناك في الحساب فالثواب والعقاب، ثم «هو» هنا كما ترجع إلى الذات المقدسة الغيبية، كذلك راجعة إلى «ربك» السابق ذكره خلقاً واختياراً وعلماً بما تكن صدورهم، ذلك «هو الله» دون من لا يخلق ولا يَختار ولا يعلم كما هو، فـ ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في الذات والصفات وكافة شؤون الألوهية والربوبية، توحيدٌ بيِّنةُ الجهات، محلِّقة على كلِّ النشآت، في الذات وفي صفات الذات، يزيل كلّ وحشة ودهشة عن المؤمنين به، مطمئناً إياهم على أية حال، في كلّ حِلٍّ وترحال.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾:

سرمد الليل - وهو تداومة عذاب - كما سرمد النهار عذاب، وقد تلمح له ﴿عَلَيْكُمُ﴾ هنا وهناك، و﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيها لاختلاف شروط الحياة في الدارين، فليكن القياس في المعروف من الحياة الأولى، وترى كيف يجتمع سرمد الليل وإتيان الضياء فيه وهما لا يجتمعان مهما كان هناك إله يأتي بضياء، فالمحال محال سواء أكان لله أم لإله سواه؟

ليس القصد هنا إلى تحدِّي الجمع، بل هو نقض الإرادة الإلهية في سرمد الليل المعروض، فلو كان هناك إله يريد ليرحمكم عن بأس الليل السرمد لقسَمَ الزمان إلى ليل ونهار كما قسمه الله، أو ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ دون (نهار) هو من تعميم التنازل، أنه إذا يأتي بنهار فليأت بضياء مهما كان بغير الشمس، لأن سرمد الليل يقتضي تباعد الشمس لحد لا تضيء هذه الكرة، وإذا أتي بالشمس فقد أتي - بطبيعة الحال - بكلا الليل والنهار قضية حراك الأرض الدورانية.

والقصد من ذلك التحدي ليس هو نقض الإرادة الإلهية ككل، بل هو تتميمها لو أنه جعل عليكم الليل سرمداً، فليكن الإتيان بضياء دون نهار فيه استئصال إرادته عن بكرتها.

فالناس متشوقون إلى فلق الصباح حين يطول بهم الليل أيام الشتاء، أم لا يهنأ لهم الليل لعارض يعرضهم، فيحنُّون إلى ضياء الشمس، فكيف بهم لو فقد الضياء عن بكرته، فإن سرمد الليل بظلامه يُظلم الحياة ويكدِّرها، على فرض إمكانية الحياة إن جعل الليل سرمداً، ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ إلى هذه الذكريات التي توقظكم من همود الإلف والعادة في تتابع الليل والنهار؟.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾:

فالليل سكَن والنهار فيه ابتغاء فضل من الله وإبصار ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ إلى ضوء النهار الذي هو فضل وإبصار كيف يصبح عذاباً إن كان سرمداً، فكلا الليل والنهار رحمة متعادلة معتدلة:

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾:

فلكلٌ من الليل والنهار خاصةُ رحمته، من سكن الليل وإبصار النهار: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾(١).

فأصل السكن وضابطته هو في الليل، كما أصل الإبصار والابتغاء من فضل الله ضابطة في النهار، مهما تبادلا فيهما أحياناً لضرورة معاكسة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾(٢).

وآيتنا هنا عوانٌ بين الآيتين، فاللف والنشر المرتب بين «بالليل والنهار» وبين ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ينحو نَحْوَ الأولى، وعدم ذكر كلٍّ بعد كلٍّ يلمح إلى الأول، والأولى أولى لأولوية الترتيب، والثانية هامشية إذا اقتضت الحال ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ في الترتيب الأصل، وفي المعاكسة الفرع، فإنهما على اختلافها نعمة ورحمة، قبال الرحمة والنقمة في سرمد الليل أو النهار.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

---

(١) سورة يونس، الآية: ٦٧.
(٢) سورة الروم، الآية: ٢٣.

هذه تتكرر هنا بعد آيات ثمان في حجة متصلة متواصلة، لأنها تجد بعدها ظرفاً راجحاً لتكرارها:

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٧٥﴾:

فمشهد نزع شهيد من كلّ أمة هو رسولها الذي يشهد بما جاء به وأجابته فصدقته أو كذبته، ذلك المشهد يتقاضى الشركاء الشهداء المزيفين، ليكون الشهيد إن بمعرض العرصات بين ضفتي الإيمان والكفر، فيقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴿فَقُلْنَا﴾ للضفة الكافرة ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ وهم خواء خلاء عن كلّ برهان ﴿فَعَلِمُوٓا۟﴾ علم اليقين بعد ما تجاهلوا ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ﴾ كله ﴿لِلَّهِ﴾ دون مَن سواه ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من شركائهم، فالشهداء الحق يشهدون عليهم كما يشهدون لمن سواهم أو عليهم، ثم لا شهداءَ لهم من شركائهم، إلّا شركاء في جحيم النار وبئس القرار ولات حين فرار.



﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى

ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

الآيات السبع الأولى عرض عريض عن سيرة أثرى الأثرياء في تاريخ الإنسان ومسيرته ومصيرته، وهي تُصَوِّر الدركات السبع الجهنمية له ولأضرابه من الطغاة البغاة.

ولا تهمنا في ذلك العرض معرفة من هو قارون؟ إلّا أنه ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ ولا يستفاد منه إلّا أنه كان من بني إسرائيل دون القبط الفرعونيين، تأشيراً عشيراً إلى أن القومية لا تفيد الإنسان ما لم يتخلق بأخلاق القائد الروحي للقوم، فقد يتخلف عنها - على إيمانه المدعى - لحد يصبح أنحس وأتعس من قوم فرعون، وقد كان قارون هكذا، إذ جاء ذكره الفصل كأصل بين الطغاة بعد فرعون وقومه والألدّاء الأشداء من المشركين على مدار الزمن حتى مشركي قريش، وقد نصحه قومه بإيحاء من الشرعة التوراتية بخمس هي سلبيات ثلاثة وإيجابيتان:

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾:

إن قلة الإيمان وضآلته، بكثرة الكنوز وقد فرح بها ومرح، هي السبب لبغيه ما بَغى، في حين أن فرعون وقومه يبغون عليهم، وما أنحسه بغياً عليهم وهو من قوم موسى؟

وقد وُدعِت ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ كمجهل يُعلِم أنه يحلِّق على كلّ دركات البغي، عِرضاً ونفساً ومالاً وعقلاً وعقيدةَ الإيمان، وهي النواميس الخمسة التي يجب الحفاظ عليها، ولكنه بغى عليهم ككل وفي كلّ هذه، ولو كان بغياً دون الجميع لأتى بما يدل عليه، فالإطلاق يلمح إلى طليق البغي، وهكذا يصنع المال بوفره في قلب مقلوب عن الهدى، مليء من الردى، فيبغي صاحبه بمالِه ومالَه على كلّ المستضعفين كما يهواه ويستطيع، و﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾[1].

والكنوز هي الجواهر الثمينة ذهباً وفضةً أماهيه، المخبوءَة تحت الأرض، الفاضية عن الاستعمال وتداول الأيدي، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ دليل أنه ظفر بها بإشارة إلهية دون علم من عنده، ويكفي بياناً لعظم هذه الكنوز وكثرتها ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ وهنا بطبيعة الحال تحل المروي عن الرسول ﷺ محلها من الواقع أن «كانت أرض دار قارون من فضة وأساسها من ذهب»[2].

وما هي «مفاتحه»؟ أهي «مفاتيحه» جمع مفتاح: ما يفتح به القفل؟ ولا مفاتيح للكنوز ككنوز إلّا إذا استخرجت إلى غير مخابئها الكانزة، وإذاً لا تسمى كنوزاً! وحتى إذا سميت بها، أم بقيت في مخابئها وأقفلت، فلا تصل مفاتيحها لحدّ ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾! وأقل العصبة - علّها - عشرة أم تزيد كما في إخوة يوسف ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾[3] وإذا كانت العصبة أولي قوة، فكل واحد منها يحمل لأقل تقدير مائة كيلو غراماً، فحِمل الكلِّ لأقل تقدير ألف كيلو غرامٍ! وذلك - علّه - أثقل من كلّ مفاتيح الكنوز في الأرض

(١) سورة العلق، الآيتان: ٦، ٧.
(٢) الدر المنثور ٥ : ١٣٦ - أخرج ابن مردويه عن سلمان ؓ قال قال رسول الله ﷺ: . . .
(٣) سورة يوسف، الآية: ٨.

كلها! فيا ويلاه إن كانت العصبة أو أولو القوة عشرة آلاف كما في رواية[1].

ثم التبعثر في الكنوز خلاف الحيطة للحفاظ عليها فلتُجمع في مكانات عدة شاسعة واسعة، تكفيها لأكثر تقدير كيلو غرام من المفاتيح! ثم «مفاتح» هي جمع مفتح دون المفتاح!

أم إنها الكنوز نفسها؟ وليست هي مفاتح، ولا أنها مفاتيح لنفسها! ولا أن حِملَ العصبة العشرة أولي القوة، ثروة منقطعة النظير!.

إنها «مفاتِحه» جمع مَفتح، وهو مكان فتح الكنز وهو بابه، والضمير المفرد الغائب راجع إلى «ما» فقد كانت أبوابها كبيرة وثقيلة لحد ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ والنوء هو النهوض بالحمل على ثقل للحامل، والعصبة من يتعصّب بعضهم لبعض متضامنين في قواتهم كرجل واحد، ولو كانت هي المفاتيح لكانت المفاتيح دون المفاتح، ولكانت تُناء بالعصبة لا «تنوء» فهي - إذاً - أبوابها العريضة الثقيلة التي تنهض بالعصبة أولي القوة، كما وأن باب خيبر كانت لتنوء بالعصبة ونهض الإمام علي عليه السلام بفتحها شخصياً دون حاجةٍ إلى سواه!. . . ولقد كان مرِحاً فرِحاً بما أوتي من الكنوز جامحاً شرِها في بغيته بما أوتيه، فوُجِد من قومه من يحاول رده من بغيه باستئصال سببه وهو فرحه بكنوزه: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡ﴾ بما لك فيلهيك عما يعينك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ بأموالهم وعلى أية حال، إلّا فرحاً بالفوز عند الله، ولحدٍّ يشجع صاحبه إلى ما يرضاه الله، ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ . . .﴾[2] ومَن سواهم يفرحون بالحياة الدنيا بغير الحق: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾[3] - ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ

(١) نور الثقلين ٤: ١٣٨ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام: وما يكون أولو قوة إلّا عشرة آلاف.

(٢) سورة الروم، الآيتان: ٤، ٥.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٦.

فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾[(١)] - ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾[(٢)].

فـ ﴿لَا يُحِبُّ﴾ يختص بهؤلاء الفرحين دون أولئك المؤمنين، ولأن الله يحب فريقاً ويبغض آخرين، فـ ﴿لَا يُحِبُّ﴾ عبارة أخرى عن «يبغض»، وكما «لا يبغض» هي الأخرى عن «يحب»، وذلك لأن الله عالم الغيب والشهادة وبيده ناصية كلّ شيء، لا انعزالية له عن أيٍّ من المخلوقين، فلا ثالث عنده ألّا يحب ولا يبغض، فإنه إما لجهل بمادة الحب والبغض، أم جهل بمن يحملهما! فَفَرَحُ الزَّهُوِّ الذي هو من مخلّفات الاعتزار بالمال، والاحتفال بالثراء وحسن الحال، إنه بطرٌ يُلهي عما يُعنى، ويُنسي النعمة والمنعِم وما يتوجب على المُنعمَ.

كما أن فرح الشكر بما أنعم الله، مستخدَماً في سبيل مرضاة الله، تفريحاً للمؤمنين بالله وتفريجاً عن عباد الله، إن ذلك فرح الإيمان كما نراه من أهل الله، هنا وفي يوم لقاء الله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[(٣)] فـ «لا تفرح بكثرة المال ولا تدع ذكري على كلّ حال فإن كثرة المال تُنسي الذنوب وترك ذكري ينسي القلوب»[(٤)]، وذلك نهي صارم عن فرح عارمٍ،

---

(١) سورة غافر، الآية: ٧٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٠.

(٤) نور الثقلين ٤: ١٣٨ في كتاب الخصال عن أبي عبد الله عن أبيه عليه السلام قال: أوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى عليه السلام: لا تفرح.. وفيه عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه: والفرح مكروه عند الله عزّ وجلّ، وفيه عن كتاب التوحيد بإسناده إلى أبان الأحمر عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أنه جاء إليه رجل فقال له: بأبي. وأمي عظني موعظةً فقال عليه السلام: إن كانت العقوبة من الله عزّ وجلّ حقاً فالفرح لماذا؟

وفي الدر المنثور ٥: ١٣٧ عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: زر القبور تذكر بها الآخرة واغسل الموتى فإنه معالج جسد خاو وموعظة بليغة وصلٌ على الجنائز لعل ذلك يحزنك فإن الحزين في ظل الله يوم القيامة.

ومن ثم أمرٌ ثم نهي ثم أمر ثم نهي، فإنهما القائمان بالإصلاح في المفسدين.

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾:

الابتغاء هو التطلُّب، فهم يأمرونه أن يتطلب فيما آتاه الله من الكنوز وسواها من النعم آفاقية وأنفسية ﴿ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ لا فحسب هذه الأدنى، إخلاداً إليها، ومشية المكبِّ عليها، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ﴾ الحياة ﴿ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ فلا نصيب لك أخيراً فيها إلّا الكفن، إذ لا تسحب معك غيره فتصحبه في الأخرى، ولا في الأخرى إلّا متاعها أن تشري ذلك الأركس الأدنى بالحياة العليا، ولا لك قبلهما إلّا قدر الحل من الحاجة المعيشية والزائد عليها وبال هنا وفي الأخرى، فلتغتنم الفرصة السليمة لك فيها قبل فوات الأوان، فما لك نصيب من الدنيا فيها وفي الأخرى إلّا هذه الأربع، من ينساها أخلد إلى الأرض واتبع هواه وكان امره فرطاً، و﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ لا «فيها» مما يدل على أن النصيب منها يعني صالح الدارين، فالحياة الدنيا لكلٍّ على قصرها هي بكل جنباتها نصيب المتاع للأخرى، فليُتزوَّد منها لها، من نسي النصيب المتاع أقبل إليها مبصراً إليها فيعمى، ومن تمتع بها للأخرى مبصراً بها أبصرته.

فالذاكر نصيب الحاجة من الدنيا يوسع على خلق الله فيما زاد عنها[1]

---

(١) نور الثقلين ٤: ١٣٩ في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يؤتى يوم القيامة برجل فيقال: احتج، فيقول: يا رب خلقتني وهديتني وأوسعت عليّ فلم أزل أوسع على خلقك وأيسّر عليهم لكي تنشر عليّ هذا اليوم رحمتك وتيسره فيقول الرب جل ثناؤه وتعالى: صدق عبدي أدخلوه الجنة.

والذاكر نصيب رأس المال فيها مالاً وحالاً يتجر بها للأخرى[1] والذاكر نصيب الكفن منها لا يطمئن ويركن إليها، ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عباد الله ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ ﴿وَأَحْسِن﴾ في نفسك أعمالك لله ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ إحساناً بإحسان وأين إحسان من إحسان.

فـ ﴿أَحْسَن﴾ حالاً ومالاً وأعمالاً، كما وكل ذلك مما ﴿أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ وذلك تمثيل المجاراة، وإلّا فما إحسان العبد بجنب إحسان الله بشيءٍ يُذكر!

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2] بما أحسن الله إليك، جزاءَ الإحسان بالإساءة، ولا تبدل نعمة الله كفراً تُحِلُّ بها نفسك وذويك دار البوار. جهنم يصلونها وبئس القرار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وهو يبغضهم، فالمال والثراء ذريعة ضارعة هارعة إلى كلّ إفساد في الأرض عِرضاً وعقلاً وعقيدة ونفساً ومالاً، لا سيما إذا كان بأيدي مردة الشياطين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

ولأن هذه النصائح كانت مستأصِلة لزهوة الثراء، والالتهاء بالنعماء، فهو بزعمه يستأصل أن تكون كنوزه مما آتاه الله، قائلاً في جوابهم قولته النكدة الجاهلة:

---

(١) المصدر عن معاني الأخبار بإسناده إلى موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر قال حدثني أبي عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب عليه السلام في الآية قال: لا تنس صحتك وقوتك وفراغك وشبابك ونشاطك أن تطلب بها الآخرة.

(٢) المصدر في مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام فساد الظاهر من فساد الباطن ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته ومن خان الله في السر هتك الله ستره في العلانية، وأعظم الفساد أن يرضى العبد بالغفلة عن الله تعالى وهذا الفساد يتولد من طول الأمل والحرص والكبر كما أخبر الله تعالى في قصة قارون: ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين وكانت هذه الخصال من صنع قارون واعتقاده، وأصلها من حب الدنيا وجمعها ومتابعة النفس وهواها وإقامة شهواتها وحب المحمدة وموافقة الشيطان واتباع خطواته وكل ذلك مجتمع تحت الغفلة عن الله ونسيان منته.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

ذلك الجواب - في زعمه - يستأصل كلّ تأنيب في هذه التساؤلات المتبنّية ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ بـ ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ فلم يؤته الله إياي - لو آتاه - دون علم وجدارة، وقد تلمح ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ دون «آتاه الله...» أنه أوتي إياه على علم منه دون مشية من الله، فالأوّل إشراك بالله في ذلك الإيتاء، والثاني إلحاد فيه بتوحيد العلم في ذلك الإيتاء! أن ليس لله أي مدخل فيه حتى إذا لم يكن على علم عندي، صُدفةً فيه أم تقصداً ممن سوى الله. وهذان مزعمتان للأكثرية الساحقة ممن أوتوا مالاً أو منالاً، موحدين أو مشركين أو ملحدين، مهما استثني الأوّلون عن الإلحاد في الإيتاء: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾[1].

وتلك القولة الفاتكة من قارون هي قولة المغرور المطموس الناسي مصدر النعمة وصادرها حيث تعميه الثراء، قالة خاوية مكرورة على مرّ الزمن للأكثرية المطلقة ممن أوتيها مهما اختلفت دركاتها فيما تعنيه.

وتراه ماذا عني بقالته القالة: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ مع العلم أنه يحصر إيتاءَه به مهما كان الإيتاء من الله أم سواه؟

أهو علم التوراة؟ وقد أوتي موسى وسائر المرسلين اكثر منه يوحي

(١) سورة الزمر، الآيات: ٤٩-٥٢.

صارم لا دخيل فيه، ولم يؤتوا كنوزاً كما أوتي! وكان ذلك يكفيه نقضاً لما ادعاه، دون النقض بإهلاك قرون قبله!.

أم علم جمع المال؟ ولا يختص به علمه! فكثير هؤلاء الذين يعلمون ما يعلمه وأكثر ولا يؤتون معشار ما أوتي! ثم وما هو - إذاً - دور ﴿عِندِيٓ﴾ وكان يكفيه «بعلمي»!

إم إنه علم محالِّ الكنوز؟ وقد تؤيده ﴿عِندِيٓ﴾ اللامحة إلى اختصاصه به، كما وأن «على» الإحاطية هنا، تجعله يحيط علماً بمحالِّ الكنوز! والكنوز مع العلم بمحالها هما من الله!.

أم إن ﴿عِندِيٓ﴾ تعني رأيه الخاص، فـ «عندي إنما أوتيته على علم» مني يحيط بموارد الكنوز أما ذا من علمٍ مدعىً؟ وإيتاء الكنوز على أية حال ليس إلّا من الله امتحاناً أم امتهاناً!

وعلى أية حال يدعي أن ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ هو فقط السبب لذلك الإيتاء، فقد أوتيتهُ بجدارة واستحقاق، سواء أكان المؤتي هو الله أم سواه فلي التصرف فيه كما أريد، فلا حق لله ولا لمن سواه فيما يختص بي.

وهنا الجواب كلمة واحدة مشيرة إلى سواها ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ معطوفاً على محذوف معروف ك:

ألم يعلم أن كثيراً ممن كان على علمه وأعلى لم يُؤتَ ما أوتي ولا معاشره، فليس إذاً ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ وإن لم يعلم ذلك لحمقه في عمقه ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ الماضية ﴿مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾ كفرعون ونمرود وشداد بإرمه ذات العماد، فإن كانت هذه الكنوز أوتيت على علم، فلماذا الإفساد بها في الأرض وذلك جهل، وليس لمن يحصل على نعمة بسعي وعلم أن يبدلها نَعمة ويفسد بها، وإذا أوتيه على علم، فيعلم هو طرق الحصول على كنوز، فكيف لم يعلم أن ليس كلّ ذي علم يؤتى ما أوتيه، ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ...﴾ وعلم تحصيل

المال أجهل من كلّ جهلٍ إذا لم يعلم كيف يتصرف فيه، ولم يعلم ما هو مصير المفسدين بأموالهم في الأرض! وذلك هو العلم النافع البارع أن يحجز صاحبه عن وبال المال على أية حال، لا - فقط - ما يجمع به المال، إن صح أن العلم هو الذي يجلب الأموال!.

فالشرعة الإلهية تحدد الملكية الفردية تحصيلاً بكيفيته، وتجميداً وتصريفاً، فلها في كلّ هذه الثلاث حدود مقررة في كتابات الوحي ولا سيما القرآن والسنة المحمدية ﷺ.

فليكن تحصيل المال بوجه مشروع، وإبقاؤه وصرفه بوجه مشروع، والتخلف عن شرعة الاقتصاد قد يكون ثالوثاً محرماً في زواياه الثلاث، أم حلاً في اقتنائه محرماً في الآخرين، أم وحِلاً في مصارفه محرماً في إبقائه، أو معاكساً له، فلا حرية - إذاً - في التصرفات الاقتصادية مصرفياً بحجة الحل في اقتناء المال.

فكما أن الحصول على المال بغير الحلال إفساد في الأرض، كذلك إبقائه تكنيزاً، أم صرفه بغير وجهه، هما أيضاً إفسادٌ في الأرض.

فهب أن قارون أوتي كنوزه بِحلٍّ كما تلمح له «وآتيناه» - ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أم على جهل، ولكنها على أية حال مال الله يؤتاه هو وأحزابه فتنة وابتلاءً، وأصحاب الأموال الطائلة إنما هم مستخلَفون فيها إنفاقاً صالحاً دون إسراف ولا تبذير: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[1] فالمتخلف عن الإنفاقات الصالحة، تكنيزاً أم تصريفاً غير صالح، هو من المفسدين في الأرض، المهددين بالدماء والبوار ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾:

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ - ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ. . .﴾[2] إذ ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾[3].

(١) سورة الحديد، الآية: ٧. (٢) سورة الرحمن، الآية: ٣٩.
(٣) سورة الرحمن، الآية: ٤١.

وهذا السؤال المنفي هو الاستعلام، حيث الملك العلام يعلم كلّ إجرام فلماذا - إذاً - سؤال الاستعلام، لا هنا عند ما يهلكون، حيث يباغتهم عذاب الاستئصال، ولا هناك مهما سئلوا سؤال التنديد والإفحام دونما استفهام: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[١]، وعذابُ المجرمين مباغتة دون تساؤل الاستعلام، فهو عذاب فوق العذاب، وهذا هو مصير الأثرياء المفسدين في الأرض بثرواتهم الهائلة، ولا سيما هؤلاء الذين يحصلون عليها ببغي، بسعي أم دون سعي.

تلك النصيحة الفسيحة الفصيحة لم تزدد صاحب الكنوز إلّا عتواً ونشوزاً، وإفساداً في الأرض أكثر مما كان:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾:

﴿عَلَىٰ﴾ هنا تلمح لخروج عالٍ غير متعوّد إظهاراً لقوته الزاهية وشوكته العالية ﴿فِي زِينَتِهِۦ﴾ كأكثر ما يمكن، فقد خرج بمسرح هذه المسيرة الغالية في كلّ زينة له ممكنة، ليقطع ألسنة الناصحين، ويقمع الحاسدين عليه الناقمين، فقد تصدق ما يروى عن النبي ﷺ أنه «قال في أربعة آلاف بغل يعنى عليه البزيون»[٢].

في ذلك الخروج ينقسم قومه قسمين: ﴿ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾[٣] والأولون وهم الأكثرية الساحقة في كلّ زمان ومكان، هم الذين تستهوي زينة الحياة قلوبهم وتبهرهم دونما تطلُّع إلى

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٢٤.

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٣٨، أخرج ابن مردويه عن أوس بن أوس الثقفي عن النبي ﷺ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ﴾ [القصص: ٧٩] قال: . . .

(٣) سورة النحل، الآية: ٢٧.

الحياة العليا، فتتهافت نفوسهم كما الذباب على الحلويات، وتتهاوى في هوات، سائلة لعابهم على ما في أيدي الأثرياء، ذوي الزينة والكبرياء، يتمنون لو أن لهم مثل ما لهم، إذ هم - فقط - يريدون الحياة الدنيا، ويرونها الحظ العظيم، وذلك هو الجهل القاحل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[1] - ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾[2].

و﴿يَا لَيْتَ﴾ التحسر لهؤلاء المجاهيل يحلّق على حياتهم غصة على غصة العدم، متجاهلين عن أسباب الثراء ومسؤولياتها وخلفياتها، فأما الآخرون:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

﴿الْعِلْمَ﴾ هنا هو الناصح صاحبه وذويه، فهو علم الإيمان والمعرفة الربانية، إيماناً صالحاً بالتوحيد والوحي واليوم الآخر، دون مجرد الصلاحات الجامدة التي تحجب عن ذلك العلم بدل أن تكون نوراً، فهو - إذاً - العلم الذي يخشع صاحبه أمام ربه دون إلهاء، فـ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[3].

وقضية ذلك العلم النور أن ينير الدرب على المظلَمين، دون كتمان عنهم ولا ضِنَّة، وهنا ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أدوا واجب النصيحة البالغة لهؤلاء المجاهيل ﴿وَيْلَكُمْ﴾ وهي إما تركيبة عن «وي - لكم» أم مخففة عن «ويل - لكم» وهما متقابلتا المعنى، هتافاً عليهم بتأويهٍ من قولتهم

(١) سورة الروم، الآية: ٧.
(٢) سورة النجم، الآيتان: ٢٩، ٣٠.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

الجاهلة ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ وما أوتي قارون شرٌّ، فلا تعني ﴿خَيْرٌ﴾ هنا المعدّاة بـ«من» تفضيلاً، إذ لا فضل فيما أوتى حتى يفضّل عليه ثواب الله.

ومن ذا الذي يناله ذلك الثواب؟ ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ والثواب الناتج عنهما يعم النشأتين، فإن منه النصرة الربانية: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾(١) كما منه اللذات الروحية من عبادة الله وزلفاه، ولقد كان رسول الله ﷺ إذا همه أمر استراح إلى الصلاة فإنها كانت قرة عينة في الحياة.

﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ وترى ماذا تعني «ها» والسابق عليها ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ مذكراً لا يتحمل ضمير التأنيث؟

التلقية هي التفهيم كما التلقي هو التفهُّم، ولكنه تفهُّم يَلقى شغاف القلب، فهو أخص من التلقُّن، ولقد عدَّ الصبر هنا ظرفاً لذلك التلقي، وليس هكذا صبر إلّا من حصائل الإيمان والعمل الصالح، فقد تعني «ها» تلك العظمة - سواءٌ أكان استثناء ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ من الذين أوتوا العلم، أم تلحيقة معترضة من الله، فلا تصل هذه العظة إلّا إلى ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على فتنة الحياة وزينتها وإغرائها، و﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على حرمانها، فهم أعم ممن أوتي متع الحياة ومن حُرِمها، بل والصبر على وجدانها أحجى وأقوى.

هؤلاء الصابرون، وهم المؤمنون العاملون الصالحات، هم يلقَّون هذه العظة من قبل الله وأهل الله فيتلقونها.

وأما رجوعها إلى هذه الثلاث «ثواب الله - آمن - عمل صالحاً» فغير صواب، حيث الصبر هكذا هو من مخلفات الإيمان والعمل الصالح، فكيف يلقيّان مع الثواب للصابرين، اللهم إلّا إيماناً أءمن، وعملاً صالحاً أصلح، هما من خلفيات ذلك الصبر، وهذا من باب الاستخدام، أن لا يلقّى ثواب

---

(١) سورة غافر، الآية: ٥١.

الله ومزيد الإيمان والعمل الصالح إلّا الصابرون، إلّا أن ثواب الله هنا يتبنّى أصل الإيمان والعمل الصالح لا مزيدَهما، والتلقية التفهيم لا تناسب واقع هذه الثلاث أم سواها، فهي إذاً تلقية العظة، فلكل عظة ظرف له صالح، ولهذه العظة ظرف الصبر على زخارف الحياة الدنيا لمن أويتها أو حُرِمَ عنها. هنا - وقد بلغت فتنة الزينة ذروتها - حيث تتهافت أمامها بعض النفوس المؤمنة وتتهاوى فضلاً عن سواها - هنا من الرحمة الربانية أن تتدخل يد القدرة، تحطيماً للغرور الجاهل القاحل، وحفاظاً على ضعاف الإيمان:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾:

ومهما كان مع قارون - في خروجه بزينته - أهله وهوامشه أم لم يكونوا، فالخسف حسب هذا النص خصَّه دونهم ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ﴾ قارون ﴿وَبِدَارِهِ﴾ التي كان فيها - بطبيعة الحال - قسم عظيمٌ من ثروته، فقد ابتلعته الأرض بداره، هاوياً فيها بلا فئة ينصرونه من دون الله، حيث تركته وشأنه الشائن، كما هو دأب الهوامش المتملقين دائماً أنهم شركاء في رغد العيش فإذا جاء البلاء فحيدي حياد! ولا فحسب إن لم تنصره فئته، بل ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ يائساً عنهم، بائساً في انخسافه!.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ وهم ﴿ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ وما كانوا من الصابرين على زهرتها وزهوتها، ولم يُلَقَّوا العظة من الذين أوتوا العلم، هم الآن - وقد رأوا كيف خسف الله به وبداره الأرض - ينتبهون قليلاً ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ...﴾ دون «إن الله» إذ لم يبلغوا بعدُ إلى اليقين بأن الله

يبسط ويقدر، ولا أنه لا يفلح الكافرون، وإنما «ويكأنه» في النفي والإثبات فهم بعدُ في سُبات، وعلى أية حال وقفوا يحمدون الله إن لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس وهم يرون مصير قارون وهو رأس الزاوية! فإنما الثراء هي ابتلاء قد تعقبها البلاء، فقليل هؤلاء الأثرياء الذين لا يبدلون نِعمة الله كفراً ونَعمة، وكثيرهم الكافرون.

وهنا يسدل الستار على الفريقين، نقلة إلى ضابطة صارمة للناجحين في هذا الميدان:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

إن الدار الآخرة بالزلفى والمكانة العليا، ﴿تِلْكَ﴾ البعيدة المدى، العالية الصدى، الغالية الهدى ﴿ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ الحسنى، حصيلة لحسنى الأولى ﴿نَجْعَلُهَا﴾ تكويناً وتشريعاً ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أياً كان، وحتي في منصب العدل والحكم الحق، إذ لا يريدون في ذلك الحقل إلّا تحقيق الحق وإبطال الباطل، وما العلوُّ الحكمُ عندهم إلّا ذريعة لذلك، وكما أشار إمامهم أمير المؤمنين عليه السلام إلى نعله المخصوف قائلاً: «والله لهي أحب إليّ من إمرتكم هذه إلّا أن أقيم به حقاً أو أبطل باطلاً». فالعلو في الأرض لهم غير مُراد، ثم ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ بعلو وغير علو، والعلو أياً كان يستتبع فساداً مهما كان لأهل العدل إلّا من عصم الله وهداه.

فإرادة العلو هي بطبيعة الحال من أقوى مصاديق الفساد في الأرض فـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ

﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ. . .﴾[(١)] وليس أن إرادة العلو في الأرض ممنوعة - فقط - لألد الخصام، بل وعدول المؤمنين، لأن كراسيَّ الحكم مآزق بطبيعة الحال، وقل من ينجو منها، وقد يروى عن رسول الهدي ﷺ قوله في الآية: «التجبر في الأرض والأخذ بغير الحق»[(٢)] و«لما دخل عليه ﷺ عدي بن الحاتم ألقى إليه وسادة فجلس على الأرض فقال ﷺ: أشهد أنك لا تبغي علواً في الأرض ولا فساداً فأسلم»[(٣)] و«أوصيكم بتقوى الله وأوصي الله بكم ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[(٤)] ألّا تعلوا على الله في عباده وبلاده فإن الله تعالى قال لي ولكم: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[(٥)].

وعن وصيه وخليفته في أمته علي أمير المؤمنين عليه السلام «فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وفسق آخرون كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه أن يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ. . .﴾ بلى والله لقد سمعوها ووعوها ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها»[(٦)].

فقد يعني منها أنني لست من هؤلاء الذين يريدون علواً في الأرض ولا فساداً فلماذا - إذاً - ثالوث النكث والمروق والفسق، فلا يصلح لولاية أمور المسلمين إلّا مثلي، وكما يقول «نزلت هذه الآية في أهل العدل

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢٠٤-٢٠٦.

(٢) الدر المنثور ٥: ١٣٩ - أخرج المحاملي والديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ. . .﴾ [القَصَص: ٨٣] قال: . . .

(٣) المصدر - أخرج ابن مردويه عن عدي بن حاتم قال لما دخل على النبي ﷺ عدي بن حاتم. .

(٤) سورة هود، الآية: ٢٥.

(٥) نور الثقلين ٤: ١٤٣ في أمالي الطوسي بإسناده إلى ابن مسعود أنه قال قال رسول الله ﷺ في كلام طويل: . . .

(٦) المصدر عن نهج البلاغة عنه عليه السلام.

والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس»[١].

أجل فقد «ذهبت والله الأماني عند هذه الآية»[٢] أماني العلو في الأرض حتى للمؤمنين العدول فضلاً عمن سواهم!

وهذه الآية طليقة في التنديد بمن يريدون علواً في الأرض أياً كان فتنوين التنكير تنكير على تلك الإرادة على أية حال، وحتى «إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها»[٣]!.

فإرادة العلو في الأرض دركات أسفلها إرادة القيادة الكبرى للأمة، وأدناها إرادة الأجود من المال أو الحال، إلّا أن يُبتغى مرضاة الله وتحقيق شرعة الله، وكثير هؤلاء الذين يريدون علواً كذريعة ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾[٤] وكما نراه على مدار الزمن الرسالي للرساليين فضلاً عن سواهم.

وفي كلمات للإمام علي عليه السلام حول قيادة الأمة نبراس ينير الدرب على من يريدون صالح الحكم بلا علو في الأرض:

---

(١) عن مجمع البيان وروى زاذان عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يمشي في الأسواق وهو وال يرشد الضال ويعين الضعيف ويمر بالبياع والبقال فيفتح عليه القرآن ويقرأ هذه الآية ويقول: نزلت...

(٢) المصدر عن تفسير القمي حدثني أبي عن القاسم بن محمد عن سليمان بن داود المنقري عن حفص بن غياث قال قال أبو عبد الله عليه السلام: يا حفص! ما منزلة الدنيا من نفسي إلّا بمنزلة الميتة إذا اضطررت إليها أكلت منها، يا حفص إن الله تبارك وتعالى علم ما العباد عاملون وإلى ما هم صائرون فحلم عنهم عند أعمالهم السيئة لعلمه السابق فيهم، فلا يغرنك حسن الطلب ممن لا يخاف الفوت ثم تلا قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ...﴾ [القَصَص: ٨٣] وجعل يبكي ويقول: ذهبت والله الأماني عند هذه الآية، قلت: جعلت فداك فما حد الزهد في الدنيا؟ فقال: قد حد الله عزّ وجلّ في كتابه فقال: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَىٰكُمْ...﴾ [الحَديد: ٢٣] وفيه عن كتاب سعد السعود وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: إن الرجل ليعجبه...

(٣) المصدر ١٤٤ سلام الأعرج عن أمير المؤمنين علي عليه السلام.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠٥.

فحينما تجتمع عليه الأمة الحائرة المظلومة - قاصرة ومقصرة - ليبايعوه يقول: «دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول وإن الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعَتب العاتب وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلي أسمعُكُم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم وأنا لكم وزيراً خير لكم مني أميراً»[1].

«ويسطتم يدي فكففتها ومددتموها فقبضتها ثم تداككتم عليَّ تداكَّ الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها حتى انقطعت النعل وسقط الرداء وُوطِئَ الضعيف وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير وهدج إليها الكبير وتحامل نحوها العليل وحسرت إليها الكعاب»[2].

«فأقبلتم إلي إقبال العُوذ المطافيل على أولادها تقولون: البيعة البيعة، قبضت يدي فبسطتموها ونازعتكم يدي فجذبتموها»[3].

«فما راعني إلّا انثيال الناس حولي كعرف الضبع ينثالون عليَّ حتى لقد وُطِئَ الحسنان وشُقَّ عِطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم»[4].

«إني إلى لقاء الله لمشتاق وإلى حسن ثوابه لمنتظر راج ولكنني آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً والصالحين حرباً فإن منهم الذي قد شرب فيكم الحرام وجُلِد حداً في الإسلام، وإن منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الإسلام الرضائخ، فلولا ذلك ما أكثرت تأليبكم وتأنيبكم وجمعكم وتحريضكَم ولتركتكم إذا

(١) نهج البلاغة الخطبة ٨٨ ص ١٨٢ عبده.
(٢) الخطبة ٢٢٤ ص ٢٤٩.
(٣) الخطبة ١٣٣ ص ٢٧.
(٤) الخطبة الشقشقية ١٣٣: ٢٧.

أبيتم ونيتم[(١)]: «أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء ألا يقارّوا على كِظَّة ظالم ولا سَغَب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت كأس آخرها بكأس أولها ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عطفة عنز»[(٢)].

«فوالله لأسلِّمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور إلّا علي خاصة»! . . .

«فقمت بالأمر حين فشلوا، وتطَّلعت حين تمنَّعوا، ومضيت بنور الله حين وقفوا، وكنت أخفضهم صوتاً وأعلاهم فوتاً، فطِرتُ بعنانها، واستبددت برهانها، كالجبل لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف، لم يكن لأحد فيَّ مَهمز، ولا لقائل فيَّ مغمز، الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه، رضينا عن الله بقضائه وسلمنا لأمره»[(٣)].

أجل وإن هؤلاء الطيبين لا يقوم في نفوسهم خاطر العلو في الأرض والاستعلاء بأنفسهم لذوات أنفسهم، ولا يهجس في قلوبهم الاعتزاز بأشخاصهم، فإنما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملأها الشعور بالله وإعلاء كلمة الله.

﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[(٤)] وهي الحياة العاقبة لمسيرة الحياة ومصيرته لمختلف الأحياء، هنا في الرجعة وهناك في البرزخ والقيامة، والمتقون هنا هم الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، فضلاً عن أن يحاولوا الاستعلاء، اللهم إلّا إعلاء لحكم السماء في أرض الله.

---

(١) الكتاب ٦٢ ص ١٣١ عبده.

(٢) تتمة من الخطبة الشقشقية.

(٣) الخطبة ٣٦ ص ٨٤ - أقول: راجع كتابنا علي والحاكمون تجد فيه تفصيل البحث عن حق الحكم والولاية الحقة.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

علّ «الحسنة» هنا هي الحياة الحسنة المحلِّقة على العقيدة والنية والعمل، والسيئة خلافها، و﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ هي أضعافها بادئة من عشرة ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا...﴾[1] وهذه ضابطة ثابتة، وقد تزيد حسب مزيد الحسنة أثراً وكياناً كما في آيات، ولأن السيِّئة لا يجازى بها صاحبها إلّا العملية، دون سوء النية ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

فالحسنة المضاعفة الجزاء يعم الأعمال والنيات والطويات، والسيئة المكافحة تخص الأعمال دون النيات، وأما العقائد السيئة فبارزة الأعمال فيها داخلة في الأعمال، وسيئه العقيدة دون عمل تشملها الآيات الواعدة سيئي العقائد النار، أم هي داخلة في ﴿عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ شمولاً لأعمال القلوب والقوالب، وليست النية عملاً، بل هي نية العمل، يثاب على حسنتها دون سيئتها، ثم ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ حصر لجزاء السيئات على قدر الأعمال، فنفس العمل السيِّىء هو جزاؤه إذ يبرز بحقيقته يوم تبلى السرائر، وليس غير المحدود صورة واقعية للسيئة المحدودة إلّا مزيداً غير محدود وهو ظلم ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[2]!

ثم ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ...﴾ تحدد موقف الحسنة والسيئة أنه حين المجيء إلى عالم الجزاء، فالحسنة - إذاً - هي عاقبة الحياة الحسنة، مهما كانت سابقتها أيضاً حسنة أم سيئة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٤.

﴿فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ هو الفرض الرسالي تلقياً لوحيه وتفهماً له وتطبيقاً بنفسه وتبليغاً للمرسل إليهم، وقد ذكر من فرضه عليه تلاوته ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ. . .﴾[1] ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾[2] ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[3].

ولأن القرآن هو الوحي الأخير الشامل كافة المكلفين إلى يوم الدين، ففرضه الرسالي البلاغي هو البلوغ إليهم أجمعين، وبأحرى منزل وحيه الأول أم القُرى فإنها عاصمة الدعوة القرآنية.

ثم ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ وهذه آية منقطعة النظير في صيغة الفرض والرد إلى معاد، مما يضخِّم أبعاد رده ﷺ الموعود إلى معاد، فما هو «معاد»؟

أتراه معاد الآخرة إلى الجنة[4]؟ ولم يكن فيها حتى يرد إليها! والصيغة الصالحة له «الجنة» دون «معادٍ» منكراً، ولا حتى «المعاد» معرفاً، لأنها اليتيمة التي تحمل لفظ «معاد» دون سواها من كلِّ آيات المعاد!

أم هو الموت[5]؟ ولم يَك ميتاً حتى يرد إلى الموت! ولا يخصه ذلك الرد الممنون فيه عليه! ثم ولا منة في الموت ما دامت الحياة الدنيا مدرسة الآخرة!.

أم هو الرجعة أيام المهدي القائم عجل الله تعالى فرجه[6]؟ ولا يناسب خصوصَها المَقامُ ولا الطمأنة الحاضرة لخاطره الخطير عن بأس المشركين!

---

(١) سورة النمل، الآية: ٩٢.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٧.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.
(٤) الدر المنثور ٥: ١٤٠ - أخرج الحاكم في التاريخ والديلمي عن علي عليه السلام عن النبي ﷺ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القَصَص: ٨٥] قال: الجنة.
(٥) المصدر - أخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: الموت.
(٦) نور الثقلين ٤: ١٤٤ عن تفسير القمي حدثني أبي عن حماد عن حريز عن أبي جعفر عليه السلام=

أم هو الرجوع إلى مكة المكرمة[1]، رداً إليها بعد هجرية؟ والسورة مكية ولما يهاجر النبي ﷺ إلى المدينة!.

﴿مَعَادٍ﴾ هنا كأصل في الموعود ردُّه إليه هو في الحق مكة المكرمة، وقد نزلت الآية في غضون هجرته عنها إلى المدينة، بالغَ الجحفة أم دونها أم ولمّا يخرج من الغار، إذ تكفي في نزولها حالةَ الهجرة، ثم وجو السورة المستعرضة قصص موسى ومن أهمها رجوعه إلى ﴿مَعَادٍ﴾ الدعوة الرسالية «مصر» يناسب وعد هذا الرسول ﷺ برده إلى معاد الدعوة الرسالية وهو مكة المكرمة، فكما خرج موسى من مصرها رباً مطارَداً يترقب، كذلك الرسول محمد ﷺ، وكما وعد موسى أن يرد إلى معاد الدعوة كذلك الرسول ﷺ فامض يا رسول الهدى في مهجرك، ودع أمر الحكم فيما بينك وبين قومك لله الذي فرض عليك القرآن، وانما سمي مكة معاداً لأنه مكان العود، وعدٌ محتوم في ذلك الرد لحدّ يسمى مكانه «معاد» كما ومكة معاد لكل مسلم على مدار الزمن، أخذاً من رسالتها المحمدية وعوداً إليها.

كما وهي معاد الحج وميعاده.

= قال: إنه سئل عن جابر فقال: رحم الله جابراً بلغ من فقهه أنه كان يعرف تأويل هذه الآية يعني الرجعة وفيه عنه حدثني أبي عن النضر بن سويد عن يحيى الحلبي عن عبد الحميد الطائي عن أبي خالد الكابلي عن علي بن الحسين عليه السلام في الآية قال: يرجع نبيكم ﷺ وأمير المؤمنين والأئمة صلوات الله عليهم.

(١) الدر المنثور ٥: ١٣٩ - أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القَصَص: ٨٥] إلى مكة وفيه أخرج ابن مردويه عن علي بن الحسين بن وائد قال: كلّ القرآن مكي أو مدني غير قوله: إن الذي فرض... فإنها أنزلت على رسول الله ﷺ قبل الهجرة فهي مكية نزلت بمكة أو بغيرها من البلدان، وكل آية نزلت بالمدينة بعد الهجرة فإنها مدنية نزلت بالمدينة أو بغيرها من البلدان.

أقول: وقد أخرج إلى مكة في تفسير إلى معاد عن ابن عباس ومجاهد.

فـــ ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾[1] كذلك ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾.

ذلك تفسير رده إلى معاد ومن تأويله رده بعد موته إلى معاد الرجعة، فكما ﴿مَعَادٖۚ﴾ إلى مكة المكرمة كان له فتحاً مبيناً، كذلك معاد الرجعة حيث الدولة الأخيرة الإسلامية العالمية، وقد رُدَّ إليه معه ﷺ عترته المعصومون وسائر النبيين وكل من محض الإيمان محضاً، كما يرد إليه كلّ من محض الكفر محضاً، وقد يعود في معاد رجعته إلى معاد هجرته فهما معاً - إذاً - مكان عوده قبل مماته وبعده، وقد يعني تنكير ﴿مَعَادٖۚ﴾ جنسه الشامل لمعاد الدعوة ومعاد الرجعة ومعاد القيامة، والرد إلى الأخير اعتباراً إلى لقاء الله فـ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[2] فلو عنى واحدة من هذه لعرِّف: «المعاد».

فـ ﴿قُل﴾ على أطلال تلك البشارة السارة بكل قوة وسداد، لهؤلاء الذين كفروا بك وأنكروك وأخرجوك ﴿رَّبِّيٓ﴾ الذي رباني لهذه الرسالة القرآنية المفروضة عليّ ﴿أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ وذلك لائح من التربية الرسالية الباهرة فيّ، وهو ﴿أَعۡلَمُ... وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ وقد يبين ذلك في «معاد» مكة و«معاد» الرجعة، ثم في «معاد» يوم القيامة!.

ذلك رجاؤك بما نعدك غير مكذوب، كما وألقينا إليك الكتاب ولم تك ترجوه:

﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾:

ما ﴿كُنتَ تَرۡجُوٓاْ﴾ حيث المعدات - المتعوّدة العلمية لتلقّي ذلك العلم القمة - منفية، ومكة بلدة جاهلة قاحلة، والفترة البعيدة الرسالية، وقومك

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

اللّد ضد الرسالة، هذه وأضرابها مما تقطع الرجاء عن إلقاء ذلك الكتاب الكافل للدعوة العالمية في الطول التاريخي بالعرض الجغرافي.

و﴿أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ دون أن ينزل، لمحة أخرى إلى عدم الرجاء، حيث المُلقى إلى مكان قد تُلغى فيه ظرفية المكان، وكل ذلك اليأس هو قضية الحالة الظاهرة، ولكنما الهالة الباطنة الزاهرة، كانت تتطلّب تلك الرسالة الباهرة، فـ «ما كنت»... ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ حيث رباك تربية خفية حفية لتلك الرسالة البهية، ليناسب منزل الوحي نازله، مهما لم يكن يرجوه صاحب المَنزِل.

و﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ استثناء متصل إذ كانت رحمة ربه له مرجوة، عائشاً بين «ما كُنتَ تَرْجُوا» كنفسه بظروفه آفاقية وأنفسية مهما كان بالغ القمة المعرفية، وبين ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ إشراقة رحيمية من ربه الذي رباه لهذه الكرامة الكبرى والدرجة العليا، فجملة القول في هذه الآية هي الحالة العوان لرسول الهدى بين الخوف والرجاء!

إذاً فلم يكن الرسول ﷺ يتطلع إلى الرسالة، فإنها اختيار الله له كما لسائر الرسل، حيث المعرفة مهما كانت قمة لا تتطلب بمفردها الانتصاب للرسالة، فهي رحمة من الله و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[1] رحمة غالية عالية توهب للمتأهلين كما يعلم الله ويختار، دون المتطلعين، وقد اختار للرسالة الأخيرة من لم يتطلّع إليها، بل ولم يَرجهُا، أو لَم يَرَ نفسه مستأهلاً لها تطامناً لله واتكالاً على رحمة الله؟.

أو كان يرجوها ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ الذي رباك تربية تؤهلك لهذه الرسالة السامية، رجاءَ رحمة من ربك، وعدم الرجاء اعتبار بنفسك كأحد من الناس مهما كنت بالغ العقل والزهادة!.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

إذاً ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ كما لم يكن ولن، وإنما ذلك النهي إعلان على رؤوس الأشهاد في هذه الإذاعة القرآنية استئصالاً لآمال الكافرين أن يظاهرهم أو يماريهم، بل هي مفاصلة دائبة، أم مواصلة بالحق المبين والدين المتين، دون تقسيم للبلد بلدين، بانقسام الدعوة شطرين.

وهنا صلة وثيقة بين ما ﴿كُنتَ تَرْجُوٓاْ...﴾ وبين ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ إن عدم الرجاء في إلقاء الكتاب أولى من عدمه في رده إلى معاد، وهنا وعد دونما هناك فلترجُ ما وعدناك من ردك إلى معاد، أكثر مما لم نكن نعدك من إلقاء الكتاب، ولتعش رجاء رحمة من ربك دون تلكُّع ولا تزعزع مهما عارضك العالمون، فموسى الذي قتل القبطي خطأً خلَّف عليه تأخُّر الرسالة والبُعد عن معاد الدعوة، رددناه إليه رسولاً، فأنت الذي ما أخطأت طول عمرك في أيٍّ من أمرك، أقرب إلى الرسالة إلقاء للكتاب عليك، وأقرب إلى ردك إلى معاد الدعوة، وهذه نعمة لك عظيمة تتطلَّب ألّا تكون ظهيراً للكافرين، وكما موسى ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[1].

وهنا الله بما أنعم على محمد ﷺ إلقاءَ الكتاب والردَّ إلى معاد، يتطلب إليه ما تستحكم به عرى الدعوة الرسالية، لا جزاءً فإنه غير مفتاق إلى جزاء، وإنّما تنمية للدعوة المحضرة للعالمين، فهنا نجده في خماسية الطلبات الربانية كدعامات خمس لهذه الدعوة الوامضة الناهضة الباهظة: هي سلبيات أربع بإيجابية واحدة ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾[2] حيث الدعوة الصالحة إلى الرب تتطلب هذه السلبيات قبلها لتستحكم عراها وتُحمى حماها.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ

---

(١) سورة القصص، الآية: ١٧.
(٢) سورة الحج، الآية: ٦٧.

مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾:

مواصلة واحدة ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ تتقوم بمفاصلات أربع، وهي تتوسطها هنا، وفاعل ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ هو كونه - وعوذاً بالله - ظهيراً للكافرين، كخلفيّة أولى لذلك الظهر الظهير، أن يصده عن آيات الله، في أي حقل من حقولها، والتأكيد في ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ يؤكد النهي عن كونه ظهيراً لهم، أن يتهاون في تلقي الوحي وإلقائه، بإلغائه عن فاعلياته، أم يتهاوى بما يكذبونه فيه أنه سحرٌ أو جِنَّة أم كهانة أما هيه؟.

ثم ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أمر بالمُضيِّ الصارم في دعوته الناصعة الناصحة، بعيدة عن كافة النزعات والانتزاعات والرغبات إلّا إعلاء كلمة الله العليا، وإلغاء كلمة الذين كفروا السفلى، ثم ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بالله على أية حال، وإن شركاً خفياً كدبيب النمل، فإنه يقصم ظهر الداعية، ويفصمه عن صالح الدعوة.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ مهما كان مصلحياً لاجتذاب المشركين كما اقترحوه عليه: «اعبد آلهتنا سنة نعبد إلهك سنة» فنزلت سورة «الكافرون» ثورة قاصمة على ازدواجية الدعوة ومصلحيتها، فـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في كلّ شؤون الألوهية، و:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ...﴾: إذ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[1].

والشيء هو الكائن أياً كان، إلهاً ومألوها، إذاً فالله شيءٌ كما الخليقة كلها أشياء، وإن كان الشيء الله هو الذي شيَّأ سائر الأشياء، وبين شيءِ الله وسائر الشيء تباين كلي، لا مشاركة بينهما إلّا في لفظة الشيء وأصل

(١) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

الوجود، دون أية مشاركة في ذلك الأصل، فالأشياء المخلوقة كلها خِلوٌ عن شيءِ الله ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً، كما الله تعالى خلوٌ عنها في مثلث الجهات، فـ «هو خلوٌ من خلقه وخلقه خلوٌ منه» - «باينٌ عن خلقه وخلقه باين منه» - «لا هو في خلقه ولا خلقه فيه» كما: لا هو من خلقه ولا خلقه منه: مباعضة ذاتية أماهيه؟.

وترى «وجهه» هنا تعني الجارحة؟ وهي تأويلة عليلة جارحة كيان الربوبية، إنه يهلك - وعوذاً به - بسائر أجزائه كسائر الكون إلّا وجهه! مهما أوّل أنه وجه جارحي لا كسائر الوجوه، حيث الجارحة لله جارحةٌ ألوهيته على كلّ الوجوه، إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1] فلا تركّب له حتى تكون له جوارح وسواها من أجزاء وحدود متركبة فـ «من المحال أن يهلك منه كلّ شيء ويبقى الوجه»[2]! لـ ﴿وَجْهَهُۥ﴾ هنا وجهان ثانيهما وجه كلّ شيءٍ المتجه إلى الله، رجوعاً لضمير الغائب إلى الحاضرِ الذكر وهو ﴿كُلُّ شَىْءٍ﴾ فالهلاك شامل كلّ شيءٍ، إلّا وجهه المواجِه المتّجه إلى الرب، فإنه باق ببقاء الله بإذنه ورحمته، كالربانيين من السابقين والمقربين وأصحاب اليمين، والجنة بأهلها، فلا هلاك كلّياً لهم ولها[3].

ثم وفي الوجه الأوّل لا وجه لوجه الجارحة، فإن لكل شيءٍ وجهاً

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٢) نور الثقلين ٤: ١٤٥ في كتاب الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه: وأما قوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القَصَص: ٨٨] فالمراد كلّ شيء هالك إلّا دينه، لأن من المحال أن يهلك منه كلّ شيء ويبقى الوجه، هو أجل وأعظم من ذلك وإنما يهلك من ليس منه ألا ترى أنه قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمٰن: ٢٦-٢٧] ففصل بين خلقه ووجهه، وفيه عن التوحيد عن أبي حمزة قال قلت لأبي جعفر عليه السلام قول الله عزّ وجلّ: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القَصَص: ٨٨]؟ قال: يهلك كلّ شيء ويبقى الوجه؟ إن الله أعظم من أن يوصف بالوجه، ولكن معناه: كلّ شيء هالك إلّا دينه والوجه الذي يؤتى منه.

(٣) راجع إلى تفسير آية ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرّحمٰن: ٢٧] في الفرقان ج ٢٧.

يناسبه، وهو في الكل ما يواجَه به ويواجِه، والله يواجِه الكائنات علماً وقدرة، ويواجَه معرفياً وعبودياً، والوجه الوجيه هنا لوجهه هو ذاته بصفاته ذاتية وفعلية، والروحانيون الذين يواجهونه حياتَهم معرفياً وعبودياً.

فاختصاص ﴿وَجْهَهُ﴾ هنا بذاته يقتضي تبديل وجهه بذاته، فإنها صريحة في ذاته، ووجهه غير صريح، كما اختصاصه بغير ذاته إدخال لها ضمن الهالكين، أن ذاته يهلك وسائر وجوهه تبقى!.

إذاً فـ ﴿وَجْهَهُ﴾ تعم ذاته كقمة الوجوه، إلى متعلقاتها الربانية ذاتياً وخارجياً، ومن الثاني دينه(١) والدعاة إليه، فإنهم وجه الله الذي يُتوجه بهم إليه، وكما يروى «نحن وجه الله الذي لا يهلك»(٢) وكما أن المتجهين إلى الله بهم، هم من وجهه(٣) والإضافة في ﴿وَجْهَهُ﴾ تختلف حسب مختلف مصاديق الوجه، ففي وجه الذات هي من إضافة الشيء إلى نفسه، وفي وجه صفات الذات هي إضافتها إلى الذات، وفي وجه الدعوة والدعاة، هي إضافة الفعل إلى مصدره، فإنهم صادرون عن الله فموجَّهون إلى الله! فالمتخلفون عن الله هم هالكون في حياتهم وبعد موتهم وإلى النار حيث

---

(١) المصدر عن التوحيد بإسناده إلى خيثمة قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الآية قال: دينه، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام دين الله ووجهه وعينه في عباده ولسانه الذي ينطق به ويده على خلقه ونحن وجه الله الذي يؤتى منه ولن نزل في عباده ما دامت لله فيهم روية، قلت: وما الروية؟ قال: الحاجة، فإذا لم يكن لله فيهم حاجة رفعنا إليه وصنع ما أحب.

(٢) نور الثقلين ٤: ١٤٦ عن كتاب التوحيد بإسناده إلى صفوان قال قال أبو عبد الله عليه السلام: . . .

(٣) المصدر عن التوحيد بإسناده إلى الحارث بن المغيرة النصري قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القَصَص: ٨٨]؟ قال: كلّ شيء هالك إلّا من أخذ طريق الحق، وفي محاسن البرقي مثله وفي آخره: من أخذ الطريق الذي أنتم عليه، وعن التوحيد بإسناده إلى صفوان الجمال عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: من أتى الله بما أمر به من طاعة محمد والأئمة من بعده صلوات الله عليهم فهو الوجه الذي لا يهلك ثم قرأ: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

تهلك ومن فيها، والمتجهون إلى الله باقون وإن ماتوا فإنهم في الجنة باقون كما هي دون نهاية.

هذه وجوه وجيهة من ﴿وَجْهَهُۥ﴾ هنا مهما اختلفت درجاتها، فوجه الذات لن يتغير ولن يهلك بأي هلاك[1] كما صفاته الذاتية، وصفاته الفعلية وهي أفعاله لن تهلك مهما تغيرت كما يشاء بحكمته، ودينه لا يهلك، مهما تبدلت شرائعه، والدعاة إليه لن يهلكوا مهما ماتوا أو قُتلوا.

و﴿هَالِكٌ﴾ لا تعني - فقط - مستقبل الهلاك حين تَهلك النار بمن فيها، بل والحال على أية حال، وهو عبارة أخرى عن البطلان، فهو هلاك الكون والكيان، ولكن «وجهه» لا هلاك له كوناً ولا كياناً، مهما طرأه موت أو تغيّر آخر في غير وجه الذات والصفات.

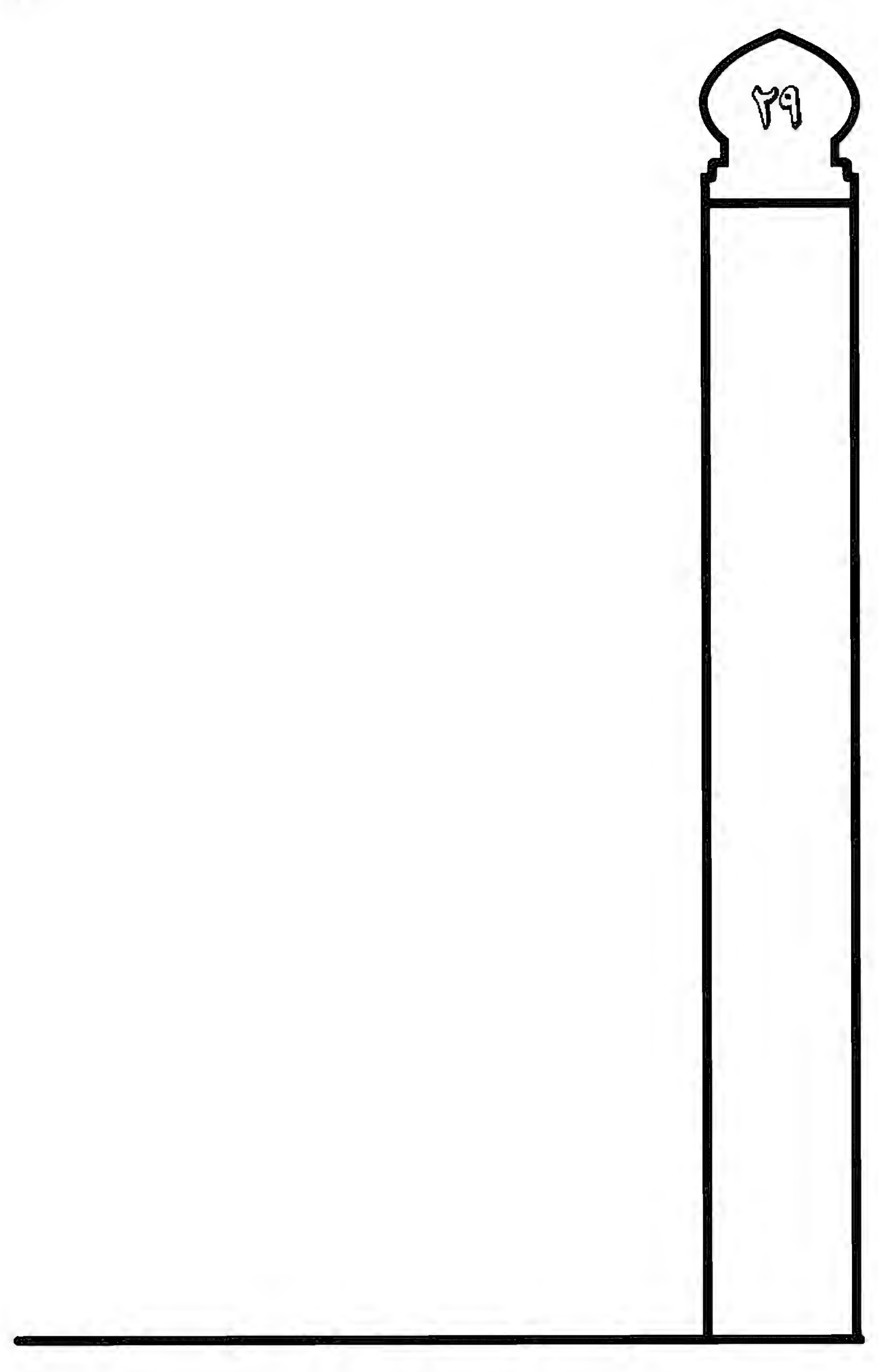
ثم ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ تكويناً وتشريعاً لا سواه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ لا إلى سواه.

والمرجع للضمير الأوَّل هو وجه الذات أصلياً، ووجوه الدعاة إليه رسالياً وبلاغياً، فإنهم الحكام من قبل الله، وأما الثاني فلا مرجع له إلّا الذات، إذ لا رجوع إلّا إلى الله، اللهم إلّا للدعاة المعصومين أيضاً لأنهم موازين الأعمال ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾[2]، فهنالك رجوع إلى كتب الشِّرعة وأئمتها كموازين للأعمال والعقائد، والمرجع الأصيل هو الله.

---

(١) المصدر في أصول الكافي عن أحمد بن إدريس عن محمد بن عبد الجبار عن صفوان بن يحيى عن فضيل بن عثمان عن ابن أبي يعفور قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣].. وقلت: أما الأول فقد عرفناه وأما الآخر فبين لنا تفسيره. فقال: إنه ليس شيء إلّا يبيد أو يتغير أو يدخله الغير والزوال وينتقل من لون إلى لون ومن هيئة إلى هيئة ومن صفة إلى صفة ومن زيادة إلى نقصان ومن نقصان إلى زيادة إلّا رب العالمين فإنه لم يزل ولا يزال بحالة واحدة، هو الأول قبل كلّ شيء وهو الآخر على ما لم يزل ولا تختلف عليه الصفات والأسماء كما تختلف على غيره مثل الإنسان الذي يكون تراباً مرة ومرة لحماً ودماً ومرة رفاتاً ورميماً، وكالبسر الذي يكون مرة بلحاً ومرة بسراً ومرة رطباً ومرة تمراً فتتبدل عليه الأسماء والصفات والله عزّ وجلّ بخلاف ذلك.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧١.


٢٩

مكية وآياتها تسع وستون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ
﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ
ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا
يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلۡعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ
﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ
أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ
لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ
فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا
مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ
ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم

مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

سورة متماسكة الآيات بدءَ ختم، قهرمانتها المسماة هي باسمها «العنكبوت» وهي أضعف حشرة نعرفها ولا سيما في بيتها التي هي أوهن البيوت، تدليلاً على أن بيت الإشراك بالله والإلحاد في الله هو أهون من بيت العنكبوت ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

ملامح السورة ومصارحها بمسارحها تشهد أنها مدنية كلها، والجهاد لا تختص بالقتال حتى تتخذ آياته فيها دليل أنها مدنية - فإن المؤمن حياته الجهاد كما تقتضيه ظروفه - فإنما الدلالة الجامعة من جو السورة أنها نزلت في غضون الهجرة وهي أحرج الحالات للنبي والذين آمنوا معه.

تتخلل السورة من مطلعها إلى ختامها إيقاعات عميقة المدى، قوية الصدى حول حق الإيمان، وباطل الكفر، مما تهزّ الإنسان هزاً وتفزه فزاً ابتلاءً صارماً أمام تكاليف الإيمان وقضاياه ورزاياه وعقباته الكئودة الملتوية من المتربصين دوائر السوء ضده وضد كتلة الإيمان.

فقد ابتدأت بإيقاعه ما أقواها: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ . . .﴾ واختتمت بما يقضي على كل العراقيل في سبيل الله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1] وبينهما عرض لمصارع المجاهدين والجاحدين - وأين مصارع من مصارع ـ؟ وعرض لما يتوجب على كتلة الإيمان أمام كتلة الكفر والنكران.

لقد سبق في أخريات القصص وعدُ ردّه ﷺ إلى معادة، وأمره ﷺ بالصمود في الدعوة سلبياً وإيجابياً، مما قد يبهِّج سواذج المؤمنين، فهنا

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

العنكبوت تُحَمِّلهم شاقة التكاليف في هذه السبيل الشاقة الطويلة، بينهم وبين فتح مكة، في عشرة كاملة، ومن ثم إلى يوم الرجعة وإلى يوم القيامة الكبرى أن نعيش حياة الجهاد في سبيل الله صامدين غير خامدين.

﴿الٓمٓ ①﴾:

وهذه مكرورة مرات خمس، مرة يتيمة في مدنية: البقرة، وأربعاً في مكيات اربع، قد تكون هذه أخراها، والباقية هي الروم ولقمان والسجدة.

وقد تربط ﴿الٓمٓ﴾ العنكبوت وهي المكية الأخيرة، بـ ﴿الٓمٓ﴾ البقرة وهي المدنية الأولى، تترابطان هما بمشترك الحروف الرمزية هذه، بتقارب الجوين، على تغارب البلدين: مكة والمدينة، وإلى مَ ترمز ﴿الٓمٓ﴾ هنا وهناك وفي الثلاثة الأخرى؟ ما ندري إلّا ما يدرينا الله، ومن هم المرموز إليهم فيها وسواها من مفاتيح كنوز القرآن.

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ②﴾:

إنه لحسبان جاهل قاحل، إن القول ﴿ءَامَنَّا﴾ يؤمّنهم عن كل العقبات والعقوبات، بل هم - بمراتبهم - يفتنون، فتنة الذهب بالنار، وإنها فتنة للمؤمنين على طول الخط، في الزمن الرسولي والرسالي على مختلف الظروف، وهي «الفتنة في الدين، يفتنون كما يفتن الذهب، يخلصون كما يخلص الذهب»[1] من فتن عقائدية وثقافية وسياسية وأخلاقية واقتصادية اماهيه من فتن هي كلها داخلة في نطاق الدين، المحلق على كل الحقول الحيوية، فلقد فتن المؤمنون في العهد المكي بأحرج الفتن، وعُذِّبوا بأشد العذاب، ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[2].

---

(١) نور الثقلين ٤ : ١٤٨ في أصول الكافي عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن معمر بن خلاد قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: ﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ. . .﴾ [العنكبوت: ١-٢] ثم قال لي: ما الفتنة؟ قلت: جعلت فداك الفتنة في الدين، فقال: يفتنون. .

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٤١ - أخرج ابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عساكر عن عبد الله =

وكما فتنوا في العهد المدني بغزوات وبكتلة النفاق، ثم فتنوا برحلة الرسول ﷺ في قصة الخلافة الخلاعة، ولقد «جاء العباس إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال انطلق بنا نبايع لك الناس، فقال عليه السلام أوَ تراهم فاعلون؟ قال: نعم - قال: فأين قوله عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا... وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[1] ومن أشد الفتنة ما حصلت

= بن عبيد بن عمير قال: نزلت في عمار بن ياسر يعذب في الله ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ [العنكبوت: ٢]. وفيه أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال سمعت ابن عمير وغيره يقولون: كان أبو جهل لعنه الله يعذب عمار بن ياسر وأمه ويجعل على عمار درعاً من حديد في اليوم الصائف وطعن في حياً أمه برمح ففي ذلك نزلت هذه الآية، وفيه أخرج ابن ماجة وابن مردويه عن ابن مسعود قال: أوّل من أظهر إسلامه سبعه رسول الله ﷺ وأبو بكر وسمية أم عمار وعمار وصهيب وبلال والمقداد فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم درع الحديد وصهروهم في الشمس فما منهم أحد إلّا وقد أتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول أحد أحد».

أقول: تركهم هنا علياً عليه السلام وهو أوّل من أسلم خيانة تاريخية، ثم «أتاهم على ما أرادوا» تعني التقية حتى لا يقتلوا وكان الفوز بينهم لبلال!.

(١) نور الثقلين ٤: ١٤٧ في تفسير القمي حدثني أبي عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن عليه السلام قال: ... وفي مجمع البيان عند قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ٦٥] وفي تفسير الكلبي انه لما نزلت هذه الآية قام النبي ﷺ فتوضأ وأسبغ ثم قام وصلى فأحسن صلاته ثم سأل الله سبحانه أن لا يبعث عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم أو يلبسهم شيعاً ولا يذيق بعضهم بأس بعض فنزل جبرئيل عليه السلام ولم يجرهم من الخصلتين الأخيرتين فقال عليه السلام: يا جبرئيل ما بقاء أمتي مع قتل بعضهم بعضاً؟ فقام وعاد إلى الدعاء فنزل: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ...﴾ [العنكبوت: ١-٢] الآيتين فقال لا بد من فتنة تبتلى بها الأمة بعد نبيها ليتعين الصادق من الكاذب لأن الوحي انقطع وبقي السيف وافتراق الكلمة إلى يوم القيامة.

في ارشاد المفيد وقد جاءت الرواية انه لما تم لأبي بكر ما تم وبايعه من بايعه جاء رجل إلى امير المؤمنين عليه السلام وهو يسوي قبر رسول الله ﷺ بمسحاة في يده وقال له: إن القوم قد بايعوا أبا بكر ووقعت الخذلة في الأنصار لاختلافهم ويدر الطلقاء للعقد للرجل خوفاً من ادراككم الأمر؟ فوضع طرف المسحاة على الأرض ويده عليها ثم قال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾.

وتحصل بعد رسول الله ﷺ حول قيادة الأمة الإسلامية وإمارتها: كما و«قام إليه عليه السلام رجل فقال: أخبرنا عن الفتنة وهل سألت رسول الله ﷺ عنها؟ فقال: لما انزل الله سبحانه قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ...﴾ علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله بين أظهرنا، فقلت: يا رسول الله ما هذه الفتنة التي أخبرك الله بها؟ فقال ﷺ: يا علي! إن أُمتي سيفتنون من بعدي، فقلت: يا رسول الله أو ليس قد قلت لي يوم أحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين وأحيزت عني الشهادة فشق ذلك عليّ فقلت لي: أبشر فإن الشهادة من ورائك، فقال لي: إن ذلك لكذلك فكيف صبرك إذا؟ فقلت يا رسول الله ﷺ ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرى والشكر، وقال ﷺ: يا علي! سيفتنون بعدي بأموالهم ويمنّون بدينهم على ربهم، ويتمنون رحمته ويأمنون سطوته ويستحلّون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية، فيستحلون الخمر بالنبيذ والسحت بالهدية والربا بالبيع، قلت: يا رسول الله فبأي المنازل أنزلهم عند ذلك، أبمنزلة ردّة أم بمنزلة فتنة؟ قال: بمنزلة فتنة[1].

وفي التوقيع الشريف عن صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه «.. وأنا أعوذ بالله من العمى بعد الجلاء ومن الضلالة بعد الهدى ومن موبقات الأعمال ومرديات الفتن، وإنه عزّ وجلّ يقول: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ...﴾ كيف يتساقطون في الفتنة، ويترددون في الحيرة، ويأخذون يميناً وشمالاً،

---

(١) نور الثقلين ٤: ١٤٨ في نهج البلاغة وقام إليه... وفي ملحقات احقاق الحق: قال علي عليه السلام يا رسول الله ﷺ ما هذه الفتنة؟ قال يا علي بك وأنت مخاصم فاعتد للخصومة» ذكره الحافظ ابن مردويه في المناقب كما في كشف الغمة ٩٣، وذكره المير محمد صالح الكشفي في مناقب مرتضوي ٦١ قال روي عن علي عليه السلام في الآية قال سألت رسول الله ﷺ بم يفتنون؟
قال: بتصديق ولايتك.

فارقوا دينهم أم ارتابوا أم عاندوا الحق أم جهلوا ما جاءت به الروايات الصادقة والأخبار الصحيحة وعلموا فتناسوا...»[(١)]!

ليس القول ﴿ءَامَنَّا﴾ سياجاً مطمئناً عما تطرء من فتن، حتى ولا حقّ الإيمان، فقد يفتن المؤمن ليبرز صدقه في دعواه أو كذبه، وأخرى ليتكامل في حظيرة الإيمان، وثالثة هي طبيعة الحال لكتلة الإيمان حيث العقبات من الكتلة الأخرى ضدهم دائبة، فهم إذا في مثلث الفتنة.

فليس الإيمان كلمة تقال، فإنما هي تعبيرة عنه صادقة أم كاذبة، بل هو حقيقة ذات تكاليف وذات أعباء ومشاق لا يتحملها إلا قليل[(٢)] حين يتمحّلها كثير، ويا ويلاها من فتن لا تقوم لها قائمة كفتنة الأحباء والأهلين إذ يهتفون به ليسالم أو ليستسلم أمام الباطل حفاظاً عليهم، هتافاً باسم الله في الرحم، ومن أبرزها الفتنة مع الوالدين كما أتت في هذه السورة.

وفتنة إقبال الدنيا على المبطلين، تهتف لهم الدنيا وتصفق لهم أهلوها وهو المؤمن مهمل منكر لا يحس به من أاحد، ثاوياً في غربته ووحدته بوهدته، يرى الذين حوله غارقين في تيه الضلالة وتيار الجهالة.

وأعظم من كل الفتن وافتن هي فتنة الإمرة على الأمة والعلو في الأرض، أعاذنا الله من شرها، ورزقنا خيرها تحقيقاً للحق وابطالاً للباطل.

---

(١) المصدر في كتاب كمال الدين وتمام النقمة توقيع من صاحب الزمان (عج) كان خرج إلى العمري وابنه رضي الله عنهما رواه سعد بن عبد الله قال الشيخ أبو جعفر وجدت ثبتاً بخط سعد بن عبد الله رحمه الله: «وفقكما الله وثبتكما على دينه وأسعدكما مرضاته، انتهى إلينا بما ذكرتما أن المسمى أخبركما عن المختار ومناظرته من لقى واحتجاجه بانه لا خلف غير جعفر بن علي وتصديقه وفهمت جميع ما كتبتما به مما قال أصحابكم عنه وأنا أعوذ بالله»..

(٢) نور الثقلين ٤: ١٥٠ عن ارشاد المفيد عن الفضل بن شاذان عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: لا يكون ما تمدون اليه أعناقكم حتى تميزوا وتمحصوا ولا يبقى منكم إلا القليل ثم قرأ الآية ثم قال: إن من علامات الفرج حدث يكون بين المسجدين ويقتل فلان من ولد فلان خمسة عشر كبشاً من العرب.

فهذه الآية ضابطة عامة للذين قالوا آمناً، أنهم يفتنون فيما قالوا على أية حال، فمنهم ساقطون فيها ومنهم ثابتون ومنهم عوان، وليست الفتنة فقط، بعدم المال والحال والمنال، بل هم في وجدها أشد فتنة وبلاء، يفتنون بمختلف الأحوال في كل حل وترحال، بل الحياة الدنيا كلهما فتنة وبلاء بخيرها وشرها، بإقبالها وادبارها، والإمرة من أشرّ الفتن وأمرّها!:

﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(١) ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(٢) فمن الحسنات الخير ما يوافق الطبع ويوافره، كما من السيآت الشر ما يخالف الطبع وينافره، وفي كلّ سقوط ونجاح، فالأول من السيآت الشر بوجه آخر مهما وافق الطبع، والثاني كذلك من الحسنات الخير مهما خالف الطبع، وأبلى البلاء هو في الموافق للطبع، والكل ابتلاء: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا . . .﴾(٣).

ولو أراد الله جل ثناءه بأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن البلدان ومغارس الجنان، وأن يحشر طير السماء ووحش الأرض معهم لفعل، ولو فعل لسقط البلاء، وبطل الجزاء، واضمحل الابتلاء، ولما وجب للقائلين أجر المبتلين، ولا لحق المؤمنين ثواب المحسنين، ولا لزمت الأسماء أهاليها على معنى مبين، ولذلك لو أنزل الله من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين، ولو فعل لسقط البلوى عن الناس أجمعين، ولكن الله جل ثناءه جعل رسله أولي قوة في عزائم نياتهم، وضعفه فيما ترى الأعين من حالاتهم من قناعة تملأ القلوب والعيون غناءه وخصائصه يملأ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٨.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.
(٣) سورة الفجر، الآيات: ١٥-١٧.

الأسماع والأبصار أداءه، ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا ترام وعزة لا تضام وملك يمد نحوه أعناق الرجال ويشد إليه عقد الرحال لكان أهون على الخلق في الاختبار وأبعد لهم في الاستكبار، ولآمنوا عن رغبة قاهرة لهم، أو رهبة مائلة بهم، فكانت النيات مشتركة والحسنات مقتسمة، ولكن الله أراد أن يكون الإتباع لرسله والتصديق بكتبه والخشوع لوجهه والاستكانة لأمره والاستسلام إليه أموراً خاصة لا يشوبها من غيرها شائبة، وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل[١].

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾:

ليست الفتنة لتختص بكم، بل هي تحلق على كافة المكلفين منذ البداية وإلى يوم الدين: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ طول التاريخ الرسالي دونما استثناء مهما اختلفت صور الفتنة ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ...﴾ أتراه علماً هو بالطبع بعد جهل؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً! أم ظهوراً لمعلومه لمن لا يعلم؟ وصيغته الصالحة «فليعلم الذين صدقوا..» ! ولا يناسب الفصاحة القمة لكتاب البيان أن يعبر عن ذلك بغير تعبيره الفاصح! أم هي علمه الفعلي دون الفاعلي، وهو نفس الأمر الخارجي، فإنه من مراتب علمه تعالى؟ وتعبيره الصحيح - إن صح إنه من مراتب علمه - فليحققن الله صدق الصادقين وكذب الكاذبين! أم هي «فليُعلِمن» بضم الياء وكسر اللام فيهما من الإعلام[٢] حيث الفتنة تعلم المجاهيل بواقع الأمر؟ وهو في نفسه صحيح ولكنه خلاف متواتر القراءة! انها كما هيه بنفس الصيغة المتواترة، ولكنها من

(١) نور الثقلين ٤: ١٥٠ في الكافي وروى أن أمير المؤمنين عليه السلام قال في خطبة له:...

(٢) في مجمع البيان قرأ علي عليه السلام «فليعلمن.» بضم الياء وكسر اللام فيهما وهو المروي عن جعفر بن محمد ومحمد بن عبد الله بن الحسن.

العلم فتحاً: العلامة، دون العلم[١] ومن آياته انفراد المفعول، وليس مفعول العلم إلّا جملة تامة، و«الذين صدقوا - كما - الكاذبين» ليست تامة، فقد تعني التأكيد الأكيد للعلامة صدقاً في الصادقين وكذباً في الكاذبين، فـ «ل» تأكيد أوّل، ونون التأكيد ثان، بهما تتأكد الغاية المقصودة من الفتنة أنها العلامة على الفريقين، خروجاً عن المساوات في ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ مواصلة بين القول والعمل للصادقين، ومفاصلة للكاذبين، علماً لهم ولسائر المجاهيل الذين لا يعلمون صدق القول في دعوى الإيمان وكذبه فـ «عند تقلب الأحوال تعرف جواهر الرجال»!.

ولأن اللّام هنا هي لام القسم فقد تعني «ليعلمن» تأكيد علمه الصادقين والكاذبين، إضافة إلى علمه، فذلك تأكيد أكيد لعلمه وعلمه مهما دلت وحدة المفعول على أصالة العلم، فإنما عناية العلم ضمن العلم تسمح لوحدة المفعول.

وهذه بخلاف الآيات التي تجعل العلم غاية الابتلاء كـ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ . . .﴾[٢] فإنه العلم دون العلم..

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾:

هنالك مهلة ماحلة للذين يعملون السيآت، يحسبونهم بها سابقين على الله وعلى أهل الله، غافلين أو متغافلين أنها إمهال من الله وإملال بكيد متين: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾[٣] ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[٤] وفي أن الإملاء هو

---

(١) وهكذا نرى في عشر أخرى من الآيات انها تعني العلم ومفاعيلها مفردات كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾ [البقرة: ١٤٣].

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٣

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

من الشيطان، يمضيه الله بحق الظالمين فيذرهم في طغيانهم يعمهون، حيث ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾[١] فـــ ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ﴾[٢]، كما وذلك الحسبان الغاوي الخاوي من الشيطان ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ ﴿أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ إذ لا فارق لنا في ذلك الميدان حتى يكون سباق فيسبقونا أو نسبقهم، وإنما يصبغهم الشيطان بما سول لهم بهذه العقلية القاحلة، فحسبوا أن يسبقونا، وعامل السيئة لا مفلت ولا سابق، ومن يحسب هذا أو ذاك فقد ساء حكمه وفسد تقديره واختل تصويره، وحلّ تكويره وتكديره. ولأن ﴿أَمۡ﴾ منقطعة تعطف إلى محذوف معروف من الحسبانات السيئة، فقد يكون هو نكران الله، أو الإشراك بالله، أم حسبان جهله عما يعملون، أم هتك حرمته على حضوره، أم الأمن من عقابه بعفو أو شفاعة أمّا هيه من حسبانات خاوية، هي التي تسمح لهم ان يعملوا السيآت ﴿أَمۡ . . . أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾.

فهي - إذاً - تشمل كل هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ دون اختصاص، مهما اختلفت دركاتها، فاختلفت التهديدات بهم والتنديدات.

وعمل السيآت - ككل - ناتج عن البعد عن الله، في أية دركة من دركاته، كما أن لقاء الله درجات:

﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٥﴾:

﴿لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ وما أدراك ما ﴿لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾؟ هل هو الاتصال بالله دون أي حجاب حتى حجاب الذات؟ ولا يتيسر لأحد ممن سوى الله حتى أوّل العابدين وأفضل العارفين وكما قال: «ما عبدناك حق عبادتك ولا عرفناك

(١) سورة محمد، الآية: ٢٥.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٥٩.

حق معرفتك»! أم هو لقاء ثوابه - فقط - ورحمته هنا وفي الأخرى[١]؟ وتعبيره الصحيح ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ أم ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾[٢] أم ﴿وَلِقَـآءِ ٱلۡأٓخِـرَةِ﴾[٣] حتى تعني لقاء ربوبية الجزاء! بل ولقاء الرب أيضاً تعمها وسواها من لقاء يرجى لقبيل الإيمان: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾[٤].

بل ورجاء اللقاء دون يقينه قد يختصه بغير الحياة الآخرة لأنها متيقنة لأهلها حيث: ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾[٥]، فهو إذا رجاء اللقاء المعرفي ورجاء الثواب في الدارين، ولا سيما في «لقا لله الله»، وليس في القرآن رجاء اللقاء إلّا للمؤمنين ﴿لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ كما هنا و﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ كما في الكهف، ثم ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾[٦] للكافرين.

إنه ﴿لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ معرفياً بعبودية، وعبودياً بمعرفة، محلقاً على كل درجات الزلفي إلى الله حسب درجات العبودية والمعرفة.

و﴿كَانَ يَرۡجُواْ﴾ تضرب إلى أعماق الماضي كماً وكيفاً، أن أصبح رجاء لقاء الله عشيراً له في حياته، ولا يصح رجاء إلّا بتقديم أسباب للحصول

---

(١) نور الثقلين ٤: ١٥٣ في كتاب التوحيد حديث طويل عن علي عليه السلام يقول فيه - وقد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات: وقوله: من كان يرجو لقاء الله فإن اجل الله لآت، يعني بقوله: من كان يؤمن بأنه مبعوث فإن وعد الله لآت من الثواب والعقاب فاللقاء هاهنا ليس بالرؤية، واللقاء هو البعث فافهم جميع ما في كتاب الله من لقائه فإنه يعني بذلك البعث». أقول: انما نفى هنا لقاء الرؤية دون سائر اللقاء، فإثباته لقاء الثواب في الآخرة لا ينافي اثبات سائر اللقاء إلا الرؤية واضرابها، وانما ذكر لقاء الثواب كمصداق تتقن متيقن مفهوم لكل أحد، والأكثرية الساحقة من آيات لقاء الله ولقاء الرب تعني الآخرة بثوابها وعقابها.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٧.

(٤) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٥) سورة الرعد، الآية: ٢.

(٦) سورة يونس، الآية: ٧.

على المرجو، والعبودية والمعرفة الإيمانية هما السببان الرئيسيان للقاء الله في الآخرة والأولى، و﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ هنا هو الوقت المؤجل للقائه عاجلاً أم آجلاً، كلما ازدادت المعرفة زادت العبودية، وكلما ازدادت العبودية زادت المعرفة، حتى يصبح العبد ﴿أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[1] في عبوديته، ومتدلياً بالله في معرفته، حيث لا يبقى بينه تعالى وبينه أي حجاب حتى حجاب نفسه إذ يتغافل عنها في تلك الجذبة الربانية، فلا يبقى إلّا حجاب الذات، حينما تفنى حجب الإنيات. فرجاء اللقاء بشروطه الصالحة يخلفه ويقدره ودونما تخلّف ﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ لذلك اللقاء ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[2] والراجي المفتاق المشتاق يلقى أجل الله أياً كان ﴿وَهُوَ﴾ لا سواه ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ صوت القال والحال وصيتهما ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل حال وقال وأفعال.

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾:

﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ طبعاً في سبيل الله وفي الله وإلّا لكانت على نفسه لا لنفسه ﴿فَإِنَّمَا﴾ دونما إبقاء ﴿يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ فإنها سعي لصالحه نفسه في الحياتين، وليسن لصالح ربه فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والمجاهدة هي المبالغة في الجهاد فإنها مفاعلة بين طرفي النزاع، وليس جهاداً دونما منازع، فهنا نزعات النفس ورغباتها تعرقل المسير، وكما هناك الرغبات والنزعات الإبليسية خارجة النفس، والعقل المتبني الفطرة المتأيد بوحي السماء هو المجاهد الوحيد في ميادين السباق بهؤلاء الرفاق الأقوياء، وحياة المؤمن هي سلسلة معارك الجهاد آفاقياً وانفسياً في سبيل الله، دونما فترة ولا فطور، وإلّا لكانت حياة جاهلة قاحلة، مقلوبة في إنسانيتها فضلاً عن إسلاميتها.

فقد تجاهد لله ولا عائدة منها إليك في أمرها إلّا أمرها فتتهاون - إذاً -

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨١.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.

فيها، أو قد يشاركك الله في تلك العائدة نصف لك ونصف له فكذلك الأمر وأقوى، ولكن الله غني عن العالمين و﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ وما الله إلّا دليل الرشاد وموفق العباد في كل جهاد، فلماذا إذا التهاون في سبيل الجهاد.

وما سبيل الله في جهاد وسواه، إلّا سبيل صالح المجاهد في الله، حيث يبلّغه مناه، ويمده إلى مداه، ويهديه هداه، وما وعد الثواب للمجاهدين إلّا رحمة من الله وفضلاً دونما استحقاق، فالجهاد بالنفس والنفيس بكل غال ورخيص، يصلح من نفس المجاهد وقلبه، ويرفع من تصوراته وآفاقه، فيستعلي به على الشح، ويستجيش أفضل ما في كيانه وإمكانه من عدّات وعدّات.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهم «من جاهد» بصيغته الأخرى السائغة، المفسرة للجهاد والمستفسرة منه، حيث الإيمان جهاد نفسي وعمل الصالحات هو الجهاد الآفاقي، وكيف يحصل أو يتكامل إيمان بلا جهاد، وكيف تتحقق الصالحات دون جهاد.

وهنا الله يعد المجاهدين تكفيراً عن سيئاتهم اللّمم وسواها، المتفلتة عنهم في حياة الجهاد، تغافلاً أو تساهلاً، فيأمنوا بأس السيآت حيث اجتنبوا كبائرها ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[1].

ولأن ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قد تعم هؤلاء والذين لا يعترفون السيآت حتى اللمم

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.

كالمعصومين من السابقين والمقربين، فالتكفير بالنسبة لهم دفع عن السيآت ألّا يرتكبوها، لا رفع لهما بعد ارتكابها، كما الغفر يعم الدفع والرفع.

ثم للذين آمنوا - ككلّ على قدر ايمانهم - تكفير الدفع كما لهم تكفير الرفع ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[١].

أم أن ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ تعني من سوى المعصومين فإنهم مسلمون لله، لا فقط انهم مؤمنون، وقد يتأيد بـ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾[٢] فإنهم بطبيعة الحال من فوق المؤمنين من ﴿النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[٣] فالمؤمنون هنا ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ ... مِّنَ النَّبِيِّينَ...﴾[٤] والصالحون هنا دون مقابل هم كل هؤلاء الأربع الذين على صراط مستقيم.

ثم ولا وحسبهم هذا، بل ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ جزاءَ الحسنى بالحسنى، وحتى الحسنات التي ليست بالحسنى، وهي الجزاء بعشرة أمثالها وزيادة ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[٥] والحسنى هنا والأحسن هناك هما الأحسن وجزاءه لا يتفارقان، ففي أربع - آيتنا منها - الجزاء هو الأحسن نفسه، وفي ثنتين الجزاء بالأحسن[٦] مما يبين أن الجزاء هو العمل نفسه بما يظهر بملكوته هناك، وإنه العمل الأحسن دون السيء إذ كفّر عنهم،

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٩.
(٣) سورة النساء، الآية: ٦٩.
(٤) سورة النساء، الآية: ٦٩.
(٥) سورة يونس، الآية: ٢٦.
(٦) فمن الأول: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢١] ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٨] ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٦].
ومن الثانية: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

ولا الحسن فإن أقله عشرة الأمثال، فالجزاء الأحسن جزاءً للأحسن والحسن سواء، فليجاهد المؤمن ويبالغ أن يأتي بالأحسن فالأحسن فإنه درجته يوم القيامة، وكلما كان الأحسن أكثر فالجزاء - بطبيعة الحال - أحسن، حيث القصد من الأحسن مجموعة الكم والكيف، فالذي يكون كل اعماله الأحسن دون سيء ولا حسن كأوّل العابدين، فدرجته كذلك أحسن ممن يكون أحسنه أقل في كم أو كيف أو فيهما، و﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾(١).

ويا له من فضل عظيم عميم ونعيم مقيم للمجاهدين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، تكفيراً عنهم سيئاتهم، وجزاء الحسنى بكل حسناتهم وليست كلها حسنى، فما أكرمك يا رب، وما ألأمنا يا رب!.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾:

هذه وصية ربانية لصالح الوالدين والأولاد ﴿حُسْنًا﴾ هنا و«إحسانا» في أخرى، مما يدل انهما واحد، أن تكون حياتك معهما حياة حسنة بإحسان حالاً ومالاً ومآلاً دونما أية إساءة ولا سوء حتى في قلبك فضلاً عما يظهر، ولا ترك إحسان ألّا تسيء إليهما ولا تحسن حيث الفرض هو الإحسان، وهذه هي الضابطة الشاملة على أية حال، المقتضية لطاعتهما على أية حال، إلّا إذا كانت عصياناً لله فكلّا، فتركا لطاعتهما فيه مع الحفاظ على المصاحبة الحسنة فيما وراءها، حيث الصلة بالله وفي الله هي الصلة القمة الأولى، لا تساويها أو تساميها أية صلة، فلا تناحرها صلة الوالدية فيما تنافرتا، وليست الصلة الوالدية إلّا بما قرر الله في حقلي التكوين والتشريع، فكيف تتقدم على صلة الله! فكل صلة تتهاوى بجنب صلة الله، إلّا ما تصلك بالله، وتسرع

(١) سورة النساء، الآية: ٤٩.

عجلة سيرك إلى الله[١] فإنما طاعتهما في المباحات التي لا أمر فيها ولا نهي، صارماً أم راجحاً أم فعل المستحبات وترك المكروهات، فكما تجب المستحبات وتحرم المكروهات بنذر أو عهد أو قسم، كذلك - ويأحرى - بأمر الوالدين فإن طاعتهما فيهما هو من حسن عشرتهما، اللهم إلّا في الموارد الحرجة أو العسرة فلا، فترك المستحبات وفعل المكروهات بأمر الوالدين ليس من واجب الطاعة لهما مهما جازت إلّا إذا حملت تشريعاً فمحرمة.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ بالغ الجهد في جحد التوحيد الحق بكل حقوله طاعة وعبادة ﴿لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ اشراكاً في أيّ من شؤون الربوبية، من توحيد الذات أو الصفات أو الأفعال، أو الوحي أو العبادة والطاعة أماهيه من قضايا الربوبية الوحيدة ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولماذا تطيعهما فيها، ومنه مبدئكم ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ في معصيتي وكلها اشراك بي مهما اختلفت دركاتها، ثم ولا تسيء إليهما في عشرتك إياهما إلّا ترك هذه الطاعة وهي في الحق إحسان إليهما ألّا يزرا مع وزرهما وزراً منك، وليس في طاعتهما بمعصية الله أو العمل خلاف حب الله حسن، ودائرة الوصية بالوالدين مضيقة بـ«حسنا» أترى أن الله يفرض طاعة أو يسمح ما فيه معصية ويراه حسناً وهو

---

(١) روى الترمذي عند تفسير هذه الآية انها نزلت في سعد بن أبي وقاص وأمه حمنة بنت أبي سفيان وكان باراً بأمه فقالت له: ما هذا الدين الذي أحدثت، والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت فتتغير بذلك أبد الدهر يقال: يا قاتل أمه، ثم إنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب فجاء سعد إليها وقال يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني، فكلي إن شئت وإن شئت فلا تأكلي فلما أيست منه أكلت وشربت فأنزل الله هذه الآية.. وفي الدر المنثور عن قتادة في الآية قال: أنزلت في سعد بن مالك لما هاجر قالت أمه: والله لا يظلني ظل حتى يرجع فأنزل الله في ذلك ان يحسن إليهما ولا يطيعهما في الشرك.

يحمل مثلثاً من السوء: سوء بساحة الربوبية، وسوء بنفسه في هذه الطاعة، وسوء بالوالدين حيث تخلف طاعتهما في معصية الله مزيداً في وزرهما.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾[1].

ولماذا خصوص ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ في «لا تطعهما»؟ لأنها القمة العالية من الحمل على العصيان، في كل المحاولات الممكنة تحبيباً وتهديداً وضرباً وشتماً وأية مجاهدة تحلّق على كافة السلبيات والإيجابيات في سبيل حملك على ﴿أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فلتكن مجاهدتك في هذا الميدان ترك طاعتهما كاقل الجهاد، ثم ودعوتهما إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة وجدالهما بالتي هي أحسن كما هي السنة في الدعوة الصالحة، وأنت أولاً وأخيراً عليك كأصل اصيل أن «لا تطعهما» ثم ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ و﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ هي كحجة لترك الطاعة، وهي بصورة عامة: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[2]، وهنا بصورة خاصة من المحال أن يحصل علم بشريك لله تعالى لا فطرياً ولا عقلياً ولا كونياً ولا نقلياً، بل ومربع الأدلة برهان قاطع لا مرد له أن «لا إله إلا هو رب كل شيء» ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إذا فـ ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ برهان قاطع على ضلال الإشراك، حيث لا يبرهنه أيّ علم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾:

﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هنا بطبيعة الحال هم الأئمة القمة في الصلاح حتى يلحق

---

(١) سورة لقمان، الآيتان: ١٤، ١٥.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

بهم كل الذين ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فهم ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[1] و﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الأولين علّهم كل هؤلاء الأربع، وذلك حشر في الحياتين لأولئك المؤمنين على درجاتهم مع الصالحين الأولين من السابقين والمقربين ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَ لَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾:

إن طبيعة الحال لمن يؤمن بالله شاهراً مجاهراً أن يؤذي في الله وفي سبيل الله حيث الناس في الأكثرية الساحقة هم في الحق نسناس، يعارضون شرعة الله في الناس، فالتأذي في الله سنة في هذه الأدنى في الأمثل فالأمثل من المؤمنين بالله، ومما يروى عن رسول الهدى ﷺ: «لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أتت على ثالثة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلّا ما يوارى إبط بلال»[2] «ما أوذي نبي مثل ما أوذيت» هذا! ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ ولـمّا يؤمن بالله أو يرتكن الإيمان في قلبه أم هو منافق كافر في قلبه بالله، وإلّا كان حق التعبير «من يؤمن بالله» لا ﴿مَن يَقُولُ﴾ حيث القول أعم من الواقع، ولا واقع لهكذا قولة يجعل صاحبها الإيذاء في الله كعذاب الله، ويكأن الله يعذب من آمن به، وفتنة الناس حين لا تزوى عن هؤلاء كما عن المؤمنين حقاً، لا يحق أن تنسب إلى الله كأنه يعذب من آمن به حيث لا يدفع عنه الأذى، رغم أنها في

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٤٢ - أخرج أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن ماجه وأبو يعلى وابن حبان وأبو نعيم والبيهقي في شعب الإيمان والضياء عن انس قال قال رسول الله ﷺ . . .

سبيل الله من فتن الإيمان، وأنحس منه أن يجعل الأذية في الله من الله ويكأن الله هو الذي يدفع هؤلاء النحسين لإيذاء من يقول آمنا بالله!. فهؤلاء الذين يقولون آمنا بالله ثم يجعلون فتنة الناس كعذاب الله، لم يؤمنوا، أم هم مؤمنون على حرف: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾(١).

للمؤمن أياً كان، إيذاء في الله كما هنا، وإيذاء في سبيل الله، فمن اجتاز الإيذاء في الله سليماً في إيمانه دون قولة جارفة مجازفة كتلك التي يقولها: ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ فقد يجتاز الإيذاء في سبيل الله مشكوراً محبوراً:

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾(٢).

والتصبر في الإيذاء في الله بحاجة ماسة إلى الجهاد في الله، حتى يهتدي إلى سبل الله والجهاد في سبيل الله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٣). فما لم يستحكم الإيمان في مرحلته الأولى، لم يهتد المؤمن إلى سبل الله، تعرفاً إليها وصموداً فيها أمام عراقيلها والتواءاتها وأذياتها.

فمن ﴿أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ وتصبّر عن حالة مركوسة وقالة منكوسة، ولم يزدد إلّا إيماناً، فهو الذي جاهد في الله فيهتدي - إذاً - إلى سبل الله.

وامّا إذا ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في قال أو حال، فهو المنافق

---

(١) سورة الحج، الآية: ١١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

حقاً، أو لمّا يدخل الإيمان في قلبه: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾(١).

وقد تعني الآية - فقط - المنافقين دون الآخرين، حيث القول ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ في النصر قوله فارغة منافقة، وليست جاهلة من هؤلاء الأعراب، ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم، اللّهم إلّا أن يدّعوه بسذاجة زعم أن إسلامهم إيمان، إلّا أنّ جعل فتنة الناس كعذاب الله لا يلائم أضعف الإسلام، إلا الاستسلام مصلحياً وهو النفاق!.

فكما عذاب الله يتحرز منه، فهؤلاء يتحرزون عن الإيمان حيث يخلّف بزعمهم عذاب الله، وهو ﴿فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ وحياة التكليف كلها فتنة خيراً أو شراً، ومن أصعب الفتن أن يعذب المؤمن في الله حيث يتفلت عنه الإيمان غير الركين ولا المكين، فضلاً عن إسلام النفاق، فالمسلمون هم في حقل الأذية في الله درجات، أعلاهم من يزدادون إيماناً، وأدناهم من يرجعون كفاراً أو أكفر مما كانوا قبل الإيذاء في الله وهو أنزل ودركات الكفر وأنذلها مهما «قالوا آمنا» وبينهما عوان، وما انحسها كتلة البتلة والرياحة والرعونة، حيث تبغي الجمع بين «قالوا آمنا» وألا يؤذى في الله، فيعلن كلمة الإيمان في الرخاء رجاء الأمن المطلق في ظلها دون نصب ولا تعب في الله، يحسبها خفيفة الحمل، هيّنة المؤونة والمسؤولية، قد يبقى على قالته ما أصابه خير، فإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، فاختلّت في نفسه القيم واهتزت العقيدة - إن كانت - ! فهؤلاء ليسوا مع المؤمنين إلّا في النصر والرخاء، دون الحصر والبلاء ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ نصر رباني يخصك كأول العابدين وآخر النبيين ليقولن إنا كنا معكم وهم لم يكونوا معهم في واقع الإيمان، إلّا في قالته القالة الخاوية، وقد تعني المشابهة بين فتنة

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

الناس وعذاب الله فيما عنته، أننا تكفينا فتنة الناس عذاباً هنا عما في الأخرى، فلا نعذّب - إذاً - فيها مهما عصينا، أم قاسوا عذاب الله بفتنة الناس، فلا علينا إذ نعصيه إذ لا تصيبا في الأخرى إلا كالذي أصابنا هنا من فتنة الناس!. وأين فتنة الناس من عذاب الله في أيٍّ من هذه الزوايا الخاوية الغاوية! وقد تعني ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ كل هذه الثلاث، فهي لدركات ثلاث من النفاق، ولكنما الثالث على هامش الأوّلين لمكان ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ دون ﴿عَذَابُ ٱللَّهِ﴾.

﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والواو هنا تعطف إلى محذوف معروف كـ«الم يجعلوا فتنة الناس كعذاب الله، فتركوا الإيمان المدعى إلى الكفر، وتركوا أن يكونوا في الله كيلا تصيبهم فتنة الناس التي حسبوها كعذاب الله، أو تركوا طاعة الله إذ حسبوا فتنة الناس هنا كعذاب الله في الأخرى! ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ﴾ إن لم تكن هذه وتلك ﴿بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذه من الفتن المظهرة لما في الصدور: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾:

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾:

هنا «ليعلمن» كما هناك من العلم العلامة، والإيذاء في الله بفتنة الناس، هو فتنة من الله، إذ لا يصده عمن يقول آمنا بالله، ولا عن المؤمنين بالله، لتظهر علامة الإيمان صموداً وعلامة النفاق خمودا، «ليحق الله الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين» أترى الآية مدنية لأن واقع النفاق كان في المدينة، وأما في مكة فإيمان صارم حيث الجوّ كان جو الضيق والمحنة دون رجاء فيها لأمن وراحة فلماذا - إذاً - إيمان النفاق فيها؟ ولكن النفاق دركات، منها ألّا يرتكن الإيمان في القلب، فيذبل عند الفتنة كما كانت في مكة أشد الفتن للمؤمنين، دون المدينة التي أسست فيها دولة الإسلام.

أو أن الآية تشمل كل دركات النفاق مكية ومدنية أماهيه، إذ لا تختص

بمكان أو زمان خاص بل تحلّق على الطول التاريخي والعرض الجغرافي، عرضاً شاملاً لكل ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ سواء الذين قيل لهم: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾(١) أو الذين أسلموا كرهاً وطمعاً فلما أوذوا في الله جعلوا فتنة الناس كعذاب الله بمختلف الوجوه التي أسلفناها، والدرك الأسفل فيها أن فتنة الناس هي عذاب الله، فهو يعذب الذين قالوا آمناً! ثم ولا تقف الفتنة عند حدّ الميز بين الإيمان والنفاق، بل والمؤمنون غير المنافقين أيضاً يفتنون، لتظهر درجات الإيمان وتنبو وتربوا، كما:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾:

حين يئس الذين كفروا من ارتداد فريق من المؤمنين إذ يؤذون في الله، احتالوا حيلة أخرى هي دعوى حمل خطاياهم: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ تركا لسبيل الإيمان، وليس ذلك خطأ، وحتى لو كان خطأ يحمل خطايا عملية يخلفها ترك الإيمان ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ نفرض على أنفسنا أن نحملها، فأنتم أخفّاء - إذاً - عن أثقالكم «و» الحال انهم ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾ حيث لا تزر وازرة وزر أخرى، وحتى إذا صدقوا في وعدهم فلا يؤذن لهم في ذلك الحمل ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في وعد الحمل ببعديه: فهم كاذبون في حملهم الموعود إن اسطاعوا، ثم هم كاذبون في إمكانية هكذا حمل، فذلك خلاف الواقع في بعدي التصميم حينه وبعد الواقع إذ لن يسمح لهم فيه.

«لنحمل» أمر هم يلزمون به أنفسهم، فهو - إذاً - إخبار ضمني أنهم

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

ملتزمون بما لزموا به أنفسهم، ولكنهم كاذبون في التزامهم نفسياً، ومن ثم خارجياً حتى لو التزموا، إذ ليس الجزاء بكمه وكيفه يوم الجزاء بأيديهم فكل يحمل خطيئة نفسه، دون زيادة ولا نقيصة، مهما كان للمضلّل ضعف العذاب ثانيه لإضلاله كما الأوّل لضلاله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ بما ضلوا ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ بما أضلوا، ولا ينقص أولئك من أثقالهم شيء.

وليست الأثقال الثانية هي نفس أثقال المضلّلين، بل هي أثقال تضليلهم إضافة إلى أثقال ضلالهم، وما اتسع ودام ذلك الضلال بين المضلّلين والذين يتبعونهم كسنة ضالة، فهناك أثقال ثالثة هي مثل أثقال المضللين بذلك الضلال كلهم فـ ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ﴾ أبداً، بل ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ بما أضلوا: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1] فـ «من» هنا جنسية وليست تبعيضية، فهم يحملون مثل أوزارهم جزاءً وفاقاً، قدر ما كانوا معهم بإضلالهم رفاقاً.

وكما يروى عن رسول الهدى ﷺ قوله «أيما داع دعا إلى هدى فاتبع عليه وعمل به فله مثل أجور الذين اتبعوه ولا ينقص أولئك من أجورهم شيئاً وأيما داع دعا إلى ضلالة فاتبع عليها وعمل بها فعليه مثل أوزار الذين اتبعوه ولا ينقص ذلك من أوزارهم شيء»[2].

﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من شركاء لله، وأنه ما أنزل الله من شيء، ولا حياة بعد الموت، وإن كانت فلنا أن نحمل خطايا المضللين، كأنّهم خوّل إليهم أمر الجزاء يوم الجزاء.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٢٥.

(٢) الدر المنثور ٥: ١٤٣ - أخرج عبد بن حمد وابن المنذر عن الحسن إن النبي ﷺ قال: . . . وفيه أخرج أحمد عن حذيفة قال سأل رجل على عهد رسول الله ﷺ فأمسك القوم، ثم إن رجلاً أعطاه فأعطى القوم فقال النبي ﷺ من سن خيراً فاستن به كان له أجره ومن أجور من تبعهم غير منتقص من أجورهم شيئاً ومن سن شراً فاستن به كان عليه وزره ومن أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئاً . .

أقول وهذا المعنى متواتراً عن النبي ﷺ وعن عترته المعصومين عليهم السلام.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا
فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ
وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ
ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا
يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى
ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟
كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾
وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ
جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا
مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم
بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن

نَٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

هنا عرض لنماذج من الفتن التي اعترضت الدعاة الرساليين من لدن نوح وإلى خاتم النبيين صلوات الله عليهم أجمعين، وليعلم الذين قالوا آمنا ان ليس الإيمان رخيصاً دونما فتنة في سبيله، وليتذكر الفريقان مصارع الغابرين والعاقبة الحسنى للمتقين.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾:

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ وطبعاً «قومه» في هذه الرسالة العالمية هم العالمون أجمعون، كما في غيره من أولي العزم الذين دارت عليهم الرحى، فليس قومه - فقط - مواطنوه الخصوص: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامًا﴾ وهو اللبث الرسالي، إذ «فلبث» بعد «أرسلنا»[١] فليس - إذاً - لبثه في

(١) نور الثقلين ٤: ١٥٤ في الاحتجاج للطبرسي عن النبي ﷺ حديث طويل في مكالمة بينه وبين اليهود وفيه قال لهم رسول الله ﷺ لقد أقام نوح في قومه ودعاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ثم وصفهم الله تعالى فقللهم فقال: وما آمن معه إلّا قليل - ولقد تبعني في سنّي القليلة وعمري اليسير ما لم يتبع نوحاً في طول عمره وكبر سنه، وفيه عن كتاب كمال الدين وتمام النعمة عن الباقر عليه السلام: فمكث نوح ألف سنة إلا خمسين عاماً لم يشاركه في نبوته أحد، وفيه عن عيون الأخبار في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من خبر الشامي وما سأل عنه أمير المؤمنين عليه السلام في جامع الكوفة - حديث طويل وفيه: وسأله عن اسم نوح ما كان؟ فقال: اسمه سكن وإنما سمي نوحاً لأنه ناح على قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً.

(١٦) وهي الأعراف - يونس - هود - الأنبياء - المؤمنون - الشعراء - العنكبوت - الصافات - الذاريات - القمر - التحريم - الحاقة - نوح.

كل حياته وعلها آلاف من السنين خلافاً للتوراة القائلة إنها سنّي عمره ككل! ولا نحتمل أن السنة هنا أقل مما نعرفها حيث النص يمانع غيرها، و﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[١]. تجعل السنة أثني عشر شهراً على طول الخط دونما استثناء حتى يعني من السنة غيرها لوقت ما.

وليكن ذلك العمر الطائل نبراساً ينير الدرب على هؤلاء الذين يتشككون ويشكّكون في عمر صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف.

وإذا كان ذلك العمر الطويل لذلك الإيمان القليل: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[٢] فبأحرى لصاحب الأمر عمر أطول ليملأ الله به الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً: وبيمنه رزق الورى وبوجوده ثبتت الأرض والسماء! وقد يعني عرض سنّي الدعوة لنوح عليه السلام تسلية لخاطر الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ألّا يضيق صدره بتعنّد قومه وتعنّتهم ضد الدعوة، ونموذجاً من طول العمر يفتح الطريق لتقبّل طائل العمر لصاحب الأمر، إذ لم يذكر نبي في القرآن بسني رسالته إلا نوح.

ولقد عرضت قصص نوح عليه السلام في معارض ثلاث سورة من القرآن، مختصرة كما هنا وفي غيرها، ومفصلة كما في أخرى، ولم تأت سنّي رسالته إلّا هنا.

ولماذا ﴿خَمْسِينَ عَامًا﴾ استثناء عن «ألف سنة» وهما واحد؟ علّه رعاية لعدم التكرار لفظياً، والتوافق معنوياً، قضية الفصاحة القمة القرآنية، كما وفي الاستثناء حصر يحدّد سنّي الرسالة دون احتمال نقيصة ولا زيادة، ثم هذه الصيغة أجمل من «تسعمأة وخمسين سنة» لفظياً كما هي أكمل منها معنوياً.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٦.
(٢) سورة هود، الآية: ٤٠.

ولقد كان عاقبة أمر قومه اللّد الكافرين المتعنتين ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ بطوفان الظلم، فأخذهم - إذاً - طوفان بطوفان جزاءً وفاقاً.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾:

﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ هم المؤمنون القلة الذين آمنوا معه بين أقارب نسبياً وأغارب، وكيف ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؟

إنها بقصتها المقصوصة في كتابات الوحي وهذا القرآن العظيم، آية للعالمين على مدار الزمن الرسالي منذ نوح إلى خاتم النبيين وإلى يوم الدين، وعلّها كذلك ببعض انقاضها الباقية، المرقوم عليها اسماء الخمسة الطاهرة المحمدية كما فصلناها في «الحاقة» آية حسية مبصرة للعالمين[١].

فضمير التأنيث راجع إلى قصة السفينة وإليها نفسها دونما اختصاص بواحدة دون الأخرى، ومما يدلنا على آيتها الحسية ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[٢] و﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾[٣]

فلا يصغى إلى قبلة القائل من السفارة السوكيتية - بعد ما نشرت المجلات[٤] هذه الآية الإلهية - أنها لا أصل لها، إخفاء للحق الصادر عنهم أنفسهم، وما ذا بعد الحق إلّا الضلال!.

---

(١) ج ٢٩ ص ٩٠ - ٩٤ من الفرقان، وفي الدر المنثور ٦ : ٣٦٠ عن قتادة في الآية قال: عبرة وآية أبقاها الله حتى نظرت إليها هذه الأمة وكم من سفينة غير سفينة نوح صارت رمماً.

(٢) سورة القمر، الآية: ١٥.

(٣) سورة الحاقة، الآية: ١٢.

(٤) نشرته المجلة الروسية الشهرية الصادرة في موسكو تشرين الثاني ١٩٥٣، ومجلة «ويكلي ميرر» الأسبوعية اللندنية العدد الصادر ٢٨ كانون الأول ١٩٥٣، ومجلة «أستار» اللندنية كانون الثاني ١٩٥٤ وجريدة «سنن لايت» الصادرة في مانجستر ٢٣ كانون الثاني ١٩٥٤ وجريدة «ويكلي ميرر» اللندنية في ١ شباط ١٩٥٤ وجريدة «الهدى» القاهرية في ٣٠ مارس ١٩٥٣، ومن مصادره كتاب إيليا من منشورات دار المعارف الاسلامية بلاهور برقم ٤٢ باللغة الأردية.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾:

﴿إِذْ قَالَ﴾ تحدّد قومه المخاطبين هنا بقومهم الحالي الحضور عند قوله، ولأن القالة هذه هي قالة الرسالة الإبراهيمية، فقومه - إذاً - هم قومه الرسالي، فعلى حملة شرعته حملها إلى كافة المكلفين عرض المكان وطول الزمان لهذه الرسالة السامية، وكما هي طبيعة الحال في كل رسالة عالمية لمن دارت عليهم الرحى من أولي العزم من الرسل.

وهذه القالة الإبراهيمية هي القالة الرسالية لكافة المرسلين، وهي الأمر بعبادة الله وحده وتقواه وحده «ذلكم» الله ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ممن سواه في عبادته وتقواه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وتعرفون الحق عن الباطل، و﴿تَعْلَمُونَ﴾ إن الله هو الحق المبين، فمن يعلم انه الله كيف ينحو إلى سواه؟ وأين هنا «وحده» ولا حصر تخص به التقوى والعبودية؟ علّه لأنهم ما كانوا يعبدون الله حتى مع شركائهم زعماً منهم إنه لا يعبد إلّا بشفعاء عنده، فإذا صحت عبادته دون واسطة فقد بطلت عبادة من سواه، معه أولاً معه، حيث الفرع ساقط بوجود الأصل!

أم لأنهم ضروب عدة، منهم هؤلاء الذين يوحدون العبادة لما سواه، فيؤمرون بتحويل عبادتهم إلى الله توحيداً لعبادة الله، ومنهم من يعبدون مع الله سواه، وليست هذه عبادة لائقة لله، فليعبدوه كما تحق وليست إلّا توحيد العبودية له دون سواه! أم أن ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ اثبات لعبادته عقائدية وعملية، ثم ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ نفي لعبادة غيره عملية أو عقائدية، فمن يعبد مع الله سواه لم يتق الله، وتقوى الله تحلّق على كل سلبية تقتضيها عبادة الله، كما أن ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ محلّقة على كل الإيجابيات في عبادة الله، والإيجابية القمة فيها أن يوحّد في عبادته، كما السلبية القمة ألّا يشرك به سواه، إذا فهي صيغة أخرى

عن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ في قالب الأمر والنهي بالترغيب والترهيب! ثم الآية التالية تتكفل صراحاً تلك السلبية الملمحة من ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ بصورة مبرهنة بينة:

﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾:

﴿إِنَّمَا﴾ هنا تحصر عبادتهم في ﴿أَوۡثَٰنٗا﴾ وهي تماثيل خشبية أم حجرية أماهيه من جمادات، مما يبين انهم كانوا - فقط - عبدة الأوثان وهي أنذل العبادات وأرذلها بين كل ما يعبد من دون الله، أن يعدلوا بها عن عبادة الله.

وليس فحسب أن تعبدوها بل ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ خلقاً لما تنحتون، ثم أنتم تعبدون ما تخلقون، وإفكاً فيها انها شفعائهم عند الله، ما نعبدهم إلّا ليقربونا إلى الله زلفى، وأمثالها من مختلفات الزور والغرور التي يخلقونها فيما يعبدون، وماذا يملكون لكم حتى تعبدوهم؟ ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ وأصناماً أم حيواناً وطواغيت أم أياً كان حتى النبيين والملائكة المقربين، والجامع لهم أنهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهم كلهم ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ بل ولأنفسهم ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ أياً كان ﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾ لأنه الله الخالق الرازق ﴿وَٱشۡكُرُواْ﴾ بما يرزق، فانكم ﴿إِلَيۡهِ﴾ لا إلى سواه ﴿تُرۡجَعُونَ﴾، وإن الرزق هو مشغلة النفوس في الأكثرية المطلقة، تعبد من تراه رازقاً، فكيف أنتم تبغون الرزق من دون الله وتتركون الرازق وهو الله، فهو المبدء وهو المنتهى وهو الرازق لكم فيهما وبينهما ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ مما كسبت أيديكم أمّا لم تكسب، و«عند» هنا دون «من» علّها إشارة إلى معدنية الرزق ولد نيته عنده، مهما كانت له أسباب منها يرزق المرزوقون، سواء أكانت اختيارية أم سواها، فليطلب المرتزق الرزق من أي سبب ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا عند سواه.

أمن العقل أن يترك الرازق ويبغى الوسيط أن يطلبه من الله، فتعبدونه حتى يطلب؟ ولا وسيط في طلب الرزق، ولا يملكون هؤلاء طلباً له من الله، ولا أن يعبدوا من دون الله، وحتى لو ملكوا طلباً من الله فعبادتكم إياهم دون الله يقطع عنكم رزق الله وشفاعتهم - المزعومة - عند الله ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ - وهكذا نرى كيف يفنّد أوثانهم في كل زوايا الربوبية، فذاتية أنها «أوثان» لا تعقل، وصفاتية أنها لا تملك لكم من الله شيئاً إلّا أنكم «تخلقون» لها ﴿إِفْكًا﴾ وأفعالية أن ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ أياً كان، والعبادة قد تعني كمال الذات، أم كمال الصفات، أم كمال الأفعال، وهي مسلوبة الكمالات، إذا ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ كله، فما أحمقكم إذ تنحون نحو الفقير اللّاشيء وتتركون رب كل شيء؟! وهنا ندرس أن طلب الرزق عند غير الله كعبادة غير الله إشراك بالله، وإنما علينا أن نتوسل بالأسباب المسموحة لنا في طلب الرزق عند الله، متّكلين في ذلك على الله دون سواه.

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾:

أترى ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟﴾ هي من تتمة الحجة الإبراهيمية؟ ولم تسبقه أمم إلّا أمة نوح! أم هي الحجة القرآنية دون نقل، تلحيقاً للحجة الإبراهيمة للمخاطبين بالقرآن، كما وتؤيدها ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟. . .﴾ بصيغة الغائب؟.

الجمع هو الأرجح، وأمم قبل إبراهيم تشمل أمة نوح ومن قبله من المرسلين كإدريس وآدم وشيث، كما وإن أمة نوح في قرونه العشرة قرون عشرة قد يعبر عنهم بأمم.

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟﴾ قالتي الحقة عن الله وما عند الله فلستم أنتم بدء من المكذبين ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ دون سباق وشطارة لكم بينهم ﴿وَمَا

عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾ تجاهكم ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ عن الله ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ لما أرسل الله ولقد بلغت وأبنت رسالة صادقة من الله و﴿ٱلْمُبِينُ﴾ في مواصفة ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ هي مما تبين أن البلاغ الرسالي لا خفاء فيه ولا إجمال يعتريه، وتأخير البيان عن وقت الحاجة بلاغ غير مبين، فلا يصدّق على الوحي الرسالي إطلاقاً.

هذه خطوات تربوية يخطو بها الداعية إلى هؤلاء الألداء ضد الدعوة، تدخل إلى قلوبهم من مداخلها، بإيقاعات قوية على أوتارها، ودقّات عميقة في أوطارها، كنماذج خلّابة غلّابة يجب أن يتملاها أصحاب الدعوات الرسالية لينسجوا على منوالها في كل أحوالها في مخاطبة النفوس وإزالة النحوس.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾:

الواو هنا تعطف إلى محذوف معروف من الآيات الأنفسية الدالة على وجود الله وتوحيده في كل ربوبيته، وإنكم إليه ترجعون، فإذا لم يروا أنفسية الآيات حيث الأبصار كليلة والنفوس عليلة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا...﴾ إلى آفاقية الآيات: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ على طول الخط هنا في الأولى، و﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ أوّل مرة ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ مرة أخرى في الأخرى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ بدأ وإعادة ﴿قَدِيرٌ﴾.

وعلّ الرؤية الأولى هي - فقط - الرؤية البصرية، أم والبصرية الناتجة عن النظر كما في الثانية: ﴿فَٱنظُرُوا﴾ وهي على أية حال رؤية مستمرة على مدار الحياة العقلية لكل عاقل راء راع في رؤيته تكشّف الحق، و﴿كَيْفَ﴾ لا تعني هنا وفي ﴿فَٱنظُرُوا﴾ حق الكيفية فإنه خاص بالخالق علماً وقدرة في «كيف يبدئ وكيف بدأ»؟ وإنما تعني ظاهراً من البدء والإبداء والإعادة، الباهر

لكلّ راء وناظر، فقد يبدي الله خلق كل شيء من كل شيء - بعد خلق المادة الأم - فإن خلقها بدء صيغته «بدء» كما الثانية، دون «يبدئ» كما هنا، الدالة على الاستمرار، ومن باب الإفعال، فكل ما يخلق من شيء ثم يعاد إلى شيئه الأوّل كالماء والبخار، والتراب والأشجار والحيوان والإنسان، كل ذلك داخلة في نطاق ﴿يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ على مدار الخلق بعد المادة الأولى، والإبداء هو إظهار البدء، كما الإعادة هي إظهار العود، عوداً إلى بدء، فالمادة واحدة وإنما الاختلاف في الصورة الماهوية والظاهرية.

ثم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ كما تعني الإعادة المستمرة كذلك تعني الإعادة الأخيرة يوم القيامة وهي أهون عليه، ثم ﴿كَيْفَ بَدَأَ﴾ دون «أبدء» مختلفة عن «يبدئ» مضياً وتعدية، تدلنا على الفرق الواضح بينهما معنوياً وواقعياً، مهما اشتركا في الخلق والإعادة.

فـ ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ﴾ نظرة أولى تنتج رؤية أولى، مما يطمئن ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾[1] و﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[2] ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الخلق إبداء وإعادة ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ من هيّنه وأهونه، ثم ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ تخط عن هذه المرحلة المستمرة إلى البداية الأولى في خلق المادة الأولية، كما و﴿ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ ترمي إلى النهاية، وهما أهم من ﴿يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ بين الأمرين، فلذلك ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ . . .﴾، فـ «بدء الخلق» هو أهم من ﴿يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ وكل هذه الثلاث من خلق الله، وهي على الترتيب في حدود ذواتها صعب وهيّن وأهون، مهما كانت في قدرة الله على سواء، ولكن يستدل بالأوّل الصعب وبالثاني الهين على الثالث الأهون، ومهما كان الأولان قضية الفضل، فالثالث هو قضية العدل، فهو

(١) سورة البروج، الآية: ١٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

أولى من الأولين بأولويتين، وهنا لك الإعادة بعد الإبداء تشمل كل مراحل الخلق والتحوير أولاً وأخيراً، والإعادة المعاد - وهي إعادة الصورة بمثلها والمادة هي هيه بعينها - هي من ضمن ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ وكخلفيّة لكافة الإعادات، فما إعادة الإنسان إنساناً في الأخرى إلّا كإعادته تراباً كما كان، وإذا كانت هذه في الأولى مصلحية الحياة الدنيا، فالإعادة الأولى في الأخرى أصلح وأولى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1]، وأما ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ فقد تخص الخلق الأوّل لا من شيء، أم وخلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ﴾ الذي بدء الخلق ﴿يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ ككل في كلّ ما بدء، وكخاصة الإنسان وسائر المكلفين، فـ ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[2] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[3] ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾[4]، وذلك الإنشاء إنما هو إنشاء الصور، والمواد هي كما هيه، إنشاء للصورة الإنسانية مثل الأول لا عينه، وإنشاء رجع الروح إلى البدن في صورته المنشأة، وإنشاء لليوم الآخر مكاناً وزماناً آخرين يختلفان عن الأوّل.

كل ذلك لـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ سواء أكان كائناً فيقدر على تحويله أو إعدامه، أم قبل كونه وهو ممكن التكوين وصالحه كالمادة الأوّلية، أم غير صالح التكوين فلا يكوّنه لأنه خلاف الحكمة، وأما الممتنع التكوين ذاتياً فليس شيئاً حتى يبحث عن تعلق القدرة به وعدمه، فإنه اللّاشيء المطلق، كما أن الله هو الشيء الطلق، والأشياء الممكنة التكوين جوهرياً أم ماهوياً هي النسبية في الشيئية، فقد تكون شيئاً لأنها كائنة بما

(١) سورة الواقعة، الآية: ٦٢.
(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٨.
(٣) سورة الروم، الآية: ٢٧.
(٤) سورة النجم، الآية: ٤٧.

كونها، واخرى لأنها قابلة التكوين كالمادة الأولى[١]، وهنا ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ عطف للنظر العقلي إلى بدء الخلق وهو أصعب من الإعادة، والسير في الأرض، وهي هنا أرض التكوين بمختلف الأبعاد الفيزيائية والكيماوية، ينتج أن الكون له بداية، ولا بد للبادئ كون خلاف كون المبدء، لا والد له ولا علة غير إرادية أم محصورة، بل هو خالق خلق الشيء الذي كل الأشياء منه، لا من شيء، لا من شيء ولا من لا شيء، أجل وإن السير في الأرض هنا سير فطري وعقلي وعلمي وحسي، يفتح العين والقلب على كيان الكون، لفتة عميقة إلى حقيقة أنيقة دقيقة حقيقية للالتفات.

صحيح أن جل المخاطبين بهذا القرآن أو كلهم - سوى الرسول ﷺ وأهليه المعصومين عليهم السلام - لم يكونوا ليعرفوا هكذا ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ ولكن الذي يتمشى مع الدعوة القرآنية ككلّ، هو إنه توجيه لكافة المكلفين منذ نزول القرآن إلى يوم الدين، كلّا على قدره، حيث السير في الأرض آفاقياً وأنفسياً، مما يبرهن ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾:

له المشية العادلة فـ ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ والمشية الفاضلة ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ وإليه لا إلى سواه ﴿تُقْلَبُونَ﴾ عن هذه الحياة الدنيا إلى الأخرى، لا فقط قلباً لحياة إلى حياة، بل وقلباً عن ظاهرها إلى باطنها، وعن اختيارها إلى اضطرارها، وعن أعمالها إلى نتائجها، وعن كل ما تتطلبه الأولى، إلى طلبات الأخرى «ولله الآخرة والأولى» - ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[٢].

---

(١) تفصيل البحث عن القدرة مذكور في سورة الملك ج ٢٩ من الفرقان على ضوء آية القدرة.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣٠.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ۝٢٢﴾:

﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ شئتم أم أبيتم إذ أنتم لا تغلبون ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ ربّكم، لا في الأولى ألّا تقلبوا، ولا في الأخرى ألّا تعذبوا، فالأرض والسماء صيغة أخرى عن الكون كله هنا وهناك، فلا تعجزون الله تفلتا عن ملكه: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾[1] ولا تعنّتا عن ملكته وإرادته: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾ يلي أموركم هنا وهناك ﴿وَلَا نَصِيرٖ﴾ ينصركم عن بأس الله.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢٣﴾:

كفراً بآيات الله آفاقية وأنفسية، الدالة على ربوبيته الوحيدة غير الوهيدة ولقاء لثواب الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعيدون عن منافذ المعرفة الربانية ﴿يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ في الدنيا والآخرة، فالمؤمن بآيات الله ولقاءه لا ييأس من رحمة الله ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ هو أبد الخلود في الجحيم.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٢٤﴾:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾ بعد هذه الحجج البالغة ﴿إِلَّآ﴾ جواب كل أحمق نكد: ﴿أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ﴾ بأية قتلة ﴿أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾ وهي شر قتلة، إذ حرق أكبادهم حين كسر أصنامهم، إذا فحرقة بحرقة، ولكن ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ﴾ في ذلك المسرح الخطير قائلاً: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[2].

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٣٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.

هنا ﴿اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وفي أخرى ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾[١] وعلّ الجمع انهم عزموا في البداية على قتلة، ثم على إحراقه لأنه أشد وأنكى، أم كانوا مفترقين بين قتله وحرقه، فتغلبت الفرقة الأخرى، وعلى أية حال عزموا على إحراقه فألقوه في الجحيم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الحجاج، وخلفيّة اللجاج ﴿لَآيَاتٍ﴾ ربانية ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ آية لكون الرب، وآية لكيان الربوبية، وآية للرسالة الصادقة، وآية للعاقبة الصادقة، آيات مع بعض وتلو بعض ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وبآياته ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[٢].

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿وَقَالَ﴾ هنا بعد ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ﴾ تلمح انها قالته لهم بعد نجاته: ﴿إِنَّمَا﴾ ليس إلّا ﴿اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ لا لأنها آلهة من دون الله، ولا أنها شفعاءكم عند الله، ولا أنها تنفعكم إذ تعبدون، أو تضركم إذ لا تعبدون، بل ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهي منصوبة مفعولاً لها، أم وبنزع الخافض بتقدير لام التعليل، إذا فـ ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ سبب وغاية مقصودة في اتخاذ الأوثان.

ثم ﴿بَيْنِكُمْ﴾ قد تعني كل بين في هذا البين: بينكم والأوثان، وبينكم وآباءكم الأقدمين، بينكم ورءوس الإشراك، وبينكم التابعين، حيث تودون الأوثان الذهبية والفضية أماهيه من الجواهر الثمينة وسواها، وتودون آباءكم فتقلدونهم في ذلك الاتخاذ، وتودون زعماءكم فتتبعونهم فيه، وتودون

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٨.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

بعضكم بعضاً وأوثانكم هي صلة المودة والوحدة، وكل ذلك «مودة الحياة الدنيا» فلا اعتقاد هنا ولا اقتناع، وإنما مجاملة ومعاملة دنيوية، بسبب المودة فيها أم لغاية استبقائها أو حصولها، وهذه سنة بئيسة في الجماعات التي لا تأخذ الطقوس العبادية مأخذ الجد العقيدي، وإنما هي مصلحية الحفاظ على صالح الحياة الدنيا دون ان تملك وراءها حقاً صالحاً للإتباع.

ولأنها «مودة الحياة الدنيا» وخلتها ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾(١) - «ثم» بعد مضي الحياة الدنيا ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، فالآلهة تكفر بعبادتهم: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾(٢) ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾(٣).

والمتبوعون: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾(٤).

وكلّ يلعن الآخر وهم زملاء في الإشراك ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾(٥).

ثم ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ عابدين ومعبودين، آباء وأبناء، أتباعاً ومتبوعين، وزملاء في الإشراك، وذلك ثالوث العذاب:

١ - يكفر بعضكم ببعض ويلعن.

٢ - وإن مأواكم النار، وهي مجمع كل الأودّاء في الشرك!

٣ - ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ مما اتخذتم أوثاناً من دون الله وسواها، رغم ما جمعتم من جمعكم في ذلك الإشراك ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.
(٢) سورة مريم، الآية: ٨٢.
(٣) سورة فاطر، الآية: ١٤.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٦٦.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾:

«آمن له» ليست لتعني ما تعنيه «آمن به - آمن معه - آمنه» فكلّ من هذه الأربع تعني ما تخصه من معنى حسب نوعية التعدية كما هي قضية الفصاحة.

ف «آمن به» هي كأصل الإيمان هو الإيمان بالله، وكوسيط هي الإيمان برسول الله، من أمته ككل امة، ومن رسل برسول كمحمد ﷺ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾[1] فليس يؤمن رسول برسول حيث الرسالة هي بنفسها ايمان بالله دون وسيط، اللهم إلّا تجاه محمد وهو رسول الرسل، و«آمنه» جعله في أمن هو خاص بالله وهو ﴿ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ...﴾[2] وهو مجازياً أن تؤمن خائفاً عما يخاف، لا أن تجعله في أمتك كما الله.

و«آمن معه» تعني معية الإيمان بالله كما الإسلام معه ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[3] - ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[4].

و«آمن له» هو إيمان بالله لرسول يدعو إلى الله، إيماناً لصالح الموكب الرسالي أن يصبح من أعواد الرسالة وأعضاد الرسول، بعد ما كان مؤمناً بالله، وهكذا كان لوط عليه السلام مؤمناً بالله، وبعد أن تعرّف إلى الرسالة القمة لإبراهيم الخليل آمن له احتساباً لنفسه بإيمانه السابق من ذلك الموكب الرسالي السامي، كما ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾[5] بعدما ربطوا إيمانهم هذا بأن يروا الله جهرة: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[6].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٢٣.
(٣) سورة النمل، الآية: ٤٤.
(٤) سورة هود، الآية: ٤٠.
(٥) سورة يونس، الآية: ٨٣.
(٦) سورة البقرة، الآيتان: ٥٥، ٥٦.

فقد كانوا مؤمنين بالله غير مؤمنين لرسول الله موسى، ولا مصدقين في الطور أن الله هو الذي يكلمه حتى يروه جهرة يكلمه فحصل ما حصل.

وهذه الذرية هي المؤمنة من قبل بالله، وهنا آمنوا لموسى أن انضموا إلى موكبه الرسالي، وهنا تنحل المشكلة العضال في إيمان لوط، أن كيف أرسل مع إبراهيم وكان مشركاً من ذي قبل؟ فإنما أرسل معه بعدما آمن معه وكان مؤمناً بالله! «وقال» علّه لوط ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ مهاجرك، أم إنه إبراهيم نفسه كما في أخرى: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[1] ولأن كل رسول مهاجر إلى ربه في رسالته بل وكل مؤمن، فقد تعني «فقال» لوطاً وإبراهيم، ولكنه مهاجر مع إبراهيم كما آمن معه، مهاجرة بمعيته كرسالته معه دونما انفصالية في ذلك المثلث البارع، إيماناً ورسالة ومهاجرة إلى ربه في سبيل تحقيق الإيمان الرسالي والرسالة الإيمانية، وعلى حد المروي عن الرسول ﷺ «سيهاجر خيار أهل الأرض هجرة بعد هجرة إلى مهاجر إبراهيم عليه السلام»[2].

إن المهاجرة الإبراهيمية ما كانت فحسب عن وطنه إلى غيره، بل انها مهاجرة عمن سوى الله بكل كيانه، ومنها مهاجرة قومه بعد أن لم يبق له رجاء أن يفيئوا إلى الهدى على أية حال، ولقد عوضه الله عن هذه المهاجرة الرسالية، ذرية تمضي فيها رسالات الله منذ إسماعيل وإسحاق ويعقوب وإلى كل الرسل الإسرائيليين وخاتم المرسلين، وهنا المذكورون هم الأوّلون في آيات عدة ثم الرسول محمد ﷺ: ﴿اتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ...﴾[3]:

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٩٩.
(٢) الدر المنثور ٥: ١٤٤ - أخرج ابن عساكر عن ابن عمران النبي ﷺ قال:...
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

وهبة ربانية منقطعة النظير ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ ومن المذكورين هنا صراحاً ﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وبأحرى إسماعيل جد الرسول محمد ﷺ وهو بكر ذريته كما هو صراح آيات أخرى، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ في نصرة رسالية مستمرة فيه وفي ذريته الرسل ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ السابقين والمقربين منذ آدم إلى خاتم النبيين صلوات الله عليهم أجمعين.



﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا
مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ
ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ
إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ
رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ
بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ
ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ
لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن
جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا
تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾
إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ
يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٣٥﴾
وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ
ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ
ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد
تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ
فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ
وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ

سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾:

لقد كانت فاحشة اللواط في قومه لحدّ تطلبت النهي والتنديد في بازغ الرسالة قبل النهي عن الإشراك بالله، وكما نراه في كل الآيات التي تذكر رسالة لوط عليه السلام.

و﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ هي كل معصية متجاوزة حدها كماً أو كيفاً أو فيهما، تجاوزاً حد العصيان أم إلى غير العاصي أم فيهما، واللواط بينهم كان فاحشة ككلّ، إذ أصبح سنة فيهم مستمرة متداولة، و﴿مَا سَبَقَكُم﴾ ليست في أصل اللواط، بل في السباق فيه والهرعة الجماهيرية إليه، و﴿أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تعني عالم الإنس والجن وسواهما من المكلفين، لا كأفراد، بل جماعات وكتلات، فاحشة منقطعة النظير هكذا بين العالمين.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

إتيان الرجال هنا معروف أنه اللواط، فأمّا ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ الواقعة بين إتيان الرجال وإتيان المنكر الذي يشمله وسواه، هذا قد يعني كل سبيل مأمور بسلوكه ومنها سبيل تشكيل العائلة، فإتيان الرجال أحياناً قطع أحياني

لهذه السبيل، وأما إتيانهم كعادة مستمرة منحصرة في شهوة الجنس، فهو قطع باتّ لسبيل الإيلاد، فقد كان فاحشة متجاوزة إلى هذه السبيل، قاطعة لها عن بكرتها، مما يضخِّم بُعد الفاحشة لأبعد الحدود، ثم و﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ ومنه منكر اللواط يجعله في ثالوث منحوس ما أنحسه: لواط يُقطع به سبيل الإيلاد ويؤتى به في النادي المجتمع.

ثم من السبيل هي سبيل المارة قطع السَلَب للأموال والأعراض، وقطع الإستجلاب للفاحشة، كما من المنكر كل المنكرات القرينة لهذه الفاحشة المعلنة الجماهيرية من رقص وموسيقا وميسر وخمر واضرابها من منكر.

فالزنا على فحشاءها لا تقطع السبيل كأصل قاطع، إذ قد يجتمع مع الإيلاد السفاح الإيلاد من النكاح، أم وإذا اختص بالسفاح فليس قطعاً إلا لسبيل الحل من الإيلاد دون قطع قاحل يجتثّ النسل عن بكرته.

ولكن تعوُّد اللواط يقطع سبيل الإيلاد، وسبيل تأسيس العائلة عن بكرته، هدراً لنطف الرجال دون أي انتاج، إذاً فهو أفحش من الزنا، كما وحدّه أحدّ منها، وقد أمطرت قوم لوط بحجارة من سجيل: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾[1].

واللواط تخلّف قاحل عن الفطرة، فقد تفسد الفطرة بتجاوز حد الاعتدال مع المرأة فهي فاحشة داخلة في نطاق الفطرة مهما تخلفت فيها عن الشرعة، وأما اللواط فهو انخلاع عن شرعة الفطرة وشرعة الدين معاً، وفساد في التركيب العضوي، تخلفا عن خط الحياة الجنسية عن بكرتها.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ﴾ قولة التحدي السافر الساخر ﴿أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الذي تعدنا ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك تبجحاً في وجه الإنذار، ما لا ينتظر فيه أوبة ف:

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٣٢، ٣٣.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٣٠﴾:

وهي قالة الإستنصار في حالة الاضطرار وقد استضعفوه، فلا دواء لدائهم إلّا الكي، نصرة على كفرهم وتحديهم الساخر أن يسخر منهم عذاب الله، فإذا هو ببشرى العذاب:

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۝٣١﴾:

جيئة مبشّرة إلى إبراهيم لأنه الذي تدور عليه رحى هذه الرسالة، وما لوط إلّا فرعاً منها في قضاء سدوم، وقد برهنوا إهلاكهم لهم بأنهم كانوا ظالمين، مستمرين في ظلمهم المتهتك لكل ستر رباني على الحرمات، ظلماً بالرسول وظلماً بالرسالة، ظلماً بالفطرة وظلماً بالإنسانية ككل.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝٣٢﴾:

﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾ إخبار في تساءل حياطة على حياته، واطمئناناً بنجاته، وهم طمأنوه بنجاته وأهله إلّا امرأته إذ كانت من الغابرين.

وقد يعني من ذلك الاستعفاء عن قوم لوط لكرامته وهو فيهم كما في هود ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ۝٧٤ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ۝٧٥ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ۝٧٦﴾[1] فـ «لا أعلم هذا القول إلا وهو يستبقيهم. . .»[2].

---

(١) سورة هود، الآيات: ٧٤-٧٦.

(٢) نور الثقلين ٤ : ١٥٧ في الكافي بسند عن أبي زيد الحماد عن أبي عبد الله عليه السلام في تفصيل القصة فقال لهم ابراهيم: لما ذا جئتم؟ قالوا في إهلاك قوم لوط، فقال لهم: إن كان فيها مائة من المؤمنين أتهلكونهم؟ فقال جبرئيل عليه السلام : لا - قال: فإن كان فيها خمسون؟ قال: لا - قال: فإن كان فيها ثلاثون؟ قال: لا - قال: فإن كان فيها عشرون؟ قال: لا - قال: فإن كان =

والغابر هو الماكث بعد مضي ما هو معه، إذ مكثت في الظلم مع ما مضى عليها من عمر طائل وما معها من جو الوحي والتنزيل، وذلك مما يضخّم الجريمة، إذاً فهي من الغابرين في العذاب إذ كانت من الغابرين في سبب العذاب.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾:

ولماذا ﴿سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ وهم رسل الله، حاملين بشارة العذاب من الله؟ لأنه ما عرفهم إلّا أنهم شباب صباح ملاح، وهو يعلم شنشنة قومه، فجيئتهم إليه - إذاً - جيئة فجيعة خوفة من قومه المجرمين:

وإلى مَ تعطف ﴿وَقَالُوا۟﴾ وهي استئناف لقولهم هنا؟ إنها عطف على محذوف من قولهم معروف من هود:

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾[1]

= فيها عشرة؟ قال: لا - قال: فإن كان فيها خمسة؟ قال: لا - قال: فإن كان فيها واحد؟ قال: لا - قال: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢] قال الحسن بن علي عليه السلام: لا اعلم هذا القول إلا وهو يستبقيهم وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤].

(١) سورة هود، الآيات: ٧٧-٨٣.

ولماذا أصاب امرأته ما أصابهم ولم تكن فاعلة فحشاءهم؟ لأن الدال على الشر كفاعله، وقد كانت تدلهم على ضيوف لوط وسواهم، اضافة إلى كونها مشركة فاستحقت ما استحقوه.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

وذلك الرجز هو حجارة من طين، مسومة عند ربك للمجرمين كما فصلت في هود وسواها.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

و﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ من قرية سدوم، تبيّن أنها كانت حتى زمن نزول القرآن بيّنة ظاهرة للمارة كما ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾[(١)] ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾[(٢)] ولكنها اليوم مجهولة لا أثر عنها معروفاً، وعلّها غمرت في بحر لوط، ولا يعني تركها أنها متروكة للناظرين مع الأبد.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿أَخَاهُمْ﴾ هنا قد تعني أخوّة النسب أو السبب إلى جانب الأخوة المواطنية والإنسانية، إشارة إلى أنه كان عشيرهم عمراً من قبله، معروفاً عندهم بالأمانة والصلاح، مما تزيد حجة الآية الرسالية نصوعاً ونضوحاً.

وحصيلة دعوته الرسالية هي عبادة الله لا سواه ورجاء اليوم الآخر على ضوء الإيمان، ثم ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أياً كان الإفساد فيها وأيّان،

(١) سورة الحجر، الآية: ٧٦.

(٢) سورة الصافات، الآيتان: ١٣٧، ١٣٨.

والعمدة في إفسادهم بعد العقيدي منه هو البخس في المكيال والميزان، إفساداً اقتصادياً تتهدم به العيشة الجماعية، خلقاً للطبقية العارمة الظالمة، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ بديارهم ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾: قاعدين باركين على الأرض ميتين.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

وليس فقط يزين سوء الأعمال فيرونها حسناً، بل وحسنها حيث يزينها لهم أكثر مما هي، فيغترون بها ولا يبالون بما يعتريهم من سوء: «ولا يغرنك تزيينه الطاعات عليك فإنه يفتح لك تسعة وتسعين باباً من الخير ليظفر بك عند تمام المأة، فقابله بالخلاف والصد عن سبيله والمصادة باستهوائه»[1].

فكلما يزينه الشيطان من أعمال خيرة وشريرة، هي ذريعة للصد عن السبيل، فحذار حذار من تزيينه وتسويله كيلا تقعوا في فخه وأنتم تحسبون انكم تحسنون صنعاً وأنتم مستبصرون تطلبون البصيرة، وتعمى عليكم المسالك بما زيّن لكم الشيطان أعمالكم، فأنتم - إذاً - من الأخسرين أعمالاً ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[2].

وقد تعني ﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أن عاداً وثمود كانوا قبل أن ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ كانوا على بصارة وهدى فطرية وعقلية، أم وشرعية، إلّا أنها ما كانت ناضجة قويمة، وعلى أية حال فمسرح التزيين من الشيطان خطير خطير، لا ينجو منه إلّا من عصمه الله وهداه، وهو التارك هواه إلى هداه إلى الله ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

---

(١) مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام بعد أن ذكر الشيطان: . . .
(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠١.

﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾:

ذلك الثالوث المنحوس، القارونية الفرعونية الهامانية ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كلّ على حدّه ومدّه، استكبار الثراء والسلطة الملكية والوزارة الفرعونية، ولكنهم مهما زمّروا وأبرقوا وأرعدوا وعربدوا ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ﴾ على مشيئة الله:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

﴿فَكُلًّا﴾ من هؤلاء واضرابهم في الاستكبار ﴿أَخَذْنَا﴾ ـه ﴿بِذَنۢبِهِۦ﴾ هنا، وأخذهم في الأخرى أخزى ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ وهم قوم لوط: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾[(١)] فالحاصب - إذاً - حجارة من طين ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ ومنهم ثمود ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾[(٢)] ومنهم عاد: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾[(٣)] ومنهم أصحاب ياسين بانطاكية إذ كذبوا المرسلين: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ﴾[(٤)] ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كقارون ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾[(٥)] ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقوم نوح وفرعون.

---

(١) سورة القمر، الآية: ٣٤.
(٢) سورة القمر، الآية: ٣١.
(٣) سورة هود، الآية: ٩٤.
(٤) سورة يس، الآية: ٢٩.
(٥) سورة القصص، الآية: ٨١.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بما أخذهم بذنوبهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لم يظلمهم الله ولا هم ظلموا الله وإنما ظلموا أنفسهم بما استكبروا فأخذوا هنا اخذة طفيفة بما ظلموا.

وهذه العذابات الأربع: بالصيحة وهي هواء متموج سريعة الإيقاع، قرعاً للآذان وإلى الأعماق، وبالحاصب: حجارة من طين تتبدل ناراً بسرعة الإرسال، وبالخسف: غمراً في التراب، وبالإغراق في الماء، هذه هي العناصر المخلوق منها الإنسان وهي الأربعة الشهيرة مهما كانت كل واحدة تشتمل على جزئيات وذرات، فقد أخذوا عذاباً بما خلقوا من رحمة، وما عذابهم إلّا صورة واقعية من اعمالهم فـ ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]؟

فهؤلاء هم الذين اتخذوا من دون الله أولياء، أصناماً وأوثاناً وطواغيت، وإليكم مثلاً واحداً في هوانهم هو العنكبوت، فكما بيته أوهن البيوت كذلك بيوت الإشراك أياً كانت هي كبيت العنكبوت:

(١) سورة النمل، الآية: ٩٠.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ
ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ
يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ
إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ
إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ
وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ
إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ
إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن
يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن
قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ
ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلْ إِنَّمَا
ٱلْأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا
عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًاۖ يَعْلَمُ مَا فِي

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ

جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٦٩)﴾

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (٤١)﴾:

كل بيت إنما يتخذ للرياحة بيتوتة وسواها، آوياً أم ثاوياً، فالبيت ملجأ ومأوى ومثوى، وهنا مثل المشركين بالله كمثل العنكبوت، ومثل تولّيهم من دون الله مثل بيت العنكبوت، وكما ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ كذلك أوهن الأولياء هم الأولياء من دون الله ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ وللعنكبوت فضلها عليهم إذ يعبد الله ولا تتخذ بيتاً كولي من دون الله، فأين - إذاً - بيت من بيت وثاو من ثاو، والمرغوب من المثل ليس إلّا البعض في الممثل به وهو هنا الوهن.

فكل خط أو خيط سوى خيط الله وخطه هو كخيط العنكبوت، لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضراً، اللهم إلّا مكيدة الاصطياد لبعض الحشرات طعمة للعنكبوت، وكما يصطاد الذين يدعون من دون الله ضعفاء العقول.

وكما لا يحصل للعنكبوت أي حاصل من بيته كبيت كذلك لأمثاله من الذين يدعون من دون الله لا يحصل أي حاصل من ولاية، بل هم خاسرون مهما لم يخسر العنكبوت من بيته! فالولاية حقها إنما هي لله ليست لسواه، لا تكوينية ولا تشريعية، إلّا ولاية شرعية فرعية كما يأذن الله لحملة شرعته إلى العالمين، ف ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ ليسوا هم فقط عبدة الأوثان والطواغيت، بل وعبدة الملائكة والنبيين وسائر الأولياء المكرمين، لا فحسب بل والمسلمون الذين اتخذوا النبي أو الولي ولياً من دون الله، وكالة أو نيابة عن الله، أم مستقلاً بجنب الله، كل أولاء مثلهم ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾

مهما اختلفت دركات ذلك الاتخاذ إلحاداً في الولاية أو إشراكاً قل أو كثر، إذ لا ولي إلّا الله، أم من ولّاه الله حملاً لشرعته، لا تكوينية ولا تشريعية، قوة الله هي وحدها القوة، وولايته هي وحدها الولاية، وما عداها واهن ضئيل، مهما خيّل إلى الهائمين في سائر القوات والولايات أنها قوة أو ولاية، فهي كبيت العنكبوت، حشرة ضعيفة ضئيلة، واهنة رخوة، لا حماية لها من تكوينها ولا وقاية لها من بيتها الأوهن ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ تلك المماثلة الماثلة بين أيديهم، و«لو» هنا تحيل لهم ذلك العلم لعمق التجاهل وحمق التساهل، فامتناع علمهم هذا مسنود إلى تقصيرهم المختار والامتناع بالاختيار لا ينافي الإختيار. وهل في الحق إن بيت العنكبوت أوهن البيوت على الإطلاق، وحتى من بيوت الجراثيم غير المرئية بالعيون غير المسلحة؟ علّه نعم سناداً إلى عموم «البيوت» وعلّه لا حيث «البيوت» هنا هي التي ترى، متناولة لكل راء، دون ما لا ترى.

فأمثل الأمثال فيما يرى للذين اتخذوا من دون الله أولياء هو العنكبوت اتخذت بيتاً، وإن حياة العنكبوت العجيبة، المنضدة المنظمة، مما تجلب النظر وتجذب إلى الله الذي خلقها، ولا يعني ذلك المثل تنديداً بالعنكبوت وبيته، بل القصد فقط تنظير ما يتخذ من دون الله من أولياء في وهنه ببيت العنكبوت، وأما هو كخلق مما خلق الله، بالغريزة البارعة في نسج بيته، هو في ذلك الحقل من آيات الله البينات الدالة على كمال قدرته.

نسوج العناكب:

فمما تحير العقول وتقنعها باستحالة الصدف في الخلق نسوج العناكب، فدقة التنظيم والترتيب التي كشف عنها أبحاث العلم الحديث في ميادين عديدة تدعو للعجب والتأمل والتفكر، فقد كشف بعض العلماء الآلمان عن أن بعض العناكب تنسج خيوطاً دقيقة جداً، إذ إنها تنسج بيوتها من خيوط،

كل خيط منها مؤلف من أربعة خيوط أدق منه، وكل واحدة من هذه الخيوط الأربعة مؤلف من ألف خيط، وكل واحد من الألف يخرج من قناة خاصة في جسم العنكبوت وهذا يعني أن كل خيط ينقسم إلى (٤×١٠٠٠=٤٠٠٠) خيطاً.

وذكر بعض العلماء الآلمان الباحثين في هذا الميدان: أنه إذا ضمّ أربعة بلايين خيط (٠٠٠ و٠٠٠ و٤٠٠٠) بعضها إلى بعض، لم تكن أغلظ من شعرة واحدة من شعر لحيته، مع العلم إن متوسط شعر اللحية لا يتجاوز ١ و٠ ميلى متراً وبذلك فإن قطر مقطع الخيط الذي تنسجه العنكبوت يساوي (١) على (٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٤٠) من الميليمتر وإن الكيفية التي خلق الله بها في جسم العنكبوت ألف ثقب يخرج منها ألف خيط في آن واحد، حيث يخرج الخيط الدقيق فيجتمع كلّ ألف خيط في خيط أغلظ، ومن الخيوط الجديدة وتتجمع كل أربعة سوية لتشكيل خيط أكبر، وهكذا تتجمع الخيوط لتنشئ مسكناً ومصيدة للعنكبوت، وإنها لتدعو العاقل والعالم والمؤمن إلى التفكير في عظمة الخالق، وهذا ما يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ وقد أثبت البحث العلمي من تحليل وتجزئة حقيقية وهن بيت العنكبوت، فقد جاوزت خيوط العنبكوت الحدّ المعروف في الدقة وتناهت في التجزئة وجاءت برهاناً ساطعاً على النظام البديع والإتقان الفائق للصنعة الإلهية[1] كما جاءت مثلاً يندد بالذين يدعون من دون الله أولياء.

ترى هنالك خيوطاً متينة بشبكات محكمة الوضع هندسية الشكل، لحد لو اجتمع كل نساج وغزال في الدنيا وقوبلت صناعتهم بصناعات العنكبوت لفاق هذا الحيوان كل غزال من الإنسان.

(١) يوسف مروة اللبناني في كتابه: العلوم الطبيعية في القرآن.

ومادة هذه الخيوط خفيفة الوزن للغاية، فرطل منها يكفي ان تطوّق به الكرة الأرضية كلها!

العنكبوت البناء:

كل عنكبوت في الدنيا غزّال ونسّاج، وبعض أنواعها تبني منازل يشاهدها الناس في أماكن كثيرة بحجم (الكستبان) يقفلها من الداخل بقفل لم يقف على كنهه أحد من علماء الحشرات، حتى يأمن من دخول كل عدو مهاجم أو سارق، سبحان الخلاق العظيم!

عناكب البساتين:

وهنا نوع من العناكب تسكن البساتين، فتضطر إلى الانتقال من شجرة إلى أخرى ومن غصن منها إلى آخر، ولتسهيل التنقّل تبني قنطرة بين الشجرتين، أو ممشى بين الغصنين، هي خيط واحد يخرج من فمه من لعابه، إذا لامس الهواء جمد، فيمتد فيه بعد تثبيت أحد طرفيه ولا يزال الطرف الآخر يغدو ويجيء حتى يمسك بورقة أو غصن فتمر عليه العنكبوت، وبذلك تسهل المواصلات وتنجو من الخطرات والمفاجآت(١).

---

(١) ومن ذلك ما حكي أنه وضعت عنكبوت على عود في ماء قريب من شاطئ جزيرة فنزلت من أعلى العود إلى أسفله فوجدت الماء محيطاً بها فرجعت إلى أعلى ثم أخذت تفكر في حيلة تهتدي بها إلى النجاة فغزلت خيطاً وأثبتت أحد طرفيه في رأس العود ولا زال الطرف يغدو ويروح حتى أمسكت بغصن من الشاطئ الآخر فسارت عليه حتى نجت سالمة.
وهذا النوع البستاني من العناكب تنسج على الأغصان والأوراق شبكة عجيبة تقتنص بها الذباب وغيرها، فتتخذ بها مركزاً تقيم فيه وتمد خيوطها إلى جميع الجوانب، فشكل أطرافها محيط ذلك على الأوراق والأغصان، وتلك الخيوط أقطارها والعنكبوت رسامها وغازلها وناسجها ومهندسها والصائد بها، وما أشبه تلك الخيوط بأعمدة العجلة (البسكليت) فإذا حكمت تلك الأعمدة بخيوطها المجدولة أخذت العنكبوت تجدل خيوطاً اخرى فأدارتها على هذه وربطتها ربطاً وثيقاً محكماً عليها مع التناسب في الوضع والإحكام والهندسة بحيث ترى=

إن العناكب - ككل - تنسج نسجها بمؤخر أرجلها دون حاجة إلى النظر بعينها فإذا قطعت خيطانها قبل الغروب ثم نظرت لها عند شروق الشمس في اليوم الثاني رأيت شبكتها منسوجة كما كانت، وهي تأتي بقطع صغيرة من الأحجار والخشب فتضعها على نسجها حفاظاً له من التكسر وإطاعة الرياح الهابّة والأعاصير والزعازع، وإنها تبحث عن صمغ وغراء من أماكنها في أشجارها وتلطّخ بها خيطانها وشبكتها لتكسبها لزوجة فلا تتمزق إذا فاجأتها الرياح وهاجت عليها الأعاصير، وإذا مر بها الذباب التقطته بمادتها اللزوجة ولم يؤثر على الشبكة حركتها[1]، ذلك طرف من إتقان العنكبوت في هندسة بيتها على أنه أوهن البيوت، وضرب المثل هنا جاء من واجهة وهنه دون إتقانه، وإذا كان أوهن البيوت المبنية بالغريزة الحيوانية بذلك الإتقان فكيف يكون - إذاً - أقوى البيوت؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

ولأنه يعلم تماماً ما يدعون من دونه من شيء، فإنه هو الذي خلقها، لذلك يحكم أنها كبيت العنكبوت أوهن البيوت، لا وهنا في خلقه كفعله تعالى، وإنما وهنا لكل مخلوق أمام الخالق العزيز الحكيم، مهما كان من الإتقان ما يحير العقول.

و«ما» هنا تحتمل انها موصولة أو استفهامية أو مصدرية أو نافية، ولكن

= بين كل خيطين من تلك الأعمدة وآخرين من الملتف عليها مسافات متساويات هندسية ومنها تكون شبكة للصيد عجيبة الصنع جميلة الوضع، وهذه الشبكة قلدها الإنسان في صيد السمك للقوت وفي صنع زينة منسوجة من الحرير منقوشة مرصعة بالحلي اهتدى لها الإنسان المتمدن بعد الآلاف من السنين تفتخر به الفتيات الأفرنجيات في إتقان الصنعة وحسنها (تفسير الجواهر للشيخ الطنطاوي ١٤: ١٤٣ - ١٤٤).

(١) المصدر ناقلاً عن كتابه جمال العالم.

«من» تنفي كونها نافية إلّا إذا كانت زائدة ولا زائدة في القرآن بلا عائدة، وحتى إذا كانت للتأكيد فالمعنى أن الله يعلم انهم لا يدعون من دونه شيئاً أبداً، رغم أنهم يدعون من دونه كل شيء حتى الموحدين غير الحقيقيين فضلاً عن الملحدين والمشركين.

ثم الثلاثة الأول قد تكون كلها معنية، فهو يعلم الذي يدعون من دونه من شيء، ويعلم ماذا يدعون.. ويعلم الدعوة من دونه، علماً شاملاً لا يبقي كائناً ولا يذر إلّا ويشمله بكمه وكيفه، بزمانه ومكانه، بكونه وكيانه، وذلك قضية عزته وحكمة ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ وقد يعني النفي في «ما» بتأكيد «من» إنه يعلم أنهم لا يدعون من دونه من شيء، إنه ليس شيئاً يدعى من دون الله، فإن شيئيتها ليست إلّا عارية من الله دونما استقلال فكيف تدعى من دون الله، وهذا وإن كان في نفسه صحيحاً ولكن الصيغة الصالحة له صحيحة فصيحة هي «يعلم إنهم لا يدعون من دونه من شيء» إلّا إن عنايتها ضمن الثلاثة الأولى لا بأس بها، فعلّ الأربعة كلها معنية، ويا لها من جماع العلم المحيط لله ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[1].

وإن الأمثال المضروبة للناس في هذا القرآن بالغة لحدّ من التمثيل منقطع المثيل أنها ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ فرغم أن جماعة من المشركين المجاهيل يتخذونها مادة للسخرية والتهكم قائلين: إن رب محمد يتحدث عن الذباب والبعوضة والنحل والعنكبوت، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا...﴾[2].

فالعالمون هناك هم المؤمنون هنا، كما الذين لا يعلمون في آيات عدة

(١) سورة يونس، الآية: ١٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦.

هم الذين كفروا، فالإيمان بالله يزيل الأغشية عن الأبصار والبصائر فأصحابها يعقلون تلك الأمثال الحكيمة القرآنية، كما والعالمون العلوم التجريبية يعقلون، فإن كانوا مؤمنين فأحرى وأكثر، وإن كانوا كافرين فقد يهتدون بها إن أرادوا الهدى، حيث العلم بنفسه طريق الهدى إذا لم تخلطه الردى.

والعقل الحرّ أياً كان يعقل هذه الأمثال مهما كان مجرداً عن علم الإيمان وسائر العلم، إذا فالعقلية الإيمانية، ثم العلمية، ثم العقلية المجردة، هي شركاء ثلاثة في أن تعقل هذه الأمثال دون اختصاص بعقلية الإيمان، وإلّا لم تعد هذه الأمثال تنفع غير المؤمنين، والذين اتخذوا من دون الله أولياء هم الموجّه لهم في الأصل ذلك المثل الأمثل، تحريضاً لهم أن يعلموا الحق منه ومن أمثاله بالتعقل، وما القولة الكافرة ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ﴾[١] إلّا جاهلة تخالف العقل.

فالأمثال المضروبة في القرآن، فضلاً عن حقائقه المجردة، إنما تعقل بالعلم على درجاته، علم الفطرة والعقل والإيمان وسائر العلم الذي به تكشف الحقائق حسب درجات الفاعليات والقابليات، فالعلم أياً كان مستخدم لعقل الحقائق، كلما ازداد عقلها فالإيمان بها، فتلك الأمثال ليست مجرد تمثيلات شعرية ودعاوى خاوية، بل هي حجج بدورها توضّح الحقائق البعيدة عن العقول.

ولأن التفكر والتذكر هما من شؤون العقل والعلم: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٢] ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣] فالعالمون - إذاً - هم الذي يتفكرون ويتذكرون، علماً فتفكراً

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٥.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٢١.

فعقلاً فتذكراً فإيماناً! وعلى حد تعبير الرسول ﷺ «العالم الذي عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه»[١].

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿خَلَقَ﴾ - ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ - ﴿ٱللَّهُ﴾ - ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ - ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ - ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ - فـ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ لها هنا تعلقات ثلاث، والباء فيها بين سببية وغائية ومصاحبة، فما السبب والغاية في خلقهما إلا الحق، دون باطل هازل، وما هما في خلقهما إلّا مصاحبتين للحق.

فحق الخلق فيهما مصاحباً اتقاناً ونظاماً بارعاً وتصميماً حكيماً قاصداً دون تفاوت: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[٢] ذلك دليل أن خالقهما واحد عزيز حكيم.

وحق الخلق فيهما سبباً وغاية دليل حياتنا الحساب بعد الموت، فإن هذه الضئيلة القليلة، الفانية الهزيلة، البالية البلية، هذه لا تستحق ذلك الخلق الطائل الحكيم: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾[٣].

كما وحق الخلق لهما كخلق ينفي الولاية عنهما وما فيهما وما بينهما كخلق، فأين الخلق والولاية الخاصة بالخالق في الآخرة والأولى «ولله الآخرة والأولى»؟! إذاً ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ التوحيد والمعاد والولاية ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولماذا فقط ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وكافة المكلفين يكلفون بالنظر فيهما حتى يعرفوا حق المبدء والمعاد؟ «المؤمنين» هنا هم الذين يؤمنون بالآيات

(١) المجمع روى الواحد بالإسناد عن جابر قال: تلا النبي ﷺ هذه الآية وقال: . . .
(٢) سورة الملك، الآية: ٣.
(٣) سورة الدخان، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

البينات، فمن الناس من يؤمن بها مهما كان ملحداً أو مشركاً، إذ بقيت له منافذ المعرفة، وهو يتحرى عن الحق المبين، فهم من المعنيين مع سائر المؤمنين المتفتحة قلوبهم لآيات الله الهية وأنفسية، المبثوثة في تضاعيف ذلك الكون البارع وحناياه، المشهودة في تنظيمه وتنسيقه، المنشورة المنثورة في جوانبه حيثما امتدت الأبصار ومدت البصائر والأفكار، ومنهم من يجحد بها مهما كان مدعياً للإيمان، فهم ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] - ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ المتعنتون المتعندون الذين ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[2]!

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

هنا الرسول ﷺ يؤمر - بعد عرض مسارح الغابرين ومصارعهم - أن يتلو ما أوحي إليه من الكتاب ويقيم الصلاة، معللة بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتأكيداً أن ذكر الله أكبر ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ إزاحة لما تخالجه من صعوبات الدعوة لقوم لدّ، فما هي تلاوة الكتاب؟ وما هو نهى الصلاة، وما هو هنا ذكر الله، ومم هو أكبر؟

التلاوة ليست هي - فقط - القراءة، بل هي - ككل - متابعة الشيء أن يجعله أمامه وإمامه، فهو يكون تابعه وخلفه كما ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾﴾[3] ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[4] حيث القمر لا يقرء الشمس، وشاهد من الرسول ﷺ لا يقرأه، وإنما هي متابعة المأموم إمامه، أن

(١) سورة البقرة، الآية: ٦.
(٢) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٣) سورة الشمس، الآيتان: ١، ٢.
(٤) سورة هود، الآية: ١٧.

يجعله أمامه في كل الحقول والحالات أم في قسم منها مقسّم حسب قضية الائتمام والإمامة.

فـ ﴿أَتْلُ﴾ هنا دون «واتل عليهم» تعم تلاوة الكتاب لنفسه أن يجعله إمامه، وتلاوة الكتاب عليهم أن يقرءه عليهم ليجعلهم تالين الكتاب، والأولى هي الأولى في طبيعة الرسالة، فما لم يتلوا الرسول ما اوحي إليه من الكتاب ائتماماً به ككل، ليس عليه ولا له أن يتلوه عليهم، حيث الآمر بائتمام الكتاب عليه أن يأتمر من قبل حتى يأمر.

فهو يتلوا في نفسه الكتاب تعلماً وتزكياً، ثم ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[(١)] كما ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[(٢)] فإن «رتل» تقتضي ترتلاً أولاً ثم ترتيلاً لآخرين، وهو فيهما تحريك القلب بالقرآن كما يروى عنه ﷺ[(٣)].

ثم ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ تختص التلاوة بما مضى وحيه، ولأن ﴿أَتْلُ﴾ أمر رسالي يستمر طول رسالته، فقد أمر بها أن يتلو كلما أُوحي إليه طول الزمن الرسولي، ولأن وحي الكتاب مستمر حتى ارتحاله إلى جوار ربه، فالتلاوة أيضاً مستمرة كوحي الكتاب، فهو دائب في مثلث الوحي وتلاوته لنفسه وتلاوته عليهم، وقد قرّرت هذه التلاوة ككلّ رسالته ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ﴾[(٤)].

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هنا لها أبعاده عدة، صلة إلى حال الرسول، وتلاوته الكتاب، فحاله المتأذية من تعنّد قومه اللّد تقتضي رياحة وهي الحاصلة بالصلاة، لأنها صلات بالرب، واطمئنان للقلب المتأرجف برجفات المتخلفين عن شرعة الله، وهكذا «كان إذا غمه أمر استراح إلى الصلاة»

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.
(٢) سورة المزمل، الآية: ٤.
(٣) حيث يسأله ابن عباس عن معنى الآية فقال: يعني حركوا به القلوب.
(٤) سورة النمل، الآية: ٩٢.

وبعد ثان أنّ أنتج ما تنتجه تلاوة الكتاب لنفسه وعليهم هو إقام الصلاة فإنها عمود الدين، و«أقم» هنا تجعل الصلاة مقامة بشروطها وأجزائها وأركانها ظاهرة فقهياً وباطنة معرفياً، فقد تؤتى الصلاة دون إقامة، وهي الصلاة في سكر أم في كسل ذلك بأنهم: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾[1] فهي صلاة قاعدة، متخلفة عن القاعدة فيها وهي إقامتها، وهي - في الحق - ليست إلّا التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، مهما شملت الصلاة كل صلاة بريئة عن النفاق، وقد «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق؟ قال ﷺ: انه سينهاه ما تقول»[2] وهذا من أقل ما تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر وأقل منه أن «الصلاة حجزة الله وإنها تحجز المصلي عن المعاصي ما دام في صلاته»[3]، وكضابطة ثابتة للصلاة «من صلى صلاة لم تأمره بالمعروف وتنهه عن المنكر لم تزده صلاته من الله إلا بعداً»[4] «من أحب أن يعلم قبلت صلاته أم لم تقبل فلينظر هل منعته صلاته عن الفحشاء والمنكر فبقدر ما منعته قبلت صلاته»[5] ف «لا صلاة لمن لم يطع الصلاة، وطاعة الصلاة أن ينتهي عن الفحشاء والمنكر»[6].

فكما تقام الصلاة، فهي بقدرها تنهى عن الفحشاء والمنكر، فيها وهو

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥٤.

(٢) الدر المنثور ٥: ١٤٦ - أخرج أحمد وابن حبان والبيهقي عن أبي هريرة قال جاء رجل... وفي نور الثقلين ٤: ١٦٢ عن مجمع البيان وروي ان فتى من الأنصار كان يصلي الصلوات مع رسول الله ﷺ ويرتكب الفواحش فوصف ذلك لرسول الله ﷺ فقال: إن صلاته تنهاه يوماً ما.

(٣) المصدر ١٤٥ - أخرج الخطيب في رواة مالك عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ:...

(٤) نور الثقلين ٤: ١٦١ في كتاب التوحيد وقد روى عن الصادق عليه السلام أنه قال:... قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

(٥) نور الثقلين ٤: ١٦٢ عن المجمع وروى أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال:...

(٦) نور الثقلين ٤: ١٦١ عن المجمع وايضا عن النبي ﷺ:...

أقلها، وفي كافة الحالات عن كل دركات الفحشاء والمنكر وهو قمتها وبينهما متوسطات.

فملابس المصلي تنهاه عن اغتصابها، وطهارته عن خبث وحدث تنهاه عن التصرف في طهور من غير حله، وطهارته ككل تنهاه عن التقذر ككل، واستقباله القبلة تنهاه عن استقبال ما سواها، وافعال الصلاة من قيام لله وقعود وركوع وسجود تنهاه عن كل ذلك لغير الله، وأقوال الصلاة تأمره أن يعتنق ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وألّا يعبد ويطيع إلّا الله.

ونية الصلاة تنهاه أن ينويها لغير الله شركاً جلياً، أم خفياً أن يصلي رئاء الناس، كما تنهاه أن ينوي أية عبادة أم وسواها لغير الله.

كما وأهم من كل ذلك اتجاه القلب إلى الله حضوراً عنده في الصلاة، ينهاه عن كل فحشاء ومنكر قلبي قدر ذلك الحضور والاتجاه.

وكضابطة عامة قالات الصلاة وفعالاتها وحالاتها، إذ كانت مقامة، إنها بأقدارها وحدودها تنهى عن الفحشاء والمنكر قالاً وفعالاً وحالاً، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1]. فالصلاة بكل أحوالها وأفعالها وأقوالها تنهى عن الفحشاء والمنكر، انتهى المصلي بنهيها أم لا، فقد تنهي الفحشاء والمنكر بما تنهى وذلك لمن ينتهي، وقد لا تنهي رغم ما تنهى، فالنهي - إذاً - طبيعتها، والإنهاء قد يتخلف عنها فإنها تنهى دون تسيير وكما الله ينهى ورسله والدعاة إليه تخييراً دون تسيير.

وحين تقام الصلاة بكل ما يتوجب فيها بظاهرها وباطنها، وتكون مزيجاً لنفس المصلي بظاهرها وباطنها، إذاً فهي تنهي بنهيها الفحشاء والمنكر، من فحشاء العقيدة والأخلاق والأعمال والأقوال، وهي المتجاوزة حدها في التخلف عن شرعة الله، أو المتجاوزة إلى غير العاصي، أم المتجاوزة في

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

بعديها، والمنكر هو كل ما تنكره الشرعة صغيرة وكبيرة، وهو هنا أدنى من الفحشاء.

ولأن جوهرة الصلاة هي ذكر الله، وسائر ما فيها إنما هي تعبئة وتقدمة لذكر الله، إذا ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ﴾ - وهو الصلاة ككل - «أكبر» من ذكر غير الله، وغير ذكر الله، كما وإن «ذكر الله» في الصلاة غير التامة في الذكر، إنه أكبر من سائر أجزاء الصلاة، كما وهو أكبر من كل ذكر وذكر كل كما ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾(١) فذكر الله هو الرادع عن الفحشاء والمنكر، وكلما كان ذكر الله أكثر وأقوى، كان نهيه عن الفحشاء والمنكر أشمل وأحوى، وليست المعصية على أية حال إلّا بنسيان ذكر الله، والغياب عن حالة الحضور، فـ «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». الله هناك مفعول الذكر حين تعني «ذكر الله» ذكرك الله «عندما أحل وحرم»(٢) عامة وفي الصلاة خاصة، وإذا كان فاعلاً فهي ذكر الله إياك و«ذكر الله لأهل الصلاة أكبر من ذكرهم إياه ألا ترى أنه يقول: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾(٣)، فهو - إذاً - أكبر من الصلاة التي هي ذكرك الله كما أن أذكرك الله هو أكبر شيء في صلاة وسواها، وقد أمرت بالصلاة لذلك الذكر ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾.

فذكرنا الله يمنحنا روحية على قدر المستطاع لنا وهو محدود قد يحصل معها عصيان أو لمم، وأما ذكر الله إياناً أن يعصمنا عن الزلل فهو عصمة عن كل عصيان أو لم، وعن كل جهل أو جهالة أو خطأ علمي أو عملي، وهي المعبر عنها ببرهان الرب ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ﴾(٤)

---

(١) سورة طه، الآية: ١٤.

(٢) نور الثقلين ٤: ١٦٢ عن المجمع وروى أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ولذكر الله اكبر - قال: ذك الله...

(٣) المصدر عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ولذكر الله أكبر...

(٤) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

وهو التثبيت من الرب: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[1].

إذاً فـ «ذكر الله» هنا في مثلث: الصلاة - ذكر الله في الصلاة - أن يذكرنا الله بما نذكره فيتم الحضور ويطم كل كياننا فنعبد الله كأننا نراه.

فكما الصلاة هي قلب العبادات، كذلك الذكر هو قلب الصلاة، وليس هو إلّا في قلب المصلى، وليس ذكر الأفعال والأقوال إلّا إذاعة عن ذكر القلوب والأحوال، والمصلي الحقيقي يصبح كله ذكراً الله، في حاله وقاله وأفعاله، لا يغيب عن حضرة الربوبية في صلاته، فالفحشاء هنا أن يتجاوز عن ذكر الله إلى سواه، والمنكر أن يذكر نفسه وهو تارك ما سوى الله، فكما تزول عنه سائر الحجابات بينه وبين الله وهي الفحشاء، كذلك يزول عنه حجاب نفسه بينه وبين الله وهو المنكر، فلا يبقى بينه وبين الله أحد حتى نفسه:

بيني وبينك إني ينازعني فارفع بلطفك إني من البين

وأعلى القمم من ذكر الله ما حصل لرسول الله ﷺ في معراجه حين ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾[2] ففي دنوه أزال حجابات الفحشاء وهي التوجه إلى غير الله، وفي تدلّيه أزال حجاب نفسه وهو التوجه إلى نفسه، فأصبح بكلمة منمحياً في الاتجاه إلى الله فلم يبق بينه وبين الله إلّا حجاب ذات الألوهية الذي لن يرتفع لمن سوى الله.

مقام ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ هو قضية أن يذكره الله فيعصمه، وقبلهما من مقامات القرب والحضور هي قضية أن يذكر هو الله، والعصمة حصيلة الذكرين أن تذكر الله كأعلى القمم المستطاعة لك فيذكرك الله، ذكراً على غرار الذكر فإنه

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٤.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٨، ٩.

فيهما درجات، و﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[(١)] تلمح أن قدر ذكر الله لك هو قدر ذكرك الله ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[(٢)] و«إن السابقين الذين يسهرون بذكر الله عزّ وجلّ ومن أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر من ذكر الله عزّ وجلّ»[(٣)].

فالصلاة بدرجاتها تنهى عن الفحشاء والمنكر بدركاتهما، من فحشاء ومنكر قالبيين قالاً وأفعالاً، وقلبيين أحوالاً، إلى أن تصل إلى خرق الحجب، ثم وخرق حجاب نفسك، فتصل إلى القمة المعرفية وهي خاصة بصاحب المعراج.

فكل ما سوى الله ومن سوى الله في صلاتك هي بين فحشاء ومنكر، بين محرم في شرعة الفقاهة، ومحرم في شرعة المعرفة، فلا يحل الاتجاه في الصلاة إلى غير الله، ولا على أية حال، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ في صلاتكم وسواها، يعلم صلات صلاتكم وانفصالاتها، وكما يعلم من ذكركم فيما يذكركم، وقد يعلم أن كلها انفصالات فلا يذكركم، فلو لا أن الله أمرنا بالصلاة لكانت أكثرية الصلوات محرمة لأنها تمس من كرامة الربوبية، حين نصلي الله، وقلوبنا خاوية عن ذكر الله، نفتش عن سائر ضالاتنا في الصلاة وننسى ضالتنا المنشودة فيها وهو الله والصلاة كلها تصوغ بصيغتها ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾!

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٣) نور الثقلين ٤: ١٦٢ عن معاذ بن جبل وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم يا معاذ ان السابقين... وعنه قال سألت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم اي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: إن تموت ولسانك رطب من ذكر الله عزّ وجلّ».

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾:

يروى عن النبي ﷺ إنه قال: «نحن المجادلون في دين الله على لسان سبعين نبياً»(١) فلقد كان يجادل أهل الكتاب وسواهم بالوحي الرسالي كله، المجموع في القرآن كله، فالقرآن برمته هو الجدال بالتي هي أحسن في كل الحقول، وبمستوى كل العقول، فلا أحسن منه ولا يسامى، فلنجادل أهل الكتاب كما يجادلهم الله في القرآن، دون سائر الأساليب المختلفة المختلقة مهما كانت حسنة حيث الفرض هو الأحسن، ومن جدالهم بالتي هي أحسن: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ وهي قولة المواصلة دون أية مفاصلة، فأحسن الجدال أن تتبنّى المواصلات بينك وبين مجادلك، فتخرج بذلك عن المفاصلات فتوصله إن استطعت إلى حقك، أم ولأقل تقدير لا تبعده عنك أكثر مما هو بعيد عنك، وقد يروى عن رسول الهدى ﷺ قوله: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا . . . وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾»(٢)، وهنا ﴿بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ هو القرآن، و«الذي أنزل إليكم» هو سائر الوحي النازل إلى أهل الكتاب توراة وانجيلاً وسواهما من كتاب، وذلك لا يعم كل الذي عندهم من خليط الوحي بسواه وإنما ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾.

---

(١) نور الثقلين ٤: ١٦٢ عن الاحتجاج للطبرسي وروي عن النبي ﷺ: . . .

(٢) الدر المنثور ٥: ١٤٧ عن أبي هريرة قال كان أهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ: . . .

فيه عن أبي نملة الأنصاري ان رجلاً من اليهود قال لجنازة انا اشهد انها تتكلم فقال رسول الله ﷺ إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا. . .﴾ [العنكبوت: ٤٦] فإن كان حقاً لم تكذبوهم وان كان باطلاً لم تصدقوهم، وفيه عن جابر قال قال رسول الله ﷺ لا تسألوا اهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ما إن تصدقوا بباطل أو تكذبوا بحق والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلّا ان يتبعني.

وأما ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ فالمثلثون من النصارى وسائر المنحرفين منهم ومن اليهود عن حاق التوحيد وحقه ليس إلهكم إلهنا، فكيف يكون ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾؟

الإله الأصل هو المتفق عليه بين كافة أهل الكتاب وهو الذي نوحّده بيننا وبينهم ونؤمن به، ثم الأقنوم الثاني والثالث، والولد، والجسمانية وأشباهها هي الفاصل بيننا وبينهم، ونحن لا نتفق معهم إلّا في المتفق عليه بيننا ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ لا لسواه ﴿مُسْلِمُونَ﴾: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].

في حوار للإمام الرضا عليه السلام قيل له: «أتقول إن الله واحد؟ قال: قولك إنه اثنان دليل على أنه واحد، والواحد متفق عليه والثاني مختلف فيه».

هناك يستثنى عن الجدال معهم بالتي هي أحسن ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ وهم الذين لا يقنعهم وينفعهم تلك الجدال الحسنى، بل ويتلقونه هواناً منها وضعفاً ومذلة، إذاً فالجدال معهم بالتي هي أحسن إساءة وتضعيف للحق، وهنا يكون آخر الدواء الكي كلامياً أم واقعياً ذوداً عن حرمة الحق وكرامته.

فالكتابي بين متحر عن الحق فليجادل بالتي هي أحسن لكي يهتدى بالتي هي أحسن، أم لا يتحرى عن الحق ولا يتجرأ عليه إذا حصل عليه فيصدقه، أم لا يصدقه ولا يكذبه ولا يعمل دعاية ضده، أم يكذبه في حرب باردة أم وحارة، فالآخرون هم من ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ فليس الجدال بالتي هي أحسن فرضاً معهم بل قد لا يجوز، فإما تركاً لجدالهم، أم بالحسنة أم

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

بالسيئة أم بالتي هي أسوء، كل ذلك رعاية لحرمة الحق وصداً عن بأسهم ضد الحق.

فالأصل في الجدال - على أية حال - أن تكون بالتي هي أحسن تقريباً للهدى وتوصيلاً إليها، وأما الذين ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[1] فعليهم ما يستحقونه من الجدال أو تركها حسب ما تقتضيه المصلحة في ميزان الحق.

وإنها لحقيقة ضخمة عظيمة رفيعة، حقيقة أن يتبناها كل مؤمن بالله، إن دعوة الله التي تحملها رسالات الله هي واحدة الانبعاث والاتجاه، والمؤمنون بكل رسالة حقة هم في الحق إخوة في دين الله، أمة واحدة تعبد إلهاً واحداً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾[2].

ثم ولا تحكم في زمن واحد لعامة المكلفين إلّا شرعة واحدة من الخمس للدين، فعلى كل المؤمنين بالله أن ينضموا إلى شرعة الحق الحاكمة في كل زمن، تاركين الخلافات المتخلفة عن الدين وعن شرعة الدين.

وقد يفترى على رسول الله ﷺ أنه جادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن في العهد المكي وهو في ضغط المطاردة من المشركين، ثم في العهد المدني - وقد قويت شوكته - أخذ يحاربهم تركاً للحسنى إلى السوأى!

وهذه فرية وقحة عليه يعالجها هذا النص حيث يأمره أن يجادلهم بالتي هي أحسن على أية حال، حال الضعف وحال القوة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ فلا، سواء في حال الضعف أم حال القوة، ضابطة صارمة ثابتة في كل

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦.

(٢) سورة المؤمنون، الآيات: ٥١-٥٣.

الحالات والمجالات بإيجابيتها وسلبيتها، والأصل فيهما هو ضرورة الأخذ بالصورة الأخيرة من صور الدعوة، الموافقة لما قبلها، المكملة لها كلها كما أرادها الله.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ (٤٧)﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الأسلوب الذي أنزلنا إلى من قبلك الكتاب ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فالمصدر واحد والصادر وحي واحد مهما اختلفت شرعة من الدين عن شرعة في البعض من الطقوس الظاهرية، حلقات متصلة من الوحي، موصولة الهدى إلى الله، والله اعلم حيث يجعل رسالته.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ البعيدة المدى، الشاملة الهدى، الصادرة الردى ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يا رسول الهدى، الكتاب الذي يحلّق وحيه على كل كتاب وزيادة، مشابهاً وحيه وحيها وزيادة ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هم بطبيعة الحال، ونتيجة الاطلاع على وحي الكتاب والبشارات المودعة فيه بحق هذا الكتاب ونبيّه ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ حيث الملامح نفس الملامح والمسارح والمصارح نفس المسارح والمصارح، مهما تعنت عنه جماعة متعندة! وبإشراقة أقوى وإناقة أندى وأبدى، ثم ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركين البعيدين عن وحي الكتاب ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ حيث الكتاب بنفسه برهان لا مرد له أنه من الله، مهما كانت الخبرة السابقة بوحي الكتاب تزيد برهاناً مشياً على برهانه الأصيل ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ كتاباً ورسولاً وحجة أخرى للرسالة غير الكتاب ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الذين عميت بصائرهم وأغلقت أبواب قلوبهم، فتجاهلوا عن آيات الله البينات التي هي كالنار على المنار وكالشمس في رابعة النهار.

ومما يقرّب الفريقين إلى الإيمان به، شاهداً ممن أرسل به اضافة إلى آية الكتاب:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

هنا ﴿مِن كِتَٰبٍ﴾ تستأصل كل كتاب سماوي أو أرضي ﴿وَمَا كُنتَ﴾ تستأصل كيانه كرسول القرآن ان يتلو من قبله من كتاب، لا أنه ما تلاه وهو قادر على تلاوته تقية مصلحية الحفاظ على وحي القرآن، فإن ﴿وَمَا كُنتَ﴾ تحيل عليه كل تلاوة وكتابة لأي كتاب قبل القرآن إحالة تكوينية وتشريعية، فلم يكن يستطيع أية تلاوة قبله، ولا كانت مسموحة له لو استطاعها.

ثم و﴿تَتْلُواْ﴾ تنفي كل ائتمام بأي كتاب قبل القرآن، قراءة وإقراء وتعلّماً وتفهّماً، وعلى الجملة سلبية التلاوة له مطلقة محلّقة على كل تلاوة قالبية أو قلبية، والأولى تعم تلاوة السمع والبصر واللسان، وتلاوته بيمنه وهي الكتابة، وقد أفردت بالذكر بعد التعميم لأنها من المصاديق الخفية للتلاوة.

والثانية تعم التلاوة العقلية والقلبية، ومن ثم التلاوة التطبيقية.

إذاً فسلبية التلاوة كما تحلّق على كل كتاب قبل القرآن، كذلك تحلّق على كل ائتمام واتباع لكتاب قبله، فقد كان منفصلاً عن كل كتاب تلاوة له وخطا بيمنه «إذا» لو كان يتلوا ويخط من قبله من كتاب ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ لحجة القرآن علّه مما تلاه من كتاب فجمعه خطاً بيمينه كتاباً سماوياً كما يهرفه الخارفون أنه جمعه من كتابات السماء، أم كتاباً أرضياً، كما يتقوله آخرون ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[1]، ولماذا «بيمينه» والكتابة بطبيعة الحال تكون «بيمينه»؟ علّها تعني - إضافة إلى يمين الجارحة وهي المتعودة للكتابة - تعني يمين القدرة، فلم يكن بمستطاعه أي كتب لأي كتاب سواء في سجلات القراطيس وأشباهها، أم في سجلات خاطراته المقدسة لو سمع شيئاً من كتاب، وهكذا كان محمد ﷺ منذ أن

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥.

كان فطيماً حتى أنزل عليه القرآن، لم تعرف منه أية تلاوة عن كتاب أم عن ظهر الغيب، ولا مراجعة إلى أيّ من أهل الكتاب ولا مدراسة لوحي الكتاب وسواه، ومن هنا نتلمح كصراح أنه ما كان يتّبع شرعة تقليدية من ذي قبل، حيث السلبية المطلقة لتلاوة أي كتاب من قبل تنفي كل ائتمام واتباع لأي كتاب، فاتباع كتاب الشرعة يتطلب قراءته، أو اقراءه لمن لا يقرءه، حتى يتطلع إلى فرائضه ومحاظيره، ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ﴾ تستأصل أية قراءة وابتّاع، أن لم يأتمّ بأي كتاب ولا أي صاحب كتاب، فما قلد محمد ﷺ قبل القرآن أية شرعة تقليدية! إذا فما كانت شرعته - وهو أفضل المصطفين - قبل شرعته وبعده؟

حين نتأكد أنه ما كان يتلو من قبله من كتاب من ناحية، وأنه كان أعرف أهل زمانه وأعبدهم لربه قضية الاصطفاء للرسالة الأخيرة من أخرى، إذا فأمره محصور بين أمرين[(١)] : أنه كان يوحي إليه بنبوءة شخصية، معرفية متصلة متواصلة[(٢)]، وعملية منفصلة الوحي، وكما يشهد له قول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام : «ولقد قرن الله به منذ أن كان فطيماً أفضل ملك من ملائكته يسلك به سبيل المكارم ويرشده إلى أفضل أخلاق العالم ليله ونهاره. . »!

ومما يؤكد تلك السلبية الجامعة آية الشورى ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[(٣)].

ثم و﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ هنا تحدد تلك السلبية إلى حد نزول القرآن، حيث أصبح بعده أقرء القراء واتلى التالين للكتاب والخاطين له بيمينه خطاً في أية

---

(١) لاطلاع أكثر على الموضوع راجع ج ٣٠: ٣٤٧ من الفرقان وتفسير الآية ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

(٢) مثل مكاتيب الرسول ﷺ للشاهرودي، وسواه.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

سجله من السجلات، فهل توجد تلاوة لكتاب بكل حواياه وزواياه مثل تلاوته القرآن لنفسه وعلى الناس كافة؟ كما وكتاباته ﷺ وتوقيعاته إلى الملوك والرؤساء والشيوخ معروفة، ومنها ما هي مسجلة في كتاب فذّ[(١)].

فهذه الآية تستأصل جذور الارتياب في ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، إجابة عن شطحات القيلات الجاهلة القاحلة: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾[(٢)][(٣)]، ولقد ذكرت أمية محمد ﷺ في كتابات السماء بصيغ مختلفة كما في كتاب اشعياء ٢٨: ٩ - ١٤ عن أصله العبراني:

«إتْ مِي يُورِهْ دِعاهْ وِإتْ مِيْ يا بِيْنْ شِمُوعا غِكَمولِيْ مِحالَابْ عِتْيِمِّي مِشَّادايِم» (٩): لمن ترى يعلِّم العلم ولمن يفقه في الخطاب أللمفطومين عن اللبن للمفصولين عن الثدي» (٩)... ثم يستمر في مواصفات وحي القرآن[(٤)].

وفي نص عبراني آخر من التوراة: «يدعُو ييسرائل إوايل حنبيا مَشُوكاعْ إيشْ هارُوحَ عَلْ رُوب عوُنِخا وِربّاه مشَطماه»:

بنو إسرائيل يعلمون ويعرفون أن النبي الأمي المصروع صاحب روحٍ إلهامي وصاحب الوحي، وهنا يقول «ربي حييم ويطال» في كتاب

---

(١) المصدر.

(٢) سورة الفرقان، الآيتان: ٥، ٦.

(٣) نور الثقلين ٤: ١٦٤ في عيون الأخبار في باب مجلس للرضا عليه السلام مع أهل الأديان والمقالات في التوحيد قال الرضا عليه السلام في أثناء المحاورات: وكذلك أمر محمد ﷺ وما جاء به وامر كل نبي بعثه الله ومن آياته ان كان يتيماً فقيراً راعياً أجيراً لم يتعلم كتاباً ولم يختلف إلى معلم ثم جاء بالقرآن الذي فيه قصص الأنبياء عليهم السلام واخبارهم حرفاً حرفاً واخبار من مضى ومن بقي إلى يوم القيامة.

(٤) راجع كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» ١٠٨ - ١٠٩.

«عصحييم» أن القصد من النبي الأمّي هنا إنما هو محمد بن عبد الله الذي بعث في عهد عبد الله بن سلام.

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

﴿بَلْ﴾ هنا إضراب عن كل قيلة عليلة حول القرآن ﴿هُوَ﴾ القرآن ﴿ءَايَٰتٌۢ﴾ تدلنا بنفسها على أنها إلهيات ﴿بَيِّنَٰتٌ﴾ الدلالات على ذلك: ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾: ما به يميز الآية عن سواها، سواء في ذلك علم الكتاب كما لأهل الكتاب، أم علم لغة الكتاب كما لسواهم كالمشركين وسواهم، العارفين لغة الكتاب، وحتى غير العارفين حين يترجم لهم الكتاب، فالفطرة والعقلية السليمة تكفيان للإتقان أنها آيات الله، مهما اختلفت درجاته حسب درجات ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وأعلاهم هو الرسول ﷺ وأئمة أهل بيته عليهم السلام، فكما آياته لهم بينات الدلالة على إلهيتها، كذلك هي بينات الدلالة على مداليلها فإنهم هم الراسخون في العلم في بعدي الدلالة والتدليل للقرآن العظيم ثم ﴿بَيِّنَٰتٌ﴾ تحلّق على كل بينة في كافة الحقول المعرفية، بينات الدلالة وبينات التدليل لأعلى القمم العالية الكافية لمن يتحرى عن هدى.

فلا يختص ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بالرعيل الأعلى من أهل بيت الرسالة المحمدية صلوات الله عليهم أجمعين، حيث القصد هو العلم الذي يكون ذريعة للحصول على بيّنات الكتاب وهو درجات بين العبارة والإشارة واللطائف والحقايق، فقد تكفي العبارة وهي المعاني المطابقية الترجمانية الساذجة، دليلاً على بينات آياته.

و﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يعم العلم الفطري والعقلي المؤتيان لكل مكلّف، والعلم التعقلي المؤتى لمن يطلبه بتفكير أو دراسة، وعلم الإلهام ثم علم الوحي

المؤتيان لآلهلين لهما على درجاتهم، فالعلم أياً كان طبيعته الكشف عن الحق، فبقدر العلم المستخدم لتفهّم الكتاب ﴿هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ درجات حسب الدرجات، ان استعمل العلم في صالحه كشفاً عن الحق المرام.

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ . . . فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم منازل وحي القرآن، دون وسيط كالرسول ﷺ أم بوسيطه كما الأئمة المعصومون عليهم السلام، كما ﴿هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ ككل، فمهما لم تكن آياته في صدورهم، فهي ببينات في صدورهم لمّا تتلى عليهم أم يتلونها.

إذاً فـ ﴿هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ. . .﴾ - «آيات في صدور» و﴿بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ﴾ بينات الدلالة والتدليل ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ كلّه بالكتاب وهم الرعيل الأعلى[1].

ثم في صدور الحفاظ لها لفظياً ومعنوياً كالعلماء الربانيين في علوم القرآن، في الدلالة والتدليل على أقدارهم، ثم في صدور حفاظها معنوياً مهما لم يحفظوها لفظياً، في الدلالة والتدليل، على أقدارهم.

وأخيراً في صدور المستدلين بها على كونها إلهيات، مهما اختلفت صدور عن صدور، وبينات بين الأدنى والأعلى وبينهما متوسطات.

فهنا مثلث: الحفظ لفظياً، والدلالة على كل حقائقها، والتدليل بها على إلهيتها، هي الخاصة بالمعصومين عليهم السلام [2].

ثم التدليل بها - فقط - على إلهيتها، يعم كل من بامكانه التعرّف إلى

---

(١) حسب هذا الاحتمال فالقرآن آيات بينات في صدورهم بكل مراحله دون إبقاء آيات في صدورهم، هي بينات في صدورهم، ثم يتلوهم من هي بينات في صدورهم مهما كانت آيات - كذلك - في صدورهم كالحفاظ أم ليست في صدورهم إلا بينات، وكما الصدور درجات فالبينات أيضاً درجات.

(٢) نور الثقلين ٤ : ١٦٤ - روى بأسانيد عدة عن الصادقين عليهما السلام أنهم الأئمة عليهم السلام.

حالة المعنى وهالة المعني منها، وبينهما متوسطات في أبعاد الحفظ لفظياً ومعنوياً، والدلالة والتدليل.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أيّاً كانت: آفاقية وأنفسية، رسولياً ورسالياً وكتابياً ﴿إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أنفسهم والظالمون الحقّ الناصع، تغافلاً عن فطرهم وعقولهم وفكرهم، وتجاهلاً عن العلم الذي أوتوه من ربهم، فكل بصيرة - مهما كانت كليلة - تبصر ربوبية الوحي الرسالي في القرآن ونبيه، فما أظلمهم وأجهلهم هؤلاء الأوغاد المناكيد الجاحدين لآية القرآن وسواه من آيات الله البينات! وهنا ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قبال ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بدلاً عن «الذين لم يؤتوه» أو «الجاهلون» للتدليل على أن الجاحدين بآيات الله ليسوا يفقدون العلم الذي به تعلم آياته البيّنات، بل هم ظلموا الذي أوتوه من العلم، تنازلاً عنه وتجاهلاً وتغافلاً عامداً أم متساهلاً، فقد ظلموا بذلك ما أوتوه من العلم فـ ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1] أم لم يدّبّروا القرآن لكي يستيقنوا فيؤمنوا.

فليس الجاحد بآيات الله إلّا ظالماً، عالماً أو جاهداً، ما دام إنه مقصر في ذلك الجحود، حيث لم يستعمل العلم المؤتى له في صالحه.

ولماذا ﴿فِى صُدُورِ...﴾؟ لأنها أولى مقامات الإيمان الإتقان، حيث يغربل العلم فطرياً وعقلياً وعلمياً وحسياً إلى الصدور ومنها إلى القلوب، فما لم يصل إلى الصدور لم تحصل بينة على ضوءه، فكثير هؤلاء الذين يعلمونها دون صدورهم وليست لهم بينات!

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾:

﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ هنا دون «الله - أو - رب العالمين» تعريضة عليه ساخرة،

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

أنه لو كان ربّه فكيف أهمله إذ أرسله دون آية تدل على رسالته، فهل ضنّ به أم غفل عنه، أم هو كاذب في دعوى الرسالة؟!.

وهنا الآيات المقترحة عليه هي الملموسة المحسوسة المتعود عليها طيلة الرسالات السالفة جهلاً منهم أو تجاهلاً أن ليس على الله إلّا الآية التي تثبت الرسالة، وأما كون الآيات الرسالية على نسق واحد فلا، بل المفروض في كل رسالة أن تلائمها الآية الرسالية، فالرسالة المحدودة تكفيها الآيات الوقتية المحدودة ككل الرسالات قبل الأخيرة، والرسالة المحلّقة على كل عصر ومصر لا تكفيها الآيات المحدودة، بل الآية الخالدة التي هي أقوى من كل الآيات الرسالية مادة ومدة، مادة تجذب كل العقلاء على مراتبهم وفي كل حقولهم العقلية والعلمية، ومدة تستمر إلى آخر زمن التكليف.

فالآيات الرسالية المادية التي صاحبت اصحاب الرسالات من قبل في غضون البشرية وعنفوانات الوحي ما كانت حجة إلا زمن كل رسول حين تظهر على يديه، وهذه الرسالة الأخيرة البالغة لأعلى القمم الرسالية، من الضروري لها الحجة الحاضرة في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، محلقة على كل المجالات في كل الحالات، دون أية غيبوبة لشمسها، بل ولتزدد إشراقة فوق إشراقة على غرار تقدم العقول والعلوم، متفتحة كنوزها لكافة الأجيال.

فآيتها الرسالية «القرآن» دائبة الدلالة في كل زمان ومكان، دون اختصاص بالحياة الرسولية كما في سائر الآيات الرسالية لسائر المرسلين، بل وتحيى في الحياة الرسالية كما الرسولية بل وأقوى وأندى - حيث تظهر منها حقائق ورقائق وتبهر، ما لم يكن الجيل الحضور زمن الرسول ليدركوها فإن للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن.

وهؤلاء المجاهيل حين يقترحون على هذا الرسول آيات مادية وقتية

كالسالفة، قد يسخرون منه بقولتهم المتحدية ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إن كان ربه، فكيف تركه ربه وهو يدعي خاتمة الرسالة وأقواها؟! والجواب القاطع القاصع يتشكل من سلب وإيجاب، فالسلب يعني إنه لا يملك من الله آيات حتى يبرزها أو يستزلها: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾:

كل الآيات الرسالية مادية ومعنوية هي عند الله لا سواه، عند الله علماً وقدرة وحكمة لإنزالها ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾(١) - فالآيات الرسالية هي من الغيب المخصوص بالله بكل أبعادها: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: رسالتي أنا محصورة في ﴿نَذِيرٌ﴾ عن بأس الله ﴿مُّبِينٌ﴾ في نذارتي دون إبهام، وأما سند الرسالة، فهو كأصلها، فليس إلّا عند الله، فكما الله هو الذي أرسلني وأوحى إلي، كذلك هو الذي ينزل علي آية الرسالة المثبتة لها، ثم الجواب الإيجابي هو آية القرآن الكافية عن كل آية:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾:

والواو هنا تعطف إلى محذوف هو بطبيعة الحال آية كما القرآن آية، وليست إلّا الرسول نفسه، ألم تكفهم أنت بما تحمل أعلى قمم التربية الرسالية ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ...﴾ وكما المرسلون دونه يستدلون لرسالتهم الإلهية بالتربية الرسالية اللامعة فيهم: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾(٢).

فقد يكفي محمد ﷺ بنفسه، بحاله وأفعاله وأقواله وإن لم يأت بالقرآن، يكفي آية بينة رسالية برسوليته، فهو هو القرآن، متجسداً في كل

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٠.

(٢) سورة يس، الآية: ١٦.

أحواله ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ. . .﴾[١] فهو القرآن نفسه تكيميناً كما كتابه المنزل عليه قرآن تدوينياً! وقد تلى عليكم كتاب حياته رسالية قبلها! وإذا لم تكفهم أنت آية لرسالتك لكلّ البصر وقصر النظر ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ. . .﴾ تلاوة هي على الأسماع أسهل، وعمرها أطول، فهي على هذه الرسالة أدلّ وأنبل، فقرآن محمد ومحمد القرآن آيتان بارعتان كلّ تؤيد الأخرى، أم هما آية واحدة والثانية القرآن هي استمرارية للأولى: رسول القرآن، حيث يعيش في كل الحياة الرسالية ويعيّش بآيتها البارعة كل متحر عن حق الرسالة وحاقها.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ عن كل آية رسالية ان يحلق الوحي الآية الزمن الرسولي بنجومه ليل نهار ودونما انقطاع نزولاً على الرسول، ثم ويحلّق الزمن الرسالي بما بين دفتيه مؤلّفاً بوحي كما نزل بوحي، شمساً مشرقة على قلوب وأفكار الكلفين إلى يوم الدين.

إن القرآن آية كافية، آية خالدة وكتاب شرعة خالدة على حد قوله ﷺ: و«كفى بقوم حمقاً أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم. .»[٢] قوله ﷺ: «لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم أنا حظكم من النبيين وأنتم حظي من الأمم»[٣].

---

(١) سورة يس، الآية: ٦٩.

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٤٨ عن يحيى بن جعدة قال جاء ناس من المسلمين بكتب قد كتبوها فيها بعض ما سمعوه من اليهود فقال رسول الله ﷺ: . . .
فنزلت هذه الآية وفيه عن أبي هريرة عنه ﷺ مثله.

(٣) المصدر أخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن الضريس والحاكم في الكنى والبيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن ثابت الأنصاري قال دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال: هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب اعرضها عليك فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيراً شديداً لم أر مثله قط فقال عبد الله بن الحارث لعمر أما ترى وجه رسول الله ﷺ فقال عمر رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً فسرى عن رسول الله ﷺ=

ويقول لعمر بن الخطاب حين قال له ﷺ: يا رسول الله إن أهل الكتاب يحدثونا بأحاديث قد أخذت بقلوبنا وقد هممنا أن نكتبها! يا ابن الخطاب! أمتهوّكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولكني أعطيت جوامع الكلم واختصر لي الحديث اختصارا»[١].

أجل وفي هذا القرآن كفاية عن كلما دق وجل، المذكورة في كل كتابات السماء والأرض، وهو المحور الأصيل رداً لكل شارد وإيراداً لكل وارد، لا يقبل إلّا ما وافقه، وينكل بكل ما فارقه، و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الوحي الآية، البالغ في بعدي وحي الرسالة وبرهانها، النهاية «لرحمة» رحيمية ربانية خالدة على مدار الزمن «وذكرى» تذكّر كل منسي ومجهول ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بآيات الله، حيث القرآن خير آية رسولية ورسالية قاصعة قاطعة لا ريب فيها،

= وقال: لو نزل موسى.. فيه عن الزهري ان حفصة جاءت إلى النبي ﷺ بكتاب من قصص يوسف في كتف فجعلت تقرءه عليه والنبي ﷺ يتلون وجهه فقال: والذي نفسي بيده لو أتاكم يوسف وانا نبيكم فاتبعتموه وتركتموني لضللتم، وفيه أخرج عبد الرزاق والبيهقي عن أبي قلابة ان عمر بن الخطاب مرّ برجل يقرء كتاباً فاستمعه ساعة فاستحسنه فقال للرجل اكتب لي من هذا الكتاب قال نعم فاشترى أديما فهيأه ثم جاء به إليه فنسخ له في ظهره وبطنه ثم أتى النبي ﷺ فجعل يقرءه عليه وجعل وجه رسول الله ﷺ يتلون فضرب رجل من الأنصار بيده الكتاب وقال ثكلتك أمك يا ابن الخطاب أما ترى وجه رسول الله ﷺ منذ اليوم وأنت تقرأ عليه هذا الكتاب فقال النبي ﷺ عند ذلك انما بعثت فاتحاً وخاتما وأعطيت جوامع الكلم وفواتحه واختصر لي الحديث اختصاراً فلا يهلكنكم المتهوكون، وفيه عن عمر بن الخطاب قال سألت رسول الله ﷺ عن تعلم التوراة فقال: لا تتعلمها وآمن بها وتعلموا ما أنزل إليكم وآمنوا به» و(٤٤) الثانية في نفس المصدر.

أقول: وهذه النواهي لا تشمل ما إذا قورنت آيات من الكتب السماوية بآيات قرآنية تثبيتاً لوحي القرآن وصدقه وانه أفضل وأكمل من سائر الوحي، وقد الفنا في المقارنات كتبنا الثلاثة «المقارنات - رسول الإسلام - عقائدنا» والقرآن يأمرنا في آيات بتلك المقارنات التي فيها اثباتات وتأييدات لموقف القرآن.

(١) المصدر ١٤٨.

فقوم يؤمنون زمن الرسول وبعده إلى يوم الدين، لهم في آية القرآن الكفاية التامة الطامة، دون حاجة إلى آية أخرى بصرية أو بصيرية، فإنها الشهادة الكاملة الكافلة الإلهية بين الرسول وكافة العالمين:

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

وليس هذا كلاماً خطابياً ودعوى فاضية عن برهان، بل هو أتقن برهان لوحي القرآن إنه شهادة إلهية كافية بين الرسول وكافة العالمين، فطالما لله شهادات لسائر الرسل في سائر الآيات الرسالية، ولكنها ما كانت لتكفي إلّا وقتية محدودة بحدودها المقررة لها، وأما القرآن - كما ورسول القرآن - فهو شهادة ذاتية كافية ما أكفاها لحق الرسالة بحاقها، لا تختص بزمان دون زمان، ولا بأهل زمان دون آخرين، بل هي حجة رب العالمين إلى يوم الدين، فكما الله ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ كذلك كتابه الشهيد يحوي من علم الله ما في السماوات والأرض، علماً يختص بالله، فالقرآن الحاوي لذلك العلم ليس إلّا من الله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[1] والرسول بقرآنه هما بينة من ربه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2] وهو شاهد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا...﴾[3] كما القرآن شاهد: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٦.
(٢) سورة هود، الآية: ١٧.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤٥.

بَلَغَۚ...﴾[1] فكلّ من القرآن والرسول شاهد باني على هذه الرسالة السامية، وهما متعاضدان، فـ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾[2].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ وهو هنا وجاه الله كل ما سوى الله، اللهم إلّا إيماناً برسل الله وهو ايمان بالله ﴿...ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ وبرسل الله الحاملين شرعة الله.. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ﴾ لا سواهم ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ نشأتي الحياة مهما اختلف خسران عن خسران في الآخرة والأولى.

فالإيمان بالله كسب في ذاته، وكسب في اتجاهاته وإنتاجاته، فإنه طمأنينة في الحياة ككل، واستقامة في مكاسب الحياة، وثقة على أحداثها ومتراس في أكرائها، ويقين بالعاقبة الحسنى، وكل ذلك يخسره الكافرون، ومن خسارهم:

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾:

قائلين: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[3]: هم يتحدّونك إبطالاً لرسالتك استعجالاً بالعذاب الذي تنذرهم به، هزء بك وتعجيزاً لك ﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ لأمد العذاب وهو الحياة الوسطى البرزخية والأخرى الآخرة ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ كما يستعجلون، وقد يعم العذاب هنا عذاب الآخرة والأولى، ولكلّ أجل مسمّى لا سيما الأخرى، وليس الله ليخرق الضابطة الثابتة في ﴿أَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ لأنهم يستعجلون ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم﴾ العذاب الذي

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٩.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٨.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

يستعجلون ﴿بَغْتَةً﴾ إمّا هاهنا كما في قرون هالكة مضت، أم بعد الموت، وكل ذلك فيه مباغتة العذاب، وهي عذاب فوق العذاب ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إتيانه المباغت، ولا أصله، وهم لا يشعرون الحق تجاهلاً وتغافلاً، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حين ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أن ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

ومن الغريب أنهم ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ وهم في أنفسهم بكفرهم جهنم العذاب ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ تحملهم ويحملونها يوم الدنيا، ثم تبرز لهم يوم الدين:

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

فذلك العذاب الذي يغشاهم يومه، هو الذي عاشوه بكفرهم قبل يومه، فلذلك «يقول» الله لهم هناك ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فالأعمال السيئة التي قدمتموها هي عذاب الجحيم، فـ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ باطنة يوم الدنيا وظاهرة يوم الدين فـ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(١)!

﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾:

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٢).

وترى إذا المخاطبون هنا هم عِبادِيَ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فهم عابدون - إذاً - ومتقون، فكيف يؤمرون بهما؟

ذلك لأن أرض الكفر والفسق تضيّق عليهم مجالات الإيمان وجلوات

---

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٢) سورة ص، الآية: ١٠.

أعمال الإيمان، فإذا استمروا فيها يقلّ فيهم الإيمان وعمل الإيمان، فليهاجروا منها إلى أرض أخرى بإمكانهم فيها أن يستمروا في الإيمان والعبادة والتقى، أم وزيادة فيها.

ثم وقد يصح امر المؤمن بالايمان ويعني مزيده على أيّة حال كـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ...﴾[1]. وعلى الجملة ﴿إِنَّ أَرۡضِى وَٰسِعَةٌ﴾ لعبادي، فلا تضيق بكم بما رحبت، فلا عذر لكم في المضايق إذ ضيّقت ما دام الفرار إلى غيرها ميسور، وهو قطعاً ميسور، وأدناه الفرار إلى الأقل مضايقة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِى ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَن يُهَاجِرۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةًۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾[2]، وقد يروى عن رسول الله ﷺ: «البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فحيثما أصبت خيراً فأقم»[3]، وهنا نتأكد من الحصر في ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ متفرعاً على ﴿إِنَّ أَرۡضِى وَٰسِعَةٌ﴾ إمكانية إخلاص العبادة ككل وحصرها في الله في واسعة أرض الله، اللهم

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

(٢) سورة النساء، الآيات: ٩٧-١٠٠.

(٣) الدر المنثور ٥: ١٤٩ - أخرج أحمد عن الزبير بن العوام قال قال رسول الله ﷺ:.. وفيه عنه ﷺ: سافروا تصحوا وتغنموا.

في نور الثقلين ٤: ١٦٧ عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية يقول: لا تطيعوا أهل الفسق من الملوك فإن خفتموهم ان يفتنوكم عن دينكم فإن أرضي واسعة.. فيه عن المجمع قال أبو عبد الله عليه السلام معناه إذا عصي الله في أرض أنت بها فاخرج منها إلى غيرها، وفيه في جوامع الجامع عن النبي ﷺ: من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجب الجنة وكان رفيق ابراهيم ومحمد عليهما السلام.

إلّا لمن لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً للفرار عن أرض الظلم والضغط، فعليهم - إذاً - سنة التقية حفاظاً على البقية الممكنة من عبادة الله وطاعته.

فما ألطفه وأرأفه الخطاب ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ حفاظاً على إيمانهم أياً كانوا، وهجرة بإيمانهم في أرض الله إلى ما هي أءمن لإيمانهم، فأنتم عبادي وهذه أرضي تسعكم أن تعبدوني أنا، فإذا خفتم على إيمانكم أم على عمل الإيمان في جانب من أرضي فهاجروا إلى أخرى فـ ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ فليس وطن المؤمن إلّا ما يتوطن بإيمانه، قريباً فيها أم غريباً، بعيداً عن أهله أم قريباً، فلا يهجس المؤمن هاجس الأسى لمفارقة الوطن المولد، أو الوطن المسكن، ما دامت الأرض كلها لله، والمؤمن هو عبد الله، فليعبد الله في أرض الله مواطناً أم مهاجراً، والهجرة في دين الله محنة وليست مهنة، وأحب البقاع إلى الله ما تعبد فيها الله كما يرضاه.

وأخطر الخطر الذي قد يهجس في بعض القلوب مانعاً عن الهجرة عن أرض الوطن هو الموت ولكن:

﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ۝٥٧﴾[1]:

﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾[2] ثم الموت في المهجر حياة، كما الحياة في الوطن - حين يضيّق على الإيمان وقضاياه -

---

(١) في الدر المنثور ٥: ١٤٩ - أخرج ابن مردويه عن علي عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزُّمَر: ٣٠] قلت: يا رب أيموت الخلايق كلهم وتبقى الأنبياء فنزلت ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [العَنكبوت: ٥٧].

أقول: الأولى صريحة في موته صلى الله عليه وآله وسلم فباحرى في موت سائر الأنبياء، والثانية ظاهرة في موته وسائر الأنبياء، فكيف يقنع بالآية الظاهرة دون الصريحة، فالعكس قد يصح وقد حصل القلب خطأ من الراوي.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٨.

هي موت، و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ لا أنها تموت موت الفوت، فذوق الموت عبارة عن الانتقال عن الحياة الدنيا إلى الحياة البرزخية، فالنفس تذوق الم الانتقال على أية حال، ولا تعني ﴿ٱلْمَوْتِۗ﴾ في آياتها إلا ذوق الموت دون الفوت المطلق، فإنما الموت عن الحياة الدنيا، وكما تدل عليه آيات الحياة البرزخية وجنتها ونارها.

ولأن «نفس» لا تطلق على الله إلّا إضافة إليه «نفسه» كما «تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك» فلا تشمله «كل نفس» حتى يخرج بأدلة خارجية عقلية ونقلية، وانما تشمل نفوس ما سوى الله ومن سواه، ما له نفس حية حيث تنتقل بالموت من حياة إلى أخرى «ثم» بعد ذوق الموت ﴿إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أحياء بحياة أخرى هي أحرى أن تسمى حياة من الأولى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[1] كأن الأولى ما كانت حياة، وترى اللموت» هو غير «القتل»؟ فالقتيل إذا - في حق أو باطل - لا بد أن يرجع يوم الرجعة حتى يموت قضية هذه الشمولية لـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾؟

ولا يرجع يوم الرجعة إلّا من محض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً كما في مستفيضة الأحاديث، على ضوء آيات الرجعة، وهذه رجعة بالاستعداد، ثم من يستدعي من المؤمنين الرجعة، وهي رجعة بالاستدعاء، ومن يقتل في سبيل الباطل ليس - ككل - ممن محض الكفر محضاً، كمن يقتل في سبيل الحق، فإنه ليس - ككل - ممن محض الإيمان محضاً، فضلاً عمن يقتل في صدفة غير متقصّد لا في سبيل الإيمان ولا اللّاإيمان!

ومهما عنت مقابلة الموت بالقتل، الموت بغير القتل كما العكس، فليست الموت دون مقابلة لتعني - فقط - غير القتل، مهما خص القتل

(١) سورة الفجر، الآية: ٢٤.

بمعناه دون حتف الأنف[1] ثم الرجوع إلى الله يتطلب البداية منه أن كنا عنده ثم نرجع كما كنا، وهكذا كنا قبل ان نمنح حيوية إنسانية مختارة، ثم هبانا الله العقل والإختيار للاختبار، ثم نرجع دون اختيار نتيجة الإختيار، وهذه لمسات تلمس قلوبنا لتزيل عنها همسات واحتياطات لترك الهجرة والهجرانات في سبيل الله، فمن ذا الذي يساوره الخوف، أو يحاوره القلق بعد هذه اللمسات؟.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

فالمهاجرة في الله حفاظاً على الإيمان وعمل الصالحات، هي من أصلح الصالحات، كما الصبر على مفارقة الأوطان وغضاضات الغربة في المهاجر، والتوكل على الرب في كل ذلك، هو من أصلح الصالحات، وهؤلاء الذين ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ . . . ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ هم أولاء موعودون بواء من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين. . الصالحات الصائبات المستصعبات.

ويا لها من لمسات التشجيع والتثبيت لهذه القلوب المؤمنة المطمئنة بالإيمان، في مواقف القلق والخوف والحرمان.

---

(١) نور الثقلين ٤ : ١٦٧ في تفسير العياشي عن زرارة قال: كرهت أن أسأل أبا جعفر عليه السلام عن الرجعة واستخفيت ذلك قلت لأسألن مسألة لطيفة أبلغ فيها حاجتي فقلت: أخبرني عمن قتل أمات؟ قال: لا، الموت موت والقتل قتل، قلت: ما أحد يقتل إلّا وقد مات؟ فقال: قول الله أصدق من قولك، فرق بينهما في القرآن فقال: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقال: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٨] وليس كما قلت يا زرارة، الموت موت والقتل قتل فإن الله يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٥] قال: من قتل لم يذق الموت ثم قال: لا بد أن يرجع حتى يذوق الموت.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٠﴾:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ﴾(١)، وحين يهجس في النفس المهاجرة خاطر الاضطراب على الرزق في المهاجر قضية مغادرة الوطن والأهلين أقارب وأنسباء وأحباء، وكذلك الأموال ومجالات الأعمال، إذا يطمئن الله تلك النفوس وأضرابها بإنه هو الرزاق لكل مرزوق أياً كانوا وأيّان.

فإذا أنت - بزعمك - يحملك رزقك في الموطن فتخاف على عدمه أو قلته في المهجر، ف ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ بنفسها وفي أية محاولة منها ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ وهي دابة أدنى من المؤمن المهاجر ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ حملتم رزقكم أمّا حملتم، حين تؤدون واجب الاتجاهات الحيوية الايمانية ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لقالاتكم وقالات الآخرين منكم، السميع دعاءكم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالاتكم وحاجياتكم.

فليست هذه الآية واضرابها تسمح للبطلة والبتلة عن طلب الرزق، بل هي تعني الذين يطبّقون واجبهم في المهاجرة وسواها بإيمانهم فتنقطع عنهم أسباب الرزق في تقديراتهم، فهنا يأتي دور الرزق من حيث لا يحتسب: ﴿... وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾(٢).

وليست المهاجرة المضمون فيها الرزق من حيث لا يحتسب مختصة بترك الأوطان في الله، بل هي كل مهاجرة في الله، وأفضلها من يهاجر عن المكاسب المادية إقبالاً على تعلم دين الله وتعليمه ككل الطلاب الربانيين لعلوم الدين، فإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

---

(١) سورة هود، الآية: ٦.

(٢) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

وليس الرزق المضمون لأهله هو الكثير الغزير دوماً، إنما هو أقله أم يزيد، ما يقيم الأود وهو لقمة القوت، البقية على حياة، كيف لا والرسول ﷺ على محتده العالي في تقوى الله مضى عليه ما لم يذق طعاماً لأيام، وعلى حدّ قوله ﷺ: «... وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ولم أجده ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر..»[1] إذاً فالأصل المضمون من الرزق لأقل تقدير هو القوت، وفي الدعوة الزيادة حسب الفاعليات والقابليات.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾:

فحين يصدق المشركون أنه تعالى خالق السماوات والأرض، لا سواه، وهو مسخّر الشمس والقمر لا سواه ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ اتجاه الإفك الكذب إلى غير الله، طلب الرزق أم سواه؟.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾:

فما بسط الرزق معلّلاً - ككل - ببسط السعي وقدره، ولا قدره - ككل - بقدر السعي وقدره، فكم من باسط السعي قدر عليه رزقه، وكم من قدر السعي مبسوط له رزقه، فما التعرض للرزق بأسبابه إلّا سبباً من أسبابه وليس كلّ الأسباب، فإنما هو بيد مسبب الأسباب، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ سعياً وسواه، وقدر الحاجة والحكمة في بسط الرزق وقدره.

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٤٩ - أخرج عبد وابن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عمر قال خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال لي يا ابن عمر مالك لا تأكل؟ قلت: لا أشتهيه يا رسول الله ﷺ قال: لكني أشتهيه وهذه صبح رابعة... فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين، قال فو الله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت: وكأين من دابة... فقال رسول الله ﷺ: إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات ألا واني لا أكنز ديناراً ولا درهماً ولا ادخر رزقاً لغد.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

فحين يصدقون أن منزّل الماء من السماء ويحيي الأرض من بعد موتها هو الله، فكيف ينكرون إحياءهم بعد موتهم وهو أولى من الأولى وأحجى؟

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ككل لأنه الله الخالق المسخّر المنزل المحيي ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إن الدار الآخرة لهي الحيوان، فهم رغم عقل الفطرة المفطور فيها، وعقل العقل وسائر العقل والدرك ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ أخذاً للمعقول مأخذ القبول.

﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ وهي أدنى الحياة دنوا ودناءة، هي محصورة في ﴿لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ لمن أبصر إليها واخلد عليها فإنها تعميه، ولكنها لمن ابصر بها مبصرة فذريعة للدار الآخرة الحيوان.

وهذه آية ثانية تختص الحيوان بالدار الآخرة أولاها آية الفجر: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[1] مما يبرهن أنها أصل الحياة ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لكنهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[2].

وفي مقابلة حيوان الدار الآخرة بلهو الحياة الدنيا ولعبها تلميحة مليحة أن حياة اللهو واللعب موت، وهي في الحق موت للإنسانية السامية وفوت لمحاصيلها العالية، المقصودة بالحياة الدنيا، وهي التذرع بها للأخرى.

فمن التهى فيها بلهوها ولعبها فهو الميت حقاً ومن ورائه ﴿جَهَنَّمَ لَا

(١) سورة الفجر، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الروم، الآية: ٧.

يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[١] ومن تركهما فيها وابتغي مرضات الله فهو الحي حقاً ومن وراءه الجنة خالداً فيها أبداً و﴿لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُۚ﴾ الحياة الدائبة المتحركة دوماً نحو الجمال والكمال بما قدمته أيديهم من جمال المعرفة وكمال العبودية. حيث «الفعلان» تلمح إلى حركة، فكما أصل الحياة حركة، كذلك حركة الحياة حركة فوق حركة، وهي الكافلة كل مزاياها الكاملة بكل زواياها، الحافلة كل الغايات المسرودة لها، المترقبة المرغوبة منها، دائبة الارتقاء إلى كمالاتها دون أية وقفة في تلك الحيوية الأخروية العالية، وترى كيف تحصر الحياة الدنيا في لهو ولعب وهي مدرسة الصالحين والسابقين والمقربين؟ وحين تحصر هي فيها كما خلق الله فما هو تقصير الملتهين بها اللّاعبين فيها؟

«هذه» هنا المشيرة إلى حياة المشركين وسائر الكافرين، تخصهما بهم بسوء اختيارهم، فهي - إذاً - الدنيا الدنية، ولكنها الدنيا الدانية - وهي أقرب حياة إلينا - والعالية الزاكية للصالحين الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، إذا فهم دنياهم آخرة، والطالحون هم آخرتهم دنياهم، وأين دني من دنيا وآخرة من آخرة! فأهل الآخرة هم في الدنيا: «جزناها وهي خامدة» فنار الآخرة لهم خامدة هامدة، وأهل الدنيا هم في الآخرة ليست لهم خامدة، بل هي زائدة مايدة.

أجل والحياة الآخرة هي الفائضة بالحيوية الفائقة التصور، دون حجب وزحامات وموتات واصطدامات، مهما كانت الحياة الدنيا حياة إيمانية محضرة لها فضلاً عن الملهية، فبين الحياتين بون بعيد، والله من وراءنا رقيب عتيد، فـ «يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الحيوان وهو يسعى لدار

---

(١) سورة طه، الآية: ٧٤.

الغرور»[1]، وكما أن الحياة الجنينية هي حياة التحضير للدنيا، كذلك الحياة الدنيا هي حياة التحضير للأخرى، وكما أن هذه الأدنى هي الحيوان للأجنّة، كذلك تلك الأخرى العليا هي الحيوان لولائد الدنيا، وهي خير مدرسة بأفضل المدرسين ليستكمل فيها المكلفون حتى يحصلوا على محاصيل الحياة العليا فـ ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ هي الدانية إلينا دنوا أكثر من كل حياة عقلية، لولاها لما كانت الحياة الآخرة هي الحيوان، كما وهي الدانية دناءة أكثر من كل دانية في الحياة لمن أخلد إليها واتبع هواه وكان أمره فرطاً.

فلا هي ذميمة دميمة في حد ذاتها لأنها مدرسة الصالحين، ولا هي خيّرة في حد ذاتها لأنها - فقط - ذريعة للدار الحيوان، فهي حين تتخذ أصلاً يبصر إليها ذميمة دميمة، وهي نفسها حين تتخذ فرعاً يبصر بها صالحة مبصرة.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

انهم يعيشون تناقض العقيدة، أو تناقض الفطرة والعقلية والعملية ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ كمثال على ظرف تقطّع الأسباب إلّا الله ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ مهما كانوا به كافرين ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ عقيدياً أم - لأقل تقدير - عملياً، أن ينسبوا نجاتهم إلى غير الله من الأسباب التي ضلت عنهم وتقطعت وهم في خضمّ البحر على الفلك! وهذه التناقضة هي طبيعة الحال لكل من لم يكمل إيمانه مهما كان مؤمناً فضلاً عن المشرك والملحد، فجرس الفطرة يسمعه أن لا إله إلّا هو، ثم شرس الغفلة والإنجذاب إلى الطبيعة يصمّه فـ ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ولماذا؟

(١) الدر المنثور ٥: ١٤٩ - أخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي جعفر عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا عجباً..

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ اشراكاً قاصداً للكفر بالنعمة، ولكي يأخذوا حرياتهم في التمتع بمتع الحياة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ماذا قدمت أنفسهم وبه يعذبون.

واللام هنا قد تعني الغاية، بياناً للغاية من إشراكهم تقصداً، حيث الإشراك خلاف الفطرة فلا بد من التخلف عنها من غاية.

وأخرى تعني أمر التهديد كـ ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1] ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾[2] والجمع بينهما اجمع وأجمل.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

ألم يروا آيات الله ونعمه في الآفاق وفي أنفسهم؟ فإن لم يروها ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا...﴾؟ جعلاً تكوينياً وتشريعياً مهما حصل فيه أو يحصل من اللّاأمن واقعياً خلاف الشرعة الإلهية، حيث واقع الأمن فيه - على أية حال - أكثر مما سواه، وشرعة الأمن فيه لا تقاس بما سواه! ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ نفسه عن الهجمات والتهديمات، وآمنا فيه كل عاكف وباد «و» الحال إنه ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ تخطفاً دونما أي تعطّف في أموالهم وأعراضهم وأنفسهم، فلقد كان أهل الحرم المكي - ويكونون - يعيشون آمنين، يعظمهم الناس من أجل الحرم المحترم، ومن حولهم القبائل تتناحر وتتخطف، فلا تجد الأمان إلّا لجأ إلى الحرم، فيا عجباً أن يجعلوا من بيت الله مسرحاً ومأمنا لباطل الأصنام إيماناً بها ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ معبوداً سوى الله أياً كان ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ثم ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ والكفر بنعمته هو الذي أدخلهم جحيم الكفر بوحدته افتراء عليه كذباً:

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٥.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

اللّهم لا أظلم ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ وهم افتروا عليه شركاء وأنداداً، ثم إذا جاءهم الحق التوحيد بوحي منه كذبوا به ﴿أَلَيْسَ﴾ إذا ﴿فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ ومأوى ومقاماً ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ كما كانوا آوين إلى جهنم الكذب والتكذيب، ثاوين في كفرهم بالله العظيم! وهنا خير ختام في السورة بخير الأنام وهم المجاهدون في الله، المحسنون:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾:

وقد يختلف ﴿جَاهَدُوا فِينَا﴾ عن «جاهدوا في سبيلنا» حيث الأول أخص، والجهد في جهاده أمسّ، وعبارة أخرى عن ﴿جَاهَدُوا فِينَا﴾: جاهدوا في الله كما ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ﴾[1] المخاطب فيها أهل الله الخصوص حيث تتلوها - ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ...﴾[2] [3].

ففي (٣٠) موضعاً من القرآن المذكور فيها المجاهدة بصيغها المختلفة لا نجدها في الله إلّا في هاتين، ثم البقية بين في سبيل الله أم مطلقها بالأموال والأنفس أماذا؟ مما يدل على أن المجاهدة في الله هي القمة المرموقة منها بين درجاتها.

فهنا جهاد في سبيل الله يؤمر به كل من يؤمن بالله، ثم جهاد في الله

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.
(٢) سورة الحج، الآية: ٧٨.
(٣) في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: هذه الآية لآل محمد عليهم السلام ولأشياعهم.

يؤمر به أهل الله الخصوص، فيعدهم هنا ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ وهي غير سبيل الله الواضحة لكل من يجاهد فيها.

فالسبل الربانية الغامضة التي لا يهتدي إليها إلّا بالجهاد في الله، وهي عدة حسب عدّات الجهاد في الله عدّاته، إنها ليست سبيل الله المعروفة لكافة المكلفين المأمورين بالجهاد فيها.

إذاً فللجهاد ترتيب ثلاثي: في سبيل الله - في الله - ثم الاهتداء إلى سبل الله، والمحسنون هنا هم ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا . . . وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ معية الرحمة الواصبة التي فيها هداية سبل الله معرفية وعلمية وعملية أماهيه، وهي بصيغة أخرى جنّة معرفية.

ثم «في الله» و«فينا» كما تختلفان رتبة عن ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كذلك بينهما، فقد يفوق الجهاد في الله - كما في آية الحج للوسطاء الشهداء بين الرسول والأمة - يفوق الجهاد فينا كما هنا.

فهو في الله لا يعني إلّا الله لأنه الله، جهاداً معرفياً أو عملياً، وهو فينا قد يعني صفات الله كما وأسماؤه الحسنى حيث الجمع في «فينا» كاضرابها يعني جمعية الصفات، ثم هو في سبيل الله أدنى الجهاد مهما عم التكليف به لكافة المكلفين.

فـ ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ هم الوسط بين الذين جاهدوا في الله والذين جاهدوا في سبيل الله، والجهاد في الله بجمعية صفاته، ألّا ينحو فيه المجاهد إلّا منحاه، تغافلاً عن نفسه ومناها إلّا إياه، متديناً إلى الله متدلياً بالله، وعند ذلك ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ ككل، لأنه استخدم جهاده «فينا» ككل، وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى.

وهكذا يعدنا ربنا - ومن احسن من الله وعداً - إن الجهاد في الله يخلّف الاهتداء إلى سبل الله، وهي سبل السلام على ضوء نوره وكتابه

المبين، بتبيين رسوله الأمين: ﴿... قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[1].

فالجهاد في الله هكذا سبيل إلى ﴿سُبُلَنَا﴾ وهي سبيل إلى «صراط مستقيم» وهو الغاية المرموقة المقصود للسالك إلى الله، والطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق! فهناك سبل المرسلين: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[2].

وهنا سبلهم وكافة المجاهدين ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[3]، ثم: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[4]. فالمجاهدات والارتياضات غير الموافقة لشرعة القرآن هي كلها هباء وخواء، قالة أم حالة أم فعالة، فـ «لا قول إلا بعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بإصابة السنة» وهي سنة الله على ضوء القرآن والسنّة.

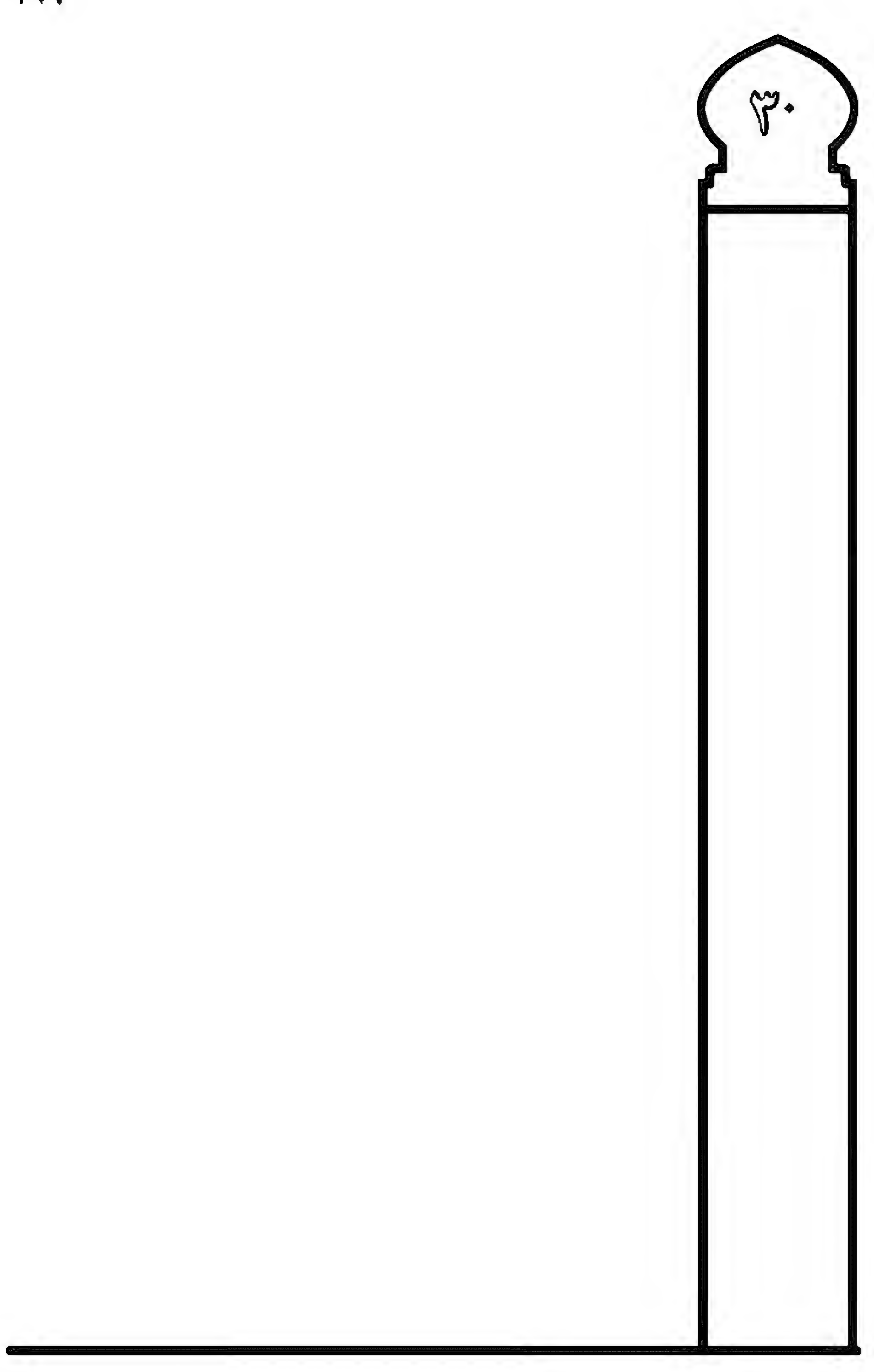


(١) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٢.

(٣) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.


٣٠

مكيّة وآياتها ستّون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ
سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ
وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ
ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ
﴿٧﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا
بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾
أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ
أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ
رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ
تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم
مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ

ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

سورة «الروم» هي المنقطعة النظير بين سائر السور القرآنية تسمّياً بإسم قطر من أقطار الأرض، في حين لم تسمّ سورة بقطري الوحي القرآني مكة والمدينة، وعلّ ذلك الإختصاص لملابسة خاصة وقت نزولها تقتضي تلك التسمية، هي إن غلب الروم الموحدين في أدنى الأرض من المشركين الإيرانيين كان قد قوى ساعد المشركين في الجزيرة أن غلبوا إخوانهم، وكسر ساعد المسلمين إن غلب إخوانهم من أهل الكتاب، فليسمّ الروم غالباً ومغلوباً جبراً لذلك الكسر في نفوس المسلمين، وزيادة تحمل ملحمة غلب الروم على الفرس في بضع سنين.

وليست لتقف السورة - بعد - على تلك الغلبة الموعودة في حدود ذلك الحادث الجلل، فإنما هو مناسبة وقتية لينطلق بهم فيها إلى آماد أوسع من غلب المسلمين مشركي الجزيرة، ويا له ولغلب الروم من قِران عجيب إذ غلبوا في بدر وهم أذلة، وغلب معهم الروم بعد تسع من ذلك الوعد على الفرس، وهم أذلة و﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾.

ويا له من غزير النصر الموعود والمسلمون في مكة مهدّدون مستضعفون، تتواتر عليهم النوازل السوء في كل الحقول، وليسوا يعتمدون إلّا على نصر من الله وروح ورضوان!

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾

هي الثانية في المكيات الأربع حسب ترتيب التأليف، والثالثة بعد الأولى منها وهي البقرة المدنية الوحيدة في ﴿الٓمٓ﴾ والمجموع خمس رمزاً إلى ما يعرفه من خوطب بها فإنها من مفاتيح كنوز القرآن.

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾:

﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ هنا هي أرض الحجاز بقرينة الروم، وهم قوم كانوا يسكنون ساحل البحر الأبيض المتوسط بالمغرب، لهم امبراطورية شاسعة إلى أعماق الشامات وهي سوريا والأردن والقدس ولبنان والعراق الحالية.

ف ﴿أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ هي الأدنى من الروم إلى الحجاز، فقد غلب الروم في عقر بلادهم بأبعد الأعماق، أن حلّقت حرب الفرس على الروم كله فغلبت عليهم في أدناها إلى الحجاز وهي أبعدها من الفرس، مما يدل على آماد الانكسار الشامل كل بلادهم: و﴿غَلَبِهِمۡ﴾ هنا مصدر بمعنى المفعول إذ احتفت بـ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ... سَيَغۡلِبُونَ﴾، وغلبهم عليهم بعدما غلبوا، في أصلها وفي الوقت المحدد ﴿بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ تحمل ملحمتين اثنتين، أن يقوم هؤلاء المكسورون المحطّمون عن بكرتهم على سوقهم لحدّ سيغلبون كما غلبوا، وذلك في أقل من عشر سنين وهي التسع الموافي لغلب المسلمين في بدر، قراناً منقطع النظير في غلب الضعفاء المؤمنين على الأقوياء الأغوياء المشركين، وهذان لا يلائمان التقويمات العسكرية في نفس الوقت الذي غلبت الروم انهم ﴿سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾.

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾:

﴿بِضۡعِ﴾ هي مادون العشرة، من ثلاثة إلى تسعة، كما في السنة[1] وفي

---

(١) في الدر المنثور ٥: ١٥١ - أخرج في أحاديث عدة عن النبي ﷺ أن البضع ما بين الثلاث إلى العشر، رواه عنه نيار بن مكرم وقتادة.

اللغة، وهذه نبوءة صادقة بائقة تبشر بتلك الغلبة الفائقة، يعرف الرسول ﷺ مداها، مهما لم يحد في ﴿بِضْعِ سِنِينَ﴾ إلا تقريباً قريباً، وعلّه كيلا يفاجأ الوحي بتكذيب في عجالة عارمة، فلقد كانت فارس ظاهرة على الروم مما كان يحبه المشركون، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم على الفارس لأنهم أهل كتاب يشاركونهم في التوحيد والإيمان الكتابي، فلما أنزلت ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ قالوا - فيما قالوا -: يا أبا بكر إن صاحبك يقول: إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين؟ قال: صدق، قالوا: هل لك أن نقامرك؟ فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين فمضت السبع ولم يكن شيء ففرح المشركون بذلك فشق على المسلمين

فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: ما بضع سنين عندكم؟ قالوا: دون العشر - قال: اذهب وازدد سنتين في الأجل، قال فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس(١) وقد غلب المسلمون حينه ببدر ففرح بذلك المؤمنون فرحتين»(٢).

---

(١) المصدر أورد بهذا المضمون أو ما يقرب منه أحاديث عدة عن الرسول ﷺ.

(٢) المصدر ومما أخرجه فيه بهذا الصدد ما عن ابن عباس في الآية قال: قد مضى كان ذلك في أهل فارس والروم وكانت فارس قد غلبتهم ثم غلب الروم بعد ذلك والتقى رسول الله ﷺ مع مشركي العرب والتقى الروم مع فارس فنصر الله النبي ﷺ ومن معه من المسلمين على مشركي العرب ونصر أهل الكتاب على العجم، قال عطية وسألت أبا سعيد الخدري عن ذلك فقال: التقينا مع رسول الله ﷺ ومشركي العرب والتقت الروم وفارس فنصرنا على مشركي العرب ونصر أهل الكتاب على المجوس فذلك قوله: ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله. وفيه (١٥٢) أخرج ابن جرير عن عكرمة ان الروم وفارس اقتتلوا في أدنى الأرض - قال: وأدنى الأرض يومئذ أذرعات بها التقوا فهزمت الروم فبلغ ذلك النبي ﷺ وأصحابه وهم بمكة فشق ذلك عليهم وكان النبي ﷺ يكره أن يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم وفرح الكفار بمكة وشتموا فلقوا أصحاب النبي ﷺ فقالوا انكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم فأنزل الله ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢﴾ [الروم: ١-٢] فخرج أبو بكر إلى الكفار فقال: فرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا فلا تفرحوا - إلى آخر القصة».

وذلك مما يوحي بترابط وثيق عميق بين الكفر والشر أياً كان وأيان، وكذلك الترابط بين كتلة التوحيد والإيمان.

وهكذا انتبه المؤمنون على عهد الرسول ﷺ على ضوء دعوته الشاملة أن ليس الإيمان محصوراً بحصار زمان أو مكان كما الشرك، فالكفر ملة واحدة كما الإيمان، فهما خارجان عن كافة الحدود التاريخية والجغرافية والجنسية والقومية أماهيه؟

فالمعركة في صميمها هي معركة الإيمان والكفر بين حزب الله وحزب الشيطان أياً كانوا وأيان، والمسلمون يد واحدة على من سواهم تسعى بذمتهم أدناهم، دون أن تفصل بينهم حدود الزمان والمكان وسائر الأبعاد والألوان، حيث تجمعهم كلمة التوحيد، فلهم إذا توحيد الكلمة في كافة الأعصار والأمصار.

وما أحوج المسلمين اليوم أن يدركوا طبيعة المعركة المتواصلة بين الكتلتين، فلا تلهيهم أعلام مزخرفة زائفة من الضفة الكافرة، المخيّلة إليهم أنهم أحزاب متفرقة، فإنهم ككلّ يحاربون الموحدين على العقيدة مهما تنوعت ألوان العلل وقضايا الأسباب.

هنا ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ إياهم في الحربين المقارنتين، كما ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ﴾ الله ﴿مَن يَشَاءُ﴾ فقد حصل بعد الرسول ﷺ في حرب المسلمين الفرس فتغلبوا عليهم وهذا من تأويل آية النصر[1] ثم نصر متواصل للمسلمين ما قاموا بشرائط الإسلام: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ

(١) نور الثقلين ٤: ١٦٨ في روضة الكافي ابن محبوب عن جميل بن صالح عن أبي عبيدة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية فقال: يا أبا عبيدة إن لهذا تأويلاً لا يعلمه إلّا الله والراسخون في العلم من آل محمد ﷺ أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وأظهر الإسلام كتب إلى ملك الروم كتاباً وبعث به مع رسوله يدعوه إلى الإسلام وكتب إلى ملك فارس كتاباً يدعوه إلى الإسلام وبعثه إليه مع رسوله فأما ملك الروم فعظم كتاب رسول =

إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَۖ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[1].

﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ الله فيشاءه الله، ومن يشاء منهم النصر بتقديم أسبابه فيشاء الله له النصر بأسباب غيبية، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بكتلة الإيمان القائمة بشرائطه، فهناك - إذاً - على طول الخط انتصارات متصلة الجهات، متشابهة في شروطات حسب القابليات والفاعليات ثم ﴿ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[2].

وعلى أية حال فـ ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ﴾ في النصر ﴿مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ لا سواه، كما «له الأمر من قبل أن يأمر به وله الأمر من بعد ان يأمر به بما يشاء»[3] تكوينياً أو تشريعياً.

= الله ﷺ وأكرم رسوله وأما ملك فارس فإنه استخف بكتاب رسول الله ﷺ ومزقه واستخف برسوله وكان ملك فارس يومئذ يقاتل ملك الروم وكان المسلمون يهوون أن يغلب ملك الروم فارس وكانوا لناحيته أرجى منهم لملك فارس فلما غلب ملك فارس ملك الروم كره ذلك المسلمون واغتموا به فأنزل الله بذلك كتاباً قرآناً: ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . . .﴾ [الروم: ١-٢] يعني غلبتها فارس في أدنى الأرض وهي الشامات وما حولها ﴿وَهُم﴾ [الروم: ٣] يعني فارس يغلبهم المسلمون ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ . . .﴾ [الرُّوم: ٤] فلما غزى المسلمون فارس وافتتحوها فرح المسلمون بنصر الله عز وجل.

قال: قلت: أليس الله عز وجل يقول: في بضع سنين «وقد مضى للمؤمنين سنون كثيرة مع رسول الله ﷺ وفي إمارة أبي بكر وإنما غلب المؤمنون فارساً في إمارة عمر؟ فقال: ألم أقل لك أن لهذا تأويلاً وتفسيراً، والقرآن يا با عبيدة ناسخ ومنسوخ أما تسمع لقول الله عز وجل: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ [الرُّوم: ٤] يعني إليه المشية في القول أن يؤخر ما قدم ويقدم ما أخر في القول إلى يوم يحتم القضاء بنزول النصر على المؤمنين وذلك قوله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ④ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ ⑤﴾ [الروم: ٤-٥] أي يوم يحتم القضاء بالنصر».

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١١.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٩.

(٣) نور الثقلين ٤ : ١٧٠ في الخرائج والجرائح في أعلام الحسن العسكري عليه السلام ومنها ما قال أبوها سأل محمد بن صالح أبا محمد عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ فقال: . . .

﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾:

﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ قد يكون مفعولاً مطلقاً لـ ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ أم مفعولاً لمثل «صدقوا» وهو على أية حال تأكيد أن: «سيغلبون» وعد من الله محتوم و﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ حيث الخلف ليس إلّا عن جهل أو عجز أو بخل أو ظلم أو نسيان إمّا ذا من نقص فيمن وعد، والله بريء عن كل ذلك فلا خلف لوعده، فإنه صادر عن علمه وإرادته الطليقة وحكمته العميقة، قادراً على تحقيقه، ولا رادّ لإرادته، ولا معقّب لحكمه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعد الله، ولا أنه لا يخلف الميعاد، وهم غير المؤمنين بالله، انهم لا يعلمون كناس منقطعين عن الأيمان ووحيه وعد الله وإنجازه، فحقاً إنهم لا يعلمون، وإنما:

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝٧﴾:

هنا ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بديلاً عن «لا يعلمون» إعلان صارخ أن علمهم هذا جهل أمام العلم الحق الحقيق بالإنسان، ثم هي استثناء عن «لا يعلمون» تستثني ضئيلاً من العلم يختص ظاهراً من الحياة الدنيا، فأصل العلم هو العلم الإيمان الإيقان بالمبدء والمعاد وما بين المبدء والمعاد، من الواجب معرفته أخذاً من المبدء وحياً وسواه، وانتهاء إلى المعاد لقاء للرب.

ثم العلم بالحياة الدنيا إذا كان ذريعة إلى الشعور الكامل بزوالها، ومنظاراً للنظر إلى عواقبها، ومعياراً للعمل الصالح فيها لأخراها، فهو علم بباطنها إبصاراً بها حيث تبصر أصحابها، دون الإبصار إليها كمنتهى وغاية فإنها - إذاً - تعميهم.

هؤلاء الأغبياء إنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فقد يعلم باطنها بملكوتها ويركن - رغم ذلك العلم - إليها، أو يعلم كل ظواهرها ومظاهرها دون باطنها فأجهل بالحق وأنكى، ذرهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، ألم يعلموا أن لها مبدءً ومعاداً؟.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨)﴾:

فقضية تكوينهم أن يفكروا كيف كوّنوا ومن كوّنهم ولماذا؟ وأن يتفكروا في أنفسهم - دون اقتصار على ظاهر من الحياة الدنيا - يتفكروا أنه ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: بسبب الحق وغايته ومصلحته ومصاحبته، وإلّا بـ «أجل مسمى» حيث الكون بنفسه دليل على ضرورة نهايته كما يدل على بدايته للفقر الذاتي فيه، «و» لكن ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ وهم النسناس منهم ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ في ربوبية الجزاء يوم الآخرة ﴿لَكَافِرُونَ﴾ كفراً مصلحاً عامداً، أم تجاهلاً وتغافلاً.

ويكأنهم منفصلون عن نفوسهم الإنسانية إذ انقطعت عن أنفسها وانجذبت إلى ظاهر من الحياة الدنيا، فلا تسمح لهم أن يبصروا بها حتى يتبصّروا وإنما يبصرون إليها فيعمهون كل عاقل ذي نفس إنسانية لمّا يسبر أغوار نفسه وهو يرى خلق الكون، لا بد وأن يرى له غاية مقصودة ترجع إلى الكون نفسه وأنفس نفيسه وهو الإنسان، فلو لم تكن حياة أخرى بعد الدنيا لكان الخلق لغواً، أم لغاية جاهلة قاحلة هي الحياة الدنيا! فكيف إذا هم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا﴾ دون كل ظواهرها، ظاهراً من حيونة الحياة ضئيلاً زهيداً قليلاً هزيلاً، متبهّجين بها، مخلدين إليها، متمتعين بها، مستزيدين متزايدين بشهواتها وزهواتها، ملتهين بلهواتها، كأنها هي الحياة لا سواها ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.

«هم» الثانية هنا تأكيد أنهم لا سواهم غافلون عن الآخرة، حيث العالم بكل ظواهرها، والعالم بباطن لها أم كل باطن لها، لا بد وأن يذكر الآخرة المتلمعة منها.

ولأن الغفلة ليست إلّا عن أمر حاصل، فلا بد أن العلم بالدنيا كما يحق يضم العلم بحق الأخرى، فالحياة الآخرة علماً بها وتحقيقاً لها هي من

محاصيل الحياة الدنيا، حيث النظر الصائب إليها يذكّر الناظر الحياة الأخرى، والعمل الصالح فيها يحضّر حياة الحيوان في الأخرى.

كل ظواهر الحياة الدنيا محدودة معدودة، فضلاً عن ﴿ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ مهما بداً لأهلها شاسعاً ناصعاً، والآخرة هي الحلقة الأخيرة الدائبة في سلسلة النشآت الحيوية، فكلما بعدت آماد العلوم والأنظار في هذه الحياة، طليقة عنها إلى حقيقتها الحاضرة والمستقبلة، واتسعت الآفاق في تلك المطلّعات والنظرات، كانت حصيلة العلم بالآخرة أزهى وأضحى، وأصحابها أبصر بالحق الطليق وأبعد عن العمى، وعلى حدّ قول الإمام علي عليه السلام في وصفها: «من أبصر بها بصرته ومن أبصر إليها أعمته».

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩﴾:

وإذا لم يعلموا هم في أنفسهم إلّا ظاهراً من الحياة الدنيا إذ لم يتفكرا فيها فغفلوا عن الأخرى ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ سيراً آفاقياً بعد التغافل عن السير الأنفسي ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ نظر التعقل والتفكير والإعتبار ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من المشركين أضرابهم، أن أخذهم عذاب الهون بما كانوا يكسبون وقد ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ عدّة وعدّة ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ إثارة الزرع والعمار ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ بمختلف العمار ﴿أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ وهم كما أنتم جاءتهم ﴿رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ فجحدوا بها ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ أن يعذبهم دون حجة ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بما كذبوا وما عذّبوا.

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾:

﴿عَٰقِبَةَ﴾ خبر مقدم لـ «كان» فقد يكون اسمها ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أم ﴿أَن

﴿كَذَّبُوا﴾ و«السوأى» مفعول أساءوا، وهي كالحسنى وضدها في المعنى، مؤنث الأسوء: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١] ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾[٢].

فالمعنى على كونها الاسم المؤخر أن عاقبتهم أسوء من حاضرتهم، فحياتهم الحاضرة سيئة بكفرهم وعذاب الاستئصال، والحياة العاقبة لهم من الرجعة والبرزخ والقيامة هي السوأى، أن كذبوا بآيات الله، فقد كان السوأى عاقبتهم بما كذبوا، وليست السوأى هي الأسوء من سوئهم لأنه خلاف ﴿وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[٣] بل هي الأسوء من دنياهم، رغم انها دار الحَيَوان.

وعلى الثاني، ثم كان التكذيب بآيات الله عاقبة الذين أساءوا السوأى، إن خلّفت سوآهم في سيآتهم أن كذبوا بآيات الله.

ولكن ﴿السُّوأَى﴾ لا تصلح مفعولاً لـ ﴿أَسَٰٓـُٔوا﴾ فإنها لا تُساء إلّا تحصيلاً للحاصل بل الأحصل، ثم التأنيث لا يناسب المقام، بل هو - إن صح - أساء الأسوء، أي: عملوا الأسوء، كما ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٤].

فالتعبير الصحيح الفصيح عن مفعولية ﴿السُّوأَى﴾ هو «عملوا الأسوء» تبديلاً لكل من الفعل والمفعول، ثم يبقى - إذاً - ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ عطفاً لا يناسب السبب ﴿أَن كَذَّبُوا﴾ لأنه مع ﴿السُّوأَى﴾ ردفاً مفعولياً، لا مع ﴿كَذَّبُوا﴾ ردفاً سببياً.

إذاً فالإسمية لها هي المتعينة، إن الحياة السوأى هي عاقبتهم في رجعة

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٥.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٤٠.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٢٧.

ثم برزخ ثم القيامة الكبرى، رغم أن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون، وقد بدلوها بسوأى الحياة بما كانوا يعملون.

إن التكذيب بآيات الله والاستهزاء بها هما الحياة الجهنمية في الأولى، حيث يخلِّفان أسوءَ الأعمال بأسوء الأحوال، فعاقبتهم هنا عذاب الإستئصال، وهي الجهنمية الأولى، ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟﴾ هكذا وابتلوا باستئصال هي ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ التي تعقبهم بعد الموت، برزخاً ورجعة وقيامة كبرى، خلاف ما ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[1].

و﴿أَن كَذَّبُوا۟...﴾ قد تكون بياناً لـ «أساءوا» دون حاجة إلى تقدير أم سبباً لـ «السوأى» أم هما معنيان جمعاً بينهما، إن إساءتهم هي تكذيبهم واستهزاءهم، وهي هي السبب إن كان عاقبتهم السوأى، وهي أسوء العواقب على الإطلاق دون مفضل عليه هو السوء في الدنيا، أم بمفضل عليه هو عذاب الاستئصال بتكذيبهم، وعلّهما معاً معنيّان، ولمعرفة العاقبة السوءى للذين أساءوا وكذبوا بآيات الله، يؤمرون أن يسيروا في الأرض، دون انعزالية عن ذلك السير المبصر المذكر، ساكنين في أمكنتهم كالقوقعة، أم سائرين في الأرض حيوانياً وشهوانياً، وإنما هو السير الإنساني العاقل الكافل بالإبصار لهؤلاء الغافلين عن المساير والمصاير.

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾:

منه البداية ومنه الإعادة والرجوع إليه في النهاية، إعادة إلى حياة في الأخرى، ثم رجوعاً إلى الله جزاءً حساباً، ثواباً وعقاباً، والبداية هنا هي أعم من الإعادة حين يعنى منها الإعادة للحساب كما تؤيده ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أم هما سيان، حيث يبدأ كل خلق ثم تقوم قيامة الإماتة والتدمير، الشاملة لكل خلق، ثم يعيد الله كل الخلق قسماً للرجوع إليه حساباً، وقسماً

(١) سورة يونس، الآية: ٢٦.

بلا حساب، بل هو أمكنة السكنى لهم كما في الحياة الدنيا، مهما كانت أوسع كما الآخرة هي أحيا منها.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾:

الإبلاس هو الإياس مع حيرة، وتراه كيف يختص بـ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ وهم آيسون في البرزخ كما عند الساعة؟ علّ الساعة هنا هي ساعة الموت مستمرة إلى ساعة الساعة فهم فيها ككل مبلسون! أم أن إبلاسهم في البرزخ برزخ من الإبلاس وهو إياس مع رجاء، إذ لم يجزوا بعد جزاءهم الأوفى، فقد يبقى لهم رجاء إلى رحمة الله حيث يرون خفيف العذاب، ويوم تقوم الساعة يتم إبلاسهم بما يرون من شديد العذاب ومديده، فاليوم إذاً هو يوم الإبلاس الإفلاس وقد فات رجاء الخلاص ولات حين مناص، ولم يكن في البرزخ كامل الإبلاس، ولم يكن إياسه - إذاً - إبلاساً، إذ كان معه رجاء! وإضافة إلى ذلك الإبلاس الإياس ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ وقد كانوا يرجون شفاعتهم فانقطع الرجاء، إياساً بعد إياس.

وقد تعني ﴿يُبْلِسُ﴾ كلا الإبلاسين، من الله ومن شفعائهم ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أتراهم كانوا بهم كافرين يوم الدين؟ وصحيح التعبير وفصحيه «كفروا بشركائهم» أو «يكفر بعضهم ببعض»! أم «كانوا قبل الساعة» يوم الدنيا؟ وقد كانوا بهم مؤمنين يرونهم شفعاءهم عند الله! قد تعني «كانوا» بين النشأتين وهم في البرزخ حيث يكفرون هناك بشركائهم، ولكن كفر معه رجاء حيث الشفاعة سلبية وإيجابية لا تظهر إلّا يوم القيامة، ففيه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ والحال أنهم «كانوا» قبله بشركائهم كافرين.

أم إن «كانوا» تعبير ماض عن مستقبل متحقق الوقوع، عناية إلى كفرهم بهم يوم الدين، أم هي تشمل كفرهم بهم في البرزخ والأخرى.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾:

هؤلاء المجرمون يتفرقون عن المؤمنين: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾(١) خلاف ما كانوا يحسبون: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(٢).

كما هم يتفرقون فيما بينهم وبين شركائهم، وبينهم وبين أنفسهم، تفرقاً عن الحب يوم الدنيا، حيث ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٣) فتفرق الفرار بعضهم عن بعض ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾(٤) وتفرقا في دركاتهم هناك حسب دركاتهم في الأولى ومن التفرق الأول:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾:

الروضة هي مستنقع الماء والخضرة وهي في الجنة: ﴿... وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾(٥) و﴿رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ هي محاسنها وملاذها بمياهها وخضرها وسائر مشتهياتها مادية وسواها.

و﴿يُحْبَرُونَ﴾ من الحبر: الأثر المستحسن، فقد تعني انهم يظهر عليهم حبار نعيمهم ككلّ من ملاذ سمعية وبصرية وذوقية ولمسية وشمية أمّاهيه من مادية أو روحية دون إبقاء، فإنهم هناك ضيوف الله وفي دار كرامة الله، فلا حدّ لحظوتهم.

---

(١) سورة يس، الآية: ٥٩

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢١.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

(٤) سورة عبس، الآيات: ٣٤-٣٦.

(٥) سورة الشورى، الآية: ٢٢.

ليس إنهم يلتذون بما كان محرماً عليهم يوم الدنيا، بل بالحلّ المستدام بكل وئام وإكرام وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة قال الله: أين الذين كانوا ينزهون أسماعهم وأبصارهم عن مزامير الشيطان ميزوهم في كثب المسك والعنبر ثم يقول للملائكة أسمعوهم من تسبيحي وتحميدي وتهليلي، قال: فيسبحون بأصوات لم يسمع السامعون بمثلها قط»(١).

أجل وليس الصوت الحسن محرماً هنا لحسنه، وانما هو الملهي حسناً وسواه، وهو مزمار الشيطان(٢) دون ذكر الرحمن في قرآن وسواه حيث التحسين فيه مرغوب مرحوب، وتلك هي ضفة الايمان:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ١٦﴾:

وأين محضرون في العذاب ومحبرون في روضة الثواب؟ رحمة على رحمة وعذاباً فوق العذاب؟

(١) الدر المنثور ٥: ١٥٣ - أخرج الديلمي عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: . . . وفيه أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي هريرة قال قال رجل يا رسول الله ﷺ إني رجل حببت إلى الصوت الحسن فهل في الجنة صوت حسن؟ فقال: أي والذي نفسي بيده إن الله يوحي إلى شجرة في الجنة أن اسمعي عبادي الذين اشتغلوا بعبادتي وذكرى عن عزف البرابط والمزامير فترفع بصوت لم يسمع الخلائق بمثله من تسبيح الرب وتقديسه، وفيه أخرج الحكيم الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ من استمع إلى صوت غناء لم يؤذن له أن يسمع الروحانيين في الجنة، قيل ومن الروحانيون يا رسول الله ﷺ قال: قراء أهل الجنة.

(٢) نور الثقلين ٤: ١٧١ عن المجمع بسند متصل عن أبي أمامة الباهلي ان رسول الله ﷺ قال: ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين تغنيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزمار الشيطان، ولكن بتمجيد الله وتقديسه». وفيه عن أبي الدرداء قال كان رسول الله ﷺ يذكر الناس فذكر الجنة وما فيها من الأزواج والنعيم وفي القوم أعرابي فجثا لركبته وقال يا رسول الله ﷺ هل في الجنة من سماع؟ قال: نعم يا أعرابي، ان في الجنة نهراً حافتاه الأبكار من كل بيضاء يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط فذلك أفضل نعم الجنة، قال الراوي سألت أبا الدرداء بم يتغنين؟ قال: بالتسبيح.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾:

«سبحان» اسم مصدر وهو التسبيح وقد جعل علماً له ويستعمل استعماله، ولكن حاصل المصدر ملحوظ معه على أية حال، وهو هنا مفعول محذوف هو طبعاً سبّحوا أو أسبح أم هما، إن الله يسبح نفسه تنزيهاً عما لا يناسب ساحته، ويأمرنا كذلك ان نسبحه كما سبح هو نفسه، ولكن ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ توّصل تسبيحنا له إذ هو تعالى لا يسبح نفسه - فقط - في هذه الأوقات، وإنما نحن نسبحه فيها كما هو يسبح نفسه دوماً ودونما انقطاع بآياته الآفاقية والأنفسية إمّا هيه من خلقه تسبيحاً منفصلاً، كما وان ذاته وصفاته ذاتية وفعلية تسبيحات لنفسه المقدسة.

﴿فَسُبْحَٰنَ﴾ هنا تفريع على ما قدّم من مشاهد الدنيا والآخرة لضفّتي الإيمان والكفر، بفوز المؤمنين أنهم ﴿فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ وخوض الكافرين في الجحيم انهم ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾، إذا كانت عاقبة الذين أساءوا السوأى وعاقبة المؤمنين الحسنى ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أيها المؤمنون. . .

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ هنا يحلّق على الأوقات الرئيسية المؤقتة للمفروضات الخمس الرئيسية، وعلى هوامشها سائر الأوقات حيث تتبعها.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ تختص الحمد لله بالله في كل مكان المعبر عنه بالسماوات والأرض، وقد توسطت «له الحمد» لأمكنتها بين سبحان الله في أزمنتها، تحليقاً للحمد له على كل زمان ومكان دون إبقاء، فهي جملة معترضة في أدب اللفظ، وصحيحة بدورها في حدب المعنى.

ولأن ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ هي بإمكان المكلفين بها ككلّ، تاتي هنا بظاهرة الأمر، ولكن الحمد لله ليست هي بإمكان الكل لأنها وصف له ايجابي

فـ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ١٦٠﴾[١] تأتي هنا الظاهر الخبر ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ وما أجملها في صيغة التعبير، وما ارتبهما في ترتيب الذكر العبير، مهما دلت آيات أخرى على فرض التسبيح بالحمد، وقد تعني هذه الأوقات الأربع الخمس من أوقات الفرائض الخمس بضم العشائين مع بعض في «عشيا» الشامل لطول الليل، الحاوي لفرضيه، دون «تعشون» المختص ببداية الليل الخاصة بفرضه الأوّل: المغرب، وهذا هو السبب لاختلاف «عشيا» اسماً عن الثلاثة الأخرى «تمسون - تصبحون - تظهرون» أفعالاً.

فـ ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ هي العصر المحدّد في النهاية بغروب الشمس، كما ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ هي الفجر المحدد بطلوعها: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾[٢] - ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ٣٩ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ٤٠﴾[٣].

هنا وهناك نؤمر بالتسبيح بالحمد، حيث التسبيح وهو الأصل في ذكر الله في صلاة وسواها، إنه يستكمل بالحمد، أن نحمده مسبحين إياه عما لا يحمد حمده به من صفات زائدة على الذات، أو محدودة بحدود أفكارنا وعقولنا، فحين نقول «لا يجهل» فقد سبحناه مجرداً، وحين نقول «هو العالم» علينا أن نحوله إلى أنه لا يجهل، فالأصل الشامل في حمدنا له هو تسبيح بالحمد، الراجع إلى سلب، كما التسبيح المجرد سلب، فلا نملك تجاه الله إلّا معرفة السلبيات ولا سبيل لنا إلى تفهم ايجابيات الصفات لا الذاتية منها ولا الفعلية، اللهم إلّا طرفاً منها سطحياً حين نسبر أغوار الكون في آياته الآفاقية والأنفسية.

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١٥٩، ١٦٠.

(٢) سورة طه، الآية: ١٣٠.

(٣) سورة ق، الآيتان: ٣٩، ٤٠.

﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ هنا هي وقت العصر، وعلّه يتقدم هنا على سائرها حيث الإنسان خالص - في الأكثر - عن أشغاله فيه، فعليه أن يسبح الله فيما حصل وما هو حصّل، أن ليس من الله في أيّ منهما قصور أو تقصير.

ثم ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ علينا أن نسبّحه حين ندخل في الصباح وهو الفجر الصادق، ونتبنى الفجر إلى العصر وإلى فجر آخر تسبيحاً لله.

ثم بينهما وهما ركناً الأوقات الخمسة ﴿وَعَشِيًّا﴾ بالعشائين المفصول بينهما بقدر وهو ساعة أو سويعات كما يستفاد من آية النور ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ...﴾[1]، ثم بين الفجر والعصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ والإنسان غارق في خضمّ الأشغال، مارق عن عبادة ربه بطبيعة الحال، فليحلّق التسبيح بحمد الرب هذه الأوقات الرئيسية على مختلف درجاتها ودرجات الصلوات فيها، وأفضلها حسب آية الأسرى قرآن الفجر، وضمن آية الصلاة الوسطى صلاة الظهر، أم صلاة الجمعة الوافية للظهر، وعلى حد المروي عن الرسول ﷺ في الآية هي الصلوات التي امرني ربي بها[2].

كما يحلق حمده على كل الكائنات ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) سورة النور، الآية: ٥٨.

(٢) نور الثقلين ٤ : ١٧٢ في من لا يحضره الفقيه وروى عن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه جاء نفر من اليهود إلى النبي ﷺ فسأله أعلمهم عن مسائل فكان فيما سأل قال: اخبرني عن الله عزّ وجلّ لأي شيء فرض هذه الخمس الصلوات في خمسة مواقيت على أمتك في ساعات الليل والنهار - إلى ان قال ﷺ : فوعدني ربي أن يستجيب لمن دعاه فيها وهي الصلات التي أمرني ربي بها في قوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ...﴾ [الروم: ١٧].

وفي الدر المنثور ٥: ١٥٤ جاء نافع بن الأزرق إلى ابن عباس فقال: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم فقرأ هذه الآية - وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال: جمعت هذه الآية مواقيت الصلاة.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ
وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم
بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا
لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةًۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ
وَأَلْوَٰنِكُمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ
﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ
ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ
قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ
ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم
مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا
رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ
نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم
بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾:

سنة دائبة ربانية لا تني وتفشل لحظة واحدة، خارقة مكرورة على أية حال قد لا نحسبها خارقة لطول الألفة، وهي إخراج الحي - نباتياً أو حيوانياً أو إنسانياً - من الميت، وإخراج الميت كذلك من الحي، بصورة عامة في كل كائن ميت وحي، ثم بصورة خاصة: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ حسب اختلاف الفصول ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الذي يخرج الحي ويحيى الأرض أنتم ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من أجداثكم أحياء، ثم وكما أنه يحيي الأرض هنا لصالح الحيوية الدنيوية بصورة عامة، ثم خاصة هي إحياءها بالعدل[1]، كذلك يحييها بعد قيامتها لصالح الحيوية الأخروية بكل عدل ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[2].

فإحياء الأرض بمن عليها بالحياة الحيوان أحرى من إحياءها بالحياة الدنيا ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ عند إحياءها بعد إماتتها، إخراجاً لكم أحياء عن أرض تحيى بعد موتها.

إذاً فليس الإحياء بعد الموت بدعاً من الإحياء غريباً يستغربه الناكرون، بل هو قريب لكل من ألقي السمع وهو شهيد، فيستقر به المؤمنون انكم: كذلك ﴿تُخْرَجُونَ﴾:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

ومن آيات إخراجكم كذلك بعد ما تموتون ﴿أَنْ خَلَقَكُم...﴾ فمن الذي

(١) نور الثقلين ٤: ١٧٣ في الكافي عن أبي إبراهيم عليه السلام في يُحْيي ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ١٩] قال: ليس يحييها بالقطر ولكن يبعث الله رجالاً فيحيون العدل فتحيي الأرض لإحياء العدل ولإقامة العدل فيه أنفع في الأرض من القطر أربعين صباحاً.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

يقدر أن ينكر خلقه من تراب، إخراجاً له حياً من ميت التراب ﴿ثُمَّ إِذَآ﴾ بمفاجأة تعيشونها على مدار الحياة ﴿أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ لحاجياتكم الحيوية.

و﴿ثُمَّ﴾ هنا كما في ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[1] تراخي بين خلقه من تراب ونفخ الروح فيه، والمفاجأة هي حصول أمر غير مترقب: انتشار البشر الحي من التراب الميت، ولكنها متواترة طول الحياة وكذلك تخرجون، و﴿خَلَقَكُم﴾ هنا الخلق الأوّل وهو آدم حيث خلق طفرة دون تحولات من تراب، وكذلك خلق بنيه فإنهم ككلّ مخلوقون من عناصر ترجع إلى التراب بتحولات، بل وهو القدر المعلوم هنا من ﴿خَلَقَكُم﴾ لمكان ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾! - ترى أن أصل الإنسان - فقط - التراب؟ ولزامه في خلقه في كل أطواره السالفة - لإنشائه خلقاً آخر - الماء، وكما في آية أخرى ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾[2]؟

علّه لأن التراب هو الأصل بينه وبين الماء، ولا تعني ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ انحصار أصله فيه، وإنما كأصل ميت كما الماء ميت مثله، ثم انتشر البشر بين الميتين حيّاً.

ثم التراب يعم رطبه - وهو الطين - ويابسه وهو غير المبتلّ، فلا يخص الثاني حتى يكون نصاً في غير المزيج بالماء.

أو ليس بأحرى أن يخلقكم بعد موتكم وأرواحكم حية، رجعاً لها إلى أصول أبدانكم فإذا أنتم إلى ربكم تحشرون لتحصلوا على محاصيل حياة التحصيل: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾؟! فهذه الخارقة الربانية المتواترة المتلاحقة آية من آيات القدرة البارعة كأصل، وآية انكم كذلك ﴿تُخْرَجُونَ﴾ لأنه فرع تلك القدرة.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾:

هذه آية للقدرة الرحيمية الإلهية وإنكم تخرجون، تحمل آيات لقوم يتفكرون، وهذا تعبير رفيق رقيق عن أعمق العلاقات بين الزوجين بما جعل الله، التقاطاً لصورتهما من أعماق القلب وأغوار الحس كما ألقاها الله، إلفاتاً إلى أعظم النعم الحيوية المعيشية لقبيل الإنسان أياً كان وأيان ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]؟

﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ و«كم» هنا تعني كل البشر من أنثي وذكر، فقد خلق لكلّ من نفسه زوجاً، فللذكر زوج الأنثى وللأنثى زوج الذكر، حيث الزوج هو القرين وأقرن القرناء للحياة الإنسانية هم الأزواج، تأسيساً للحياة البيتية العائلية، التي تنشأ منها كل المجتمعات الإنسانية الأخرى.

واللام في ﴿لَكُم﴾ للانتفاع حيث ينتفع كل زوج من زوجه مختلف منافع الزوجية، دون اختصاص بالذكور من الأناث، كما أن «كم» تشملهما دون اختصاص، فقد جهز كلّ بجهاز لا يتم فاعليته إلّا بقرنه بالآخر، لواقع اللذة المرغوبة جنسياً، وحاصل الولائد التي هي استمرارية لحياتهما وأنس لهما وعضد في حاجيات الحياة، ويا لكل منهما من تركيب نفسي وعصبي وعضوي، لوحظت فيه رغائب كلّ بتلبياتها، ائتلافاً وامتزاجاً على طول الخط، ولإنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جديد يستمر به الوالدان.

وذلك الافتقار لكلّ إلى الآخر جنسياً وولادياً هو الذي يحرّك كلا إلى الآخر، ويحمّل كلّا عبء الحياة الزوجية للآخر وهما يتقبلانها بكل إقبال وإجمال.

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

و«من» هنا جنسية تعني المجانسة بين الزوجين، لا النشوية إذ لم ينشأ كلّ من الآخر، والزواج محرم بين ناشئ من آخر وهو الولادة قريبة أم بعيدة.

ولماذا ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾؟ ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ حيث الزوج لا يسكن إلى زوجه من غير جنسه، مهما انفلت إليه أحياناً كما في زواج بين الإنس والجن، فإنها فلتة لا تدوم، والحياة الزوجية هي حياة السكن الدائبة.

فقد ﴿خَلَقَ﴾: لتسكنوا ﴿لَكُم﴾: لتسكنوا - ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ - ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ﴾ فالسكن الحيوي عن ضربات الحياة الدنيوية واضطراباتها هو - بالفعل - الغاية المقصودة من ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ مثلث من الآيات الرحمات تنحو منحى سكون الحياة عن اضطرابات، ولأن مجرد الخلق لكم لتسكنوا لا يكفي وئاماً تاماً بين الزوجين تاماً، والرابطة الجنسية غير كافلة بتحمّل مشاق الحياة العائلية، لذلك:

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ تحكيماً لتلك العلاقة الوطيدة بين الزوجين، فالمودة - كما يتلمح من آياتها - هي المحبة الظاهرة في العمل، وكصراح لهذه اللمحة ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[1] حيث الودّ بعد الرحمة ليس رحمة مجردة، إذاً فهو الرحمة البارزة واقعياً.

والمودة المجعولة بين الزوجين ظاهرة في عشرتهما إن لم يحصل مانع في البين، فالحياة الزوجية الودية تشغل - لو لا الموانع - مشاعرهم وأعصابهم، قالاتهم وفعالاتهم وكل اتصالاتهم وانفصالاتهم، وحقاً يروى عن رسول الهدى انه «ما يعدل الزوج عند المرأة شيء»[2]، ثم «ورحمة» قد

---

(١) سورة هود، الآية: ٩٠.

(٢) نور الثقلين ٤ : ١٧٤ في الكافي أحمد بن محمد عن معمر بن خلاد قال سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لابنة جحش: قتل خالك حمزة، قال: فاسترجعت وقالت: =

تعني بعد «مودة» الرحمة الزائدة بعد الولادة بالولائد وبين الوالدين، أم هي تأثر نفساني إيجابياً بمودة، وسلبياً حين يرى الزوج زوجه بحاجة مدقعة أمّاهيه من حرمانات، فيحاول في جبرها قدر المستطاع، كما بالنسبة للولائد الصغار ولافتقارهم وصغارهم.

ومن ناحية أخرى كلما ولّى الشباب توارى معه الجمال، وضعفت القوة الجنسية، والذرية تجبر ذلك التواري والانكسار حيث تظهر أنوار الرحمة المتوارية وراء ظلمة الشبق والشهوة فلا تزال الرحمة تزداد عطفاً بينهما بشأن الذرية ويشأنهما كمنشأين للذرية، وهذه هي الرحمة بعد المودة.

ثم ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ﴿أَنۡ خَلَقَ لَكُم...﴾ هي آية الرحمة الرحمانية خلقاً لنا، وآية الرحمة الرحيمية أن جعل لنا أزواجاً من أنفسنا، وأخرى هيه ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحۡمَةً﴾ وثالثة أن خلق لنا بزواجنا مواليد، إخراجاً لأحياء من ميتات المياه المنوية، وهذه الأخيرة هي من آيات المعاد انكم كذلك ﴿تُخۡرَجُونَ﴾.

فالخلق العجيب الإنساني بكل حذافيره فردية وجماعية، جسمية وروحية أماهيه، إنه آية تحوي آيات آفاقية وأنفسية بشتات رحمات الله ﴿لِّقَوۡمٍ

= احتسبه عند الله ثم قال لها: قتل أخوك فاسترجعت وقالت احتسبه عند الله ثم قال لها: قتل زوجك فوضعت يدها على رأسها وصرخت فقال رسول الله ﷺ: ما يعدل الزوج عند المرأة شيء» فيه عن الكافي محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن علي بن الحكم عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: انصرف رسول الله ﷺ من سرية قد كان أصيب فيها ناس كثير من المسلمين فاستقبلته النساء يسألن عن قتلاهن فدنت منه امرأة فقالت يا رسول الله ما فعل فلان؟ قال: وما هو منك؟ قالت: أبي، قال: احمدي الله واسترجعي فقد استشهد، ففعلت ذلك، فقالت يا رسول الله وما فعل فلان؟ فقال: وما هو منك؟ فقالت: أخي فقال: احمدي الله واسترجعي فقد استشهد ففعلت ذلك ثم قالت يا رسول الله ما فعل فلان؟ فقال: وما هو منك؟ قالت: زوجي - قال: احمدي الله واسترجعي فقد استشهد فقالت: وا ويلا فقال رسول الله ﷺ ما كنت أظن أن المرأة تجد بزوجها هذا كله حتى رأيت هذه المرأة!.

﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها، ثم بعد هذه الآيات القريبة في أعماقنا، التي نعيشها في ذواتنا وذاتياتنا وصفاتنا وكل حيوياتنا، هنا نقلة إلى واسع الكون ككل:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾:

اختلافات ثلاث كلٌّ تدل بدورها على تخليق قاصد، دونما صدفة عمياء، أم إرادة محصورة بلون واحد من الخلق، فـ ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بمختلف أشكالهما وأحوالهما، ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ وأنتم كلكم مخلوقون من تراب، كل ذلك دليل التصميم الحكيم في كل خلق ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الخلق المختلف المؤتلف ﴿لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ فطرياً وعقلياً وفكرياً، فلسفياً وتجريبياً، أم أي حقل من حقول العلم الإنساني، فإنه أياً كان يستخدم لهذه المعرفة الغالية نظراً إلى الخلق ككل بمختلف أطواره وتطوراته، ونظراً إلى اختلاف الإنسان في الألسنة والألوان[1] و كما أن اختلاف الألسنة والألوان آية القدرة الحكيمة الرحيمية ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ المفكرين فيها، كذلك هو آية للتعرف إلى أصحابها، فقد تشير الألوان والقالات إلى الحالات ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾[2] كما وإن

(١) نور الثقلين ٤ : ١٧٣ في علل الشرايع باسناده إلى عبد الله بن يزيد بن سلام أنه سأل رسول الله ﷺ فقال أخبرني عن آدم لم سمي آدم؟ قال: لأنه خلق من طين الأرض وأديمها، قال: فآدم خلق من الطين كله أو من طين واحد؟ قال ﷺ: بل من الطين كله، ولو خلق من طين واحد لما عرف الناس بعضهم بعضاً وكانوا على صورة واحدة، قال: فلهم في الدنيا مثل؟ قال: التراب فيه أبيض وفيه أخضر وفيه أشقر وفيه أغبر وفيه أحمر وفيه أزرق وفيه عذب وفيه مالح وفيه خشن وفيه لين وفيه أصهب، فلذلك صار الناس فيهم لين وفيهم خشن وفيه أبيض وفيهم أصفر وأحمر وأصهب وأسود على ألوان التراب.

(٢) نور الثقلين ٤ : ١٧٤ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إن الإمام إذا أبصر إلى الرجل عرفه وعرف لونه وإن سمع كلامه من خلف حائط عرفه وعرف ما هو ان الله يقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢] وهم العلماء فليس يسمع شيئاً من الأمر ينطق به الا عرفه: ناج أو هالك فلذلك =

في معرفة الألوان والألسن المختلفة «لآيات للعالمين» بها[١] وقد يعرف العارف بها وحدتها في أصلها.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

هنا ﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يعم النوم لهما، كما ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ يعني بهما تعميماً آخر، وآيات أخرى تختص الليل بالمنام والنهار بابتغاء فضل الله ﴿أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾[٢] ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾[٣] ومن الأولى خلطاً بينهما ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾[٤].

= يجيبهم بالذي يجيبهم» فيه عن توحيد المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام في الرد على الدهرية: تأمل يا مفضل ما أنعم الله تقدست أسماؤه به على الإنسان من هذا النطق الذي يعبر عما في ضميره وما يخطر بقلبه ونتيجة فكره، به يفهم غيره ما في نفسه ولو لا ذلك لكان بمنزلة البهائم المهملة التي لا تخبر عن نفسها بشيء ولا تفهم عن مخبر شيئاً... إن الإنسان وإن كان له في الأمرين - الكتابة واللغة - جميعاً فعل أو حيلة فإن الشيء الذي يبلغ به ذلك الفعل والحيلة عطية وهبة من الله عز وجل في خلقه فإنه لو لم يكن له لسان مهيأ للكلام وذهن يهتدي به للأمور لم يكن ليتكلم أبداً.. فاصل ذلك فطرة الباري جل وعز وما تفضل به على خلقه فمن شكر أثبت ومن كفر فإن الله غني عن العالمين.

(١) المصدر في بصائر الدرجات أحمد بن محمد بن علي بن الحكم عن حماد بن عبد الله الغرا عن معتب أنه أخبره أن أبا الحسن الأول لم يكن يرى له ولد فأتاه يوماً اسحق ومحمد أخواه وأبو الحسن يتكلم بلسان ليس بعربي فجاء غلام سقلابي فكلمه بلسانه فذهب فجاء بعلي ابنه فقال لأخوته: هذا علي ابني فضموه إليه واحداً بعد واحد فقبلوه ثم كلم الغلام بلسانه فذهب به ثم تكلم بلسان غير ذلك اللسان فجاء غلام اسود فكلمه بلسانه فذهب فجاء بإبراهيم فقال: هذا ابراهيم ابني فكلمه بكلام فحمله فذهب به فلم يزل يدعو بغلام بعد غلام ويكلمهم حتى جاء بخمسة أولاد والغلمان مختلفون في أجناسهم وألسنتهم! «وفيه عن عمار الساباطي قال قال لي أبو عبد الله عليه السلام يا عمار! : «أبو مسلم وظلله وكسا فكسحه مسطوراً» قلت: جعلت فداك ما رأيت نبطياً أفصح منك، فقال: يا عمار وبكل لسان.

(٢) سورة النمل، الآية: ٨٦.

(٣) سورة النبأ، الآيتان: ١٠، ١١.

(٤) سورة القصص، الآية: ٧٣.

والجمع يلمح بأصالة الليل سكناً والنهار مبصراً، وفرعية المعاكسة عند الحاجة، وطبعاً إبصاراً بالليل بضياء، وإظلاماً بالنهار بستر، حيث النور تمانع الرياحة كما الظلمة تمانع السعي للمعيشة، ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ في النهار ظاهر تكسّباً للمعيشة التي هي على أية حالة من فضل الله، فليست المساعي لتحصيلها إلّا أسباباً قرّرها الله لإدرار فضله كما يشاء، فقد يكون السبب طلب المعيشة، وأخرى هو التقوى لمن يترك طلب المال إلى طلب العلم تعلماً وتعليماً وتطبيقاً يجمعها علم التقوى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾[١].

كما ابتغاء فضله بالليل يعمهما، ولا سيما صلاة الليل التي هي ابتغاء لفضله روحياً ومادياً، إذاً فلا يختص ابتغاء فضله بليل أو نهار بالمادي المعيشي، بل والروحي، فليعش الإنسان دوماً ليل نهار ابتغاء من فضل الله في يقظته، ورياحة عن ابتغاءه بنومه، بل والنوم أيضاً من فضل الله حيث يريح الإنسان عن عبء الطلب ويعده لمواصلته ابتغاء لفضل الله أياً كان.

وليس النوم مما يبتغي إذ قد يهمل فيه فينهل الجسم وتنحلّ القوى، فـ«فيه راحة البدن وإجمام قواه.. ولو كان إنما يصير إلى النوم بالتفكر في حاجته إلى راحة البدن وإجمام قواه كان عسى أن يتثاقل عن ذلك فيدفعه حتى ينهل بدنه»[٢].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٢٤﴾:

هنا ﴿يُرِيكُمُ﴾ هي من آياته، حيث الفعل الآية من الآية، كما

---

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

(٢) نور الثقلين ٤: ١٧٧ في توحيد المفضل عن الصادق عليه السلام والكرى يقتضي النوم الذي فيه راحة البدن...

ومنتوجه البرق آية، وتقدير «أن» خلاف الفصيح حيث ذكرت قبل في أفعال «إن خلقكم - أن خلق لكم» فتركها هنا ترك مقصود دون حذف، وقد تكون ﴿يُرِيكُمُ﴾ نازلة منزلة المصدر كما «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه» ولكن الأوّل - علّه - أولى أن ﴿يُرِيكُمُ﴾ نفسها كفعل بمفعولها، هما من آياته، فهناك «أن خلقكم - أن خلق لكم» ليستا بأنفسهما مرئيتين، كما ﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ حيث الخلق يسبقنا فكيف نتمكن من رؤيته، وقيام السماء والأرض بأمره أمر يدرك بإمعان ولا يرى، ولكن البرق يرى، و﴿يُرِيكُمُ﴾ نفسها هي من آياته.

وظاهرة البرق هي من نشأت النظام الكوني بما يكوّنها الله، انتشاء من شرارة كهربائية بين سحابتين محمّلتين بالكهرباء أو بين سحابة وجسم أرضي كقمة جبل أم شجرة أمّاهيه، ينشأ عن هذه الشرارة تفريغ في الهواء متمثلاً في الرعد الذي يعقب البرق، ويصاحبه في الغالبية تساقط المطر نتيجة لذلك التصادم.

ورؤية البرق تطمع كما تخوّف، طمعاً في ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وتخوفاً عن تحريقات وتخريقات أرضية بصدام البرق، فإماتة لأهلها، فنحن إذا أمام البرق بين خوف الموت وطمع الحياة ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ على طول خط الحياة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإراءة والتنزيل والإحياء ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أنكم كذلك ﴿تُخْرَجُونَ﴾.

فللعقل مجالات في هذه الآيات تدليلاً على رحمات منها الحياة بعد الموات، فإنها تعقل وتؤخذ من أمثالها في تواتر الموت والحياة.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

قيام السماء والأرض - وهما الكون المخلوق كله - هو قيامهما على

حالتهما الحيوية كما هيه منذ خلقتا وأكملتا بما خلق فيهما وما بينهما، و﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ تراخ بين قيامهما وهذه الدعوة المحيية بقيامة الإماتة الشاملة للسماء والأرض.

وكما أنهما تقومان بأمره، كذلك تنفطران بأمره، وأنتم - كذلك - تخرجون بأمره، وهو كلمة «كن» التكوينية، وبالنسبة للمكلفين اضافة إليها «كن» التشريعية.

فكما السماء والأرض من آياته، كذلك قيامهما بأمره وخرابهما بأمره، فلتكن هذه القدرة الشاملة شاهدة صدق لـ ﴿أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

وبماذا تتعلق ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾؟ بـ ﴿دَعَاكُمْ﴾ ؟ وليس الله الداعي في الأرض حتى ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾! أم بـ ﴿تَخْرُجُونَ﴾؟ فلماذا قدمت على متعلقها؟

التقدم في المحتمل الثاني لغاية الحصر، انكم تخرجون - فقط - من الأرض التي فيها تدخلون، وعلّ الأوّل معنيّ ضمنه لا بمعنى أن الداعي هو في الأرض، وإنما دعوته لإخراجنا من أجداثنا صادرة منه من الأرض، كموضع لتجلي الدعوة ونفاذها حيث ينفخ في الصور والناقور فيصل فيما يصل إلى المدفونين في الأرض فيحيون، ولا ضير أن يعنى ضمن المعنى دونما استقلال والأصل هو الآخر.

و﴿إِذَآ﴾ الثانية للمفاجأة قائمة مقام فاء الجزاء لشرط ﴿إِذَآ﴾ الأولى، فالخروج من الأرض حياً بعد موت مفاجأة في متاه ومداه، وليس بدعاً من الحياة بعد الموت المتواترين المتلاحقين على مر الزمن دون إبقاء، كيف لا؟:

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

«له» ملكية وملكية حقيقية ذاتية دونما زوال ولا انتقال ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فضلاً عنهما، «كلّ» منهما ومن فيهما، «له» لا لسواه ﴿قَٰنِتُونَ﴾

خاضعون لإرادته، فالقنوت هنا - ككل - هو الطاعة الخاضعة الخاشعة التكوينية، مهما كان المؤمنون له ﴿قَٰنِتُونَ﴾ تشريعياً كما هو تكوينياً.

فـ ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ككل - عصاة ومؤمنين، هم له قانتون في كل كونهم وكيانهم مهما عصت عقول بعضهم وأعمالهم، وليست النقلة إلى الحياة الأخرى فعلة لهم مختارة حتى يتمكنوا من عصيانها، فكما أحياهم دون اختيار لهم إذ لم يكونوا أحياء، كذلك يحييهم بعد موتهم ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾(١).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾:

ولأن له ما ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ و﴿كُلٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ دونما استقلال لشيء وتمنّع عن إرادته، فـ هو ﴿ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ أياً كان البدء وأيّان، بدء لا من شيء كالخلق الأول، وبدء من شيء هو الخلق الأوّل وسائر الخلق في المراحل الأخرى، وبدء لخلق الإنسان، وإذا كان البدء منه فالإعادة أولى ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾.

فالبدء أياً كان هو إنشاء من غير مثال سبق، والإعادة إنشاء سبق مثاله في البدء، سواء أكانت الإعادة بعد الإعدام المطلق كما قبل مطلق الخلق، أو الإعادة بعد مطلق الإعدام، كما قبل الإعدام، فالإعادة لما بدء ثم أعدم هي على أية حال أهون من البدء قياساً بينهما، وقياساً إلى القدرة المحدودة، وأما بالنسبة للقدرة غير المحدودة فلا مراحل في الهون كما الصعب، فلا صعب لها ولا أصعب، ولا هين ولا أهون، فكلّ هين تجاه القدرة الطليقة الإلهية على سواء كما ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾(٢).

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) سورة مريم، الآية: ٩.

والخلق الثاني أهون من الأوّل في نفس الذات وبالنسبة للقدرة المحدودة، ولكنه هنا ﴿عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾[1] لا أهون، ثم ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[2] تعطى أولوية لهذا المنيّ هنا، ويعبر عنها في آيتنا بـ ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ولا تعني إلّا تنازلاً في التفضيل، وليس في الحق عنده في قدرته تفضيل.

إذاً ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قد تعني الأهون في نفس الذات وبالنسبة لقدراتكم؟ ولكن ﴿عَلَيْهِ﴾ قد تمانع عنايتها لخصوص هذين الأهونين! أم ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ تنازلاً في التفضيل في حقل القدرة: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ وحقيقة في التفضيل في حقل العدالة ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾.

فالبدء للخلق - أياً كان - هو قضية الفضل، وأما الإعادة - للمعاد الحساب - فهي قضية العدل، والعدل أهون من الفضل وأوجب في مثلث المقاييس: بينهما، وبالنسبة للعزة والحكمة المحدودتين، وبالنسبة للعزة الطليقة والحكمة اللّامحدودة.

أضف إلى كل ذلك كهامش في المعنى المعنيين الأوّلين للأهون حقيقياً، والثالث تنازلاً في الحوار.

فقد تعني ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ سداسية المعاني، والأصل في الثلاثة الأول التنازل في التفاضل: لو كان له هين وأهون فـ ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، ثم الأصل في الثلاثة الأخرى أن العدل أهون على الله من الفضل من حيث الحكمة، لا القدرة.

إذاً ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قد تشيران إلى تنازل التفاضل بجنب القدرة العزة، وحقيقة التفاضل في مقياس الحكمة، حيث العدل أوجب على الله

---

(١) سورة مريم، الآية: ٩.
(٢) سورة مريم، الآية: ٩.

من الفضل، كما الفرض أولى من الندب، أولوية حقيقية دونما تأويل، خلاف الأولوية التنازلية في حقل القدرة.

وهنا يتبين المعني من ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حيث المثل في الأصل هو الصفة، فعلية كما هنا حيث السماوات والأرض وما فيهما هي فعليات صفات الله، أم وذاتية كما في النحل ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[١].

فمثله المطلق كما هنا يعم صفات ذاته إلى صفات فعله، ومثله في السماوات والأرض يخص صفات فعله.

فأمثال الله في السماوات والأرض بدء وإعادة كلها عالية، ولكن الإعادة هي من المثل الأعلى وهو العدل فإنه أعلى من الفضل وأهون، وكما أولياءه المقربون السابقون وقد يروي عن أسبقهم وأقربهم إلى الله محمد ﷺ قوله: «نحن كلمة التقوى وسبيل الهدى والمثل الأعلى والحجة العظمى والعروة الوثقى»[٢]، فهم مثل أعلى ممن دونهم من المؤمنين، والعدول من هؤلاء مثل أعلى ممن لا يعدل تماماً وهكذا، ثم المثل يعم من ناحية أخرى صفات الفعل التشريعية إلى صفات فعله التكوينية، فالشرعة التوراتية مثل أعلى من الشرعة الإبراهيمية، كما الشرعة القرآنية هي مثل أعلى من كل شرعة إلهية.

وكما الإنسان ككل هو مثل أعلى من الناحية التكوينية ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ

---

(١) سورة النحل، الآية: ٦٠.

(٢) نور الثقلين ٤ : ١٨٠ في عيون الأخبار بإسناده إلى ياسر الخادم عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام يا علي! أنت حجة الله وأنت باب الله وأنت الطريق إلى الله وأنت النبأ العظيم وأنت الصراط المستقيم وأنت المثل الأعلى، وفي العيون في الزيارة الجامعة السلام على الأئمة الهدى. . . وورثة الأنبياء والمثل الأعلى، وفيه (٨١) عن العيون عن عبد الله بن العباس قال قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً فقال في آخر خطبته: . . .

﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[(١)] ومن الناحية التشريعية إذ شرع له أحسن الشرائع بين كافة العقلاء، وحين يشاركه بعضهم كالجن وسواه في شرعته فهو الأصل فيها رسالة ومرسلاً إليه.

ثم ﴿الْأَعْلَىٰ﴾ في ﴿الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ قد تكون كما هنا، الأفضل بين أمثاله تعالى، كما الإعادة مثل أعلى من البدء، أم الأعلى من مثل غيره، فصفاته الفعلية - وهي كل خلقه بمختلف أمثاله الأدنى والوسطى والعليا - هي أعلى من صفات خلقه، وكما أن صفات ذاته وذاته أعلى ممن سواه.

وأمثال الله تعالى بكل مراتبها حسنة وفق طليق العزة والحكمة، وأمثال غيره بين سيئة وحسنة هي طبعاً دون أمثال الله: فـ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾[(٢)] إذ يرجحون البدء الفاني وهو من فضله، على الإعادة الباقية وهي من عدله، ترجيحاً للفضل المؤقت في ذلك الخلق العظيم دونما غاية مقصودة إلّا حياة ضئيلة هزيلة هي في الحق خلاف الفضل، ترجيحاً على العدل في الإعادة وهي الغاية المقصودة من البدء ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[(٣)] عدلاً وفضلاً بواقعهما الطليق العميق.

وكما إنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[(٤)] كذلك ليس كمثله مثل، ﴿وَلَهُ﴾ السابقة على ﴿الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ تفيد الحصر، فهو «رب المثل الأعلى عما به مثلوه - ولله المثل الأعلى - الذي لا يشبهه شيء ولا يوصف ولا يتوهم، فذلك المثل الأعلى»[(٥)].

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.
(٢) سورة النحل، الآية: ٦٠.
(٣) سورة طه، الآية: ١٥.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٥) نور الثقلين ٤: ١٨٠ في كتاب التوحيد باسناده إلى حنان بن سدير عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه: وقوم وصفوه بيدين فقالوا: يد الله مغلولة - وقوم وصفوه بالرجلين=

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿ضَرَبَ لَكُم﴾ المتخذين لله شركاء ﴿مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ مثل قريب وهل هناك مثل أقرب من أنفسكم، دون حاجة إلى رحلة قريبة أو بعيدة أم تفكير عميق فإنه مثل كأبسطه وأقربه إليكم بين كافة الأمثال وهو: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ يشاركونكم فيما تملكون، رغم أنهم أنفسهم مما تملكون ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ كشركاء سواء فيما يتصرفون، ثم ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ في المزيد من التصرف فيما تملكون ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أنتم المالكين في أموال مشتركة بينكم؟

وذلك سؤال التنديد التجهيل عمن يشركون بالله خلقه فيما يختص بالله من ربوبية، لهم ما لله من التصرف في ملكه، فيخافهم الله كما يخاف من شريك، رغم أن الشركة بين المالكين والمماليك أمر ممكن، وبالنسبة لله مستحيل ذاتياً وصفاتياً.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على التوحيد ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ آياته تعالى ويتدبرون.

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

ليس أنهم اتبعوا عقولهم في اتخاذهم لله شركاء ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾

= فقالوا: وضع رجله على صخرة بيت المقدس فمنها ارتقى إلى السماء ووصفوه بالأنامل فقالوا: إن محمداً ﷺ قال: اني وجدت برد أنامله على قلبي، فلمثل هذه الصفات قال: رب العرش عما يصفون - يقول: رب المثل الأعلى...

في هذه القسمة الضيزى ألّا يرتضوا لأنفسهم شركاء من مماليك، ثم يفرضون لله شركاء.

اتبعوا هؤلاء ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ دون عقولهم، اتّباعاً ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فحتى لو اتبعوا أهواءهم بعلم ما كانوا مشركين، وذلك هو الضلال البعيد.

إذاً ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ فإنهم زاغوا باتباعهم أهواءهم بغير علم مقصرين ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[1] وأضلها أن ختم عليها بكفرهم فهم لا يهتدون ﴿وَمَا لَهُم﴾ حين يضلهم الله ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يهدونهم إلى الحق.



(١) سورة الصف، الآية: ٥.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ

ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

تأتي ﴿فَطَرَ﴾ بمشتقات لها في آياتها العشرين، وما أتت ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ إلّا في هذه اليتيمة المنقطعة النظير، مهما نجد الكثير من أحكام الفطرة كما هنا في الآية (٣٣) ثم وأشباهها في سائر القرآن.

لذلك فحق لها أن تنفرد ببحث فذّ وقول فصل، تحوم حولها كافة البحوث حول الفطرة وميزاتها وأحكامها، حيث تظهر في مسارح البراهين كاقوى برهان يصدع به القرآن، حيث لا تقف له القلوب، ولا تملك رده النفوس، تلك الحجة البالغة التي تتبناها الفكر والعقول، ومن ثم كافة الرسالات الإلهية في كل الحقول، ولولاها لسقطت الحجج عن بكرتها، وتساقطت البراهين عن برهنتها، ولأنها أعمق الآيات الأنفسية وأعرقها، حيث تتبناها سائر آياتها، كما تتبناها الآيات الآفاقية كلها.

فالفطرة هي رأس الزاوية من مثلث الإنسانية بدرجاتها، ثم الزاوية العاقلة تتبناها وتتكامل على أسها وأساسها، ومن ثم الثالثة: الشرعة الإلهية هي صبغتها الكاملة السابغة.

الإنسان أياً كان حين يفقد العقل - وبطبيعة الحال يفقد الشرعة المتبنّية للعقل - ليس ليفقد الفطرة على أية حال، حال أن العاقل قد يفقد الشرعة ويضل عنها، فالفطرة حجة ذاتية لا تتخلف ولا تختلف في أصحابها، ثم العقل تستبطنها وتستنبطها وتوسّع مدلولها، ومن ثم الشرعة الإلهية ترشدهما

إلى تفاصيل مجهولة لديهما وتكملهما جملة وتفصيلاً، فالفطرة حجة اجمالية بسيطة، والعقل حجة متوسطة وسيطة، والشرع حجة موسّعة محيطة، تصل بهما إلى أعلى معاليهما[١].

هنا ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ ذات نسبتين واربع صفات، نسبة إلى الله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ وأخرى إلى الناس: ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وقد احتفتها أربع صفات: ﴿لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ قبلها و﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ بعدها.

فنسبة الفطرة إلى الله توحي بأنها ليست إلّا من صنع الله، لا صنع ولا تأثير ولا تبديل فيها لغير الله، كيف وهي - فقط - خلق الله و﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ فهي وحي تكويني إلى أعمق أعماق ذوات الناس، كظرف صالح للوحي التشريعي، وهنا التطابق التام بين كتابي التكوين والتشريع بحق الناس، فالتشاريع الإلهية كلها تفاسير وتفاصيل لها أجمل في الفطرة، لذلك فالحق يقال: إن دين الله فطري إذ يتبنّى الفطرة، ومؤلف الكتابين خلقة وشرعة هو الله الواحد القهار! ومن ثم نسبة الفطرة إلى الناس وبهذه الصيغة السائغة ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ توحي أنها الأصل والناس فرع عليها، فكما النطفة هي أصله في البعد الجسماني، كذلك الفطرة هي أصله في بعده الروحي الإنساني.

إم إنّ ﴿عَلَيْهَا﴾ إيحاء بأن الفطرة ليست مجعولة بجعل ثان بعد الروح،

---

(١) الدين واحد والشرعة هي عدة متشرعة عن الدين الواحد، ثم الدين أصله دين الفطرة ومن عمالها العقل، ثم أقوى منهما دين الوحي المخطئ للعقل والمكمل لأحكام الفطرة وقد زوّد به آدم عليه السلام إذ لم تشرع له شرعة تفصيلية.

ثم المرحلة الثالثة من الدين هو دين الشرعة، المحتفظ بأحكام الفطرة، المقررة بإثبات الواجبات والمحرمات، والمفرع لكلّ شرعة ومنها بها حسب الحاجيات الوقتية حتى الشرعة الأخيرة التي هي الدين كله بكل التفاصيل الخالدة.

فأول نبي بعث بشرعة من الدين هو نوح وآخرهم الرسول الخاتم محمد ﷺ.

بل هي مجعولة بجعل الروح، وعلّ الأول أوحى حيث يتضمن أصالتها والروح فرع لها وإن كانا مجعولين بجعل واحد، بل هما أصلاً وفرعاً واحد إذ لا يتفارقان.

وقد أمرنا بإقامة الوجه لها رخاء ولا نكون من المشركين هنا، وبصيغ أخرى كما في غيرها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾(١) ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢) ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣).

وهنا عرفات سبع تصد عن جهالات سبع، تحملها آية الفطرة بمواصفاتها الست، فرضاً لمنطلق الدعوة: الرسول الأعظم محمد ﷺ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ...﴾ وإلى الناس أجمعين كضابطة سارية تعم كافة المكلفين: ﴿فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

والصاروخ الركوب، المنطلق به بينها في هذه الرحلة للطائر القدسي الإنساني هو ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وسائر السبع زاده في طريقه الشاقة الطويلة المليئة بالأشلاء والدماء.

وهذه الست المستفادة بسابعها من آية الفطرة هي: ١ - معرفة النفس، ٢ - وحبها، ٣ - ومعرفة الوجه ٤ - ودينه، ٥ - وحنافته، ٦ - وإقامته، ٧ - وسابعها هي الفطرة.

فما لم تعرف نفسك كما هي حسب إمكانيتك لم تحبّها كما يصح ويحق، ومن ثم تتعرف إلى الدين القيم، وإلى الوجه وإقامته، وإلى الحنافة

(١) سورة الروم، الآية: ٤٣.
(٢) سورة يونس، الآية: ١٠٥.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

نفساً وديناً ووجهاً وإقامة أماهيه، فتكمل سفرتك إلى الله بمنطلق الفطرة التي فطر الله، فإلى التنقيب عن آيتها جملة وتفصيلاً، ابتداء بجملتها:

﴿فَأَقِمْ﴾ يا رسول الهدى في معترك العقائد والآراء بين هابطة حابطة خابطة، وبين صالحة عاقلة رائعة بما لها من حجج بالغة، فإنه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ - ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا...﴾ كأوّل قيام وأولاه وأعلاه فانك ﴿أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾[1] وأولى القائمين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ...﴾[2] - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا...﴾[3] فقيامك هو الذي يقوّم الجماهير ويقيّمهم..

﴿فَأَقِمْ...﴾ ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ وإقامة تجعلك أول القائمين، ومن ثم إلى الناس أجمعين..

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أيها الإنسان السالك إلى ربك ﴿لِلدِّينِ﴾ الذي ارتضاه لك ﴿حَنِيفًا ۚ﴾: مائلاً عن الضلالة إلى الاستقامة، فإنه الحنف خلاف الجنف ميلاً عن الاستقامة إلى الضلالة، ﴿حَنِيفًا ۚ﴾ في نفسك وفي وجهك وفي إقامتها وفي الدين الذي تدين به، فإنها مربع الحنافة في هذه الإقامة البارعة، ومن الدين الحنيف: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ فالدين الحنيف الذي هو الغاية القصوى في هذه السفرة الإلهية، هو التوحيد، وأفضل

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨١.

(٢) سورة المدثر، الآيتان: ١، ٢.

(٣) سورة المزمل، الآيتان: ١، ٢.

ركوب في تلك الرحلة هو ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ لا أنها - فقط - الدين الحنيف، لذلك ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ لا «إلى الدين» وانما إقامته «إلى» تنطلق من ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾.

وعلّ النصب في ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ خلاف الجر في «للدين» للتدليل على أنها ليست هي - فقط - الدين حنيفاً، وإنما هي من الدين ومنطلقه الأوّل، كآية أنفسية أولى، ليست قبلها ولا معها أيّة آية أنفسية يبتدء السالك منها، وينطلق عنها إلى الدين القيم الحنيف، الشرعة الإلهية الكاملة، والتوحيد الخالص الناصع.

فقد يعني نصبه نصبه المنصب الأوّل في إقامة الوجه للدين: أعني فطرت الله - الزم فطرت الله - أخصّ من الدين الحنيف فطرت الله، أمّاذا من ناصبات مناسبات؟

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ - «خلق الله» هنا ليس كل خلق الله فإن منها ما يبدّل بحق أو باطل كما هدد الشيطان: ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ...﴾. فما هو إلّا دين الفطرة حيث الدين الشرعة هو من الأمر وليس الخلق ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾(١) فمهما كان في سائر الدين تبدّل أو تبديل، كدين العقل والشرعة من الدين، في حق أو باطل، كالعقل الضائع أو الذي تصيبه جنة قاصدة أو قاصرة، وكالشرعة المحرفة أو المنسوخة، ولكن دين الفطرة لا تبدّل فيه ولا تبديل، لأنه المنطلق الأصيل الدائب لدين العقل والشرعة.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ﴾ الإقامة بوسيط الفطرة هو ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الذي لا زوال له ولا اضمحلال، إذ لا ريب فيه ولا نقصان أو بطلان يعتريه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مثلث الدين، فطرة وعقلية وشرعة،

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

ولا وجهاً ولا إقامة ولا حنافة ولا قيمومة، متورطين في مسبّع الجهالات، ولذلك لا ينجون في الحياة مهما شرّقوا أو غرّبوا، حيث غربت عقولهم وحجبت فطرهم.

هذا إجمال عن مغزى الآية ومن ثم التفصيل، ولنبدء برأس الزاوية في مسبع العرفات: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ وهي كلها رؤوس الكمالات الإنسانية وجماع فضائلها وفواضلها:

الفطرة هي حالة خاصة من الفطر، وهو الشق ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾[١] والفطور هو الفروج والشقوق والفتوق والخروق، انفصالات متهافتة متفاوتة في خلق الرحمن تحيلها آية الفطور، والفطر بين شق صالح فوصله صالح، وبين شق صالح عن فصل طالح، وخلق الرحمن كله شق صالح كـ ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾[٢] وقد فلق حب الإنسان ونواه فطراً صالحاً بفطرة هي الدين الحنيف القيم.

ثم ذلك الشق في الفطر له ميّز الابتداء الابتداع[٣] دون مجرد الخلق الأعم من مبتدء مبتدع، ففيه - إذاً - أوّليتان اثنتان بدءً وبدعاً، خلاف سائر الخلق بعد الأولية وغير المبدعة إذ تخلق على مثال ما خلق مثله أوّل مرة، ولمحة صارخة صارخة لهذه الميّزة في الفطر: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾[٤] حيث الفطر المقابل للإعادة يناسبه البداية، وليست الإعادة فطراً كما ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٥] حيث الرجوع

---

(١) سورة الملك، الآيتان: ٣، ٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٥.
(٣) لسان العرب عن ابن الأثير الفطر الابتداء والاختراع والفطرة منه الحالة.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٥١.
(٥) سورة يس، الآية: ٢٢.

العود يقابل الفطر فهو البدء ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[١]، ثم الفطرة هي هيئة وحالة خاصة من ذلك الفطر خصت في آيتها بالناس كما اختصت بالله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

إذاً فللفطرة في خلق الناس الأولية المتينة المكينة، المبدئة المبدعة المزيجة بأصل ذاته، المدغمة في إنّياته لمكان ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ دون «فطرها على الناس» أو «فطر معها الناس» أمّاذا من تعابير تجعلها فرعاً على ذوات الناس، أم موازية في فطر الناس، وإنما ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ مما يبرهن انها رأس الزاوية من كون الناس وكيانهم، القاعدة الأصيلة من الإنسان أياً كان بقلبه وقالبه.

فكما أن للإنسان كياناً حيوانياً أصيلاً تتبناه أجزاءه وأعضاءه، وهي النطفة التي خلق منها، كذلك - وبأحرى - له كيان إنساني أصيل تتبناه روحه وعقله وصدره وقلبه ولبه وفؤاده، ألا وهي ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

وهذان البعدان هما جوهر إنسانية الإنسان كمزيج من حيوان وإنسان، والبعد الأصيل بينهما هو بعد الفطرة، ومن ثم بعد النطفة، وقد تعنيها آية الذر في «ذريتهم»: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[٢] فذريتهم هي فطرتهم تعبيران عن حقيقة واحدة كما في روايات متظافرة[٣] وتلمح لذلك كصراحة آية الذرية، وقد نأتي على بحثها كما يناسب بحثنا حول آية الفطرة.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٧٢، ١٧٣.

(٣) نور الثقلين ٤ : ١٨٤ ح ٥٣ عن أصول الكافي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن=

وانها ذرية الأرواح، أعمق أعماقها وهي الفطر، فكما للأجسام ذريات هي النطف التي خلقت منها، كذلك للأرواح ذريات هي الفطر التي فطر الناس عليها، ومن الفارق بين الذريتين أن ذرية الفطرة لا تتبدل وذرية النطف تتبدل، وقد فطر الله الأجسام على ذريات النطف، وفطر الأرواح على ذريات الفطر، والذريتان هما أصل الإنسان في بعدية، وسائر أجزاءه الروحية والبدنية فروع، مهما تأصلت في فترة التكليف.

وميثاق: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ بإجابته: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ هو ميثاق تكويني على فطرة الله التي فطر الناس عليها حيث «فطرهم على التوحيد عند الميثاق»[(١)]، وهو رؤيته تعالى بالقلب[(٢)].

= قول الله عز وجل: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] ما تلك الفطرة؟ قال: هي الإسلام فطرهم الله حين أخذ ميثاقهم على التوحيد قال الست بربكم وفيه المؤمن والكافر.

(١) المصدر ٣: ٩٦ ح ٣٥٢ في كتاب التوحيد بإسناده المتصل عن زرارة قال قلت لأبي جعفر عليه السلام أصلحك الله قول الله عز وجل في كتابه: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾؟ قال: فطرهم على التوحيد عند الميثاق وعلى معرفة أنه ربهم قلت: وخاطبوه؟ قال: فطأطأ رأسه ثم قال: لولا ذلك لم يعلموا من ربهم ولا من رازقهم.

أقول: لولا ذلك يعني فطرهم على التوحيد، فليس مقاولة ومسائلة فإنها لا تضمن المعرفة، وإنما تبني الذات على المعرفة هو الذي يضمن المعرفة.

(٢) المصدر ٩٧ في كتاب التوحيد بإسناده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له اخبرني عن الله عز وجل هل يراه المؤمن يوم القيامة؟ قال: نعم وقد رأوه قبل يوم القيامة فقلت متى؟ قال: حين قال لهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ثم سكت ساعة ثم قال: وإن المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة ألست تراه في وقتك هذا؟ قال أبو بصير فقلت له جعلت فداك فأحدث بهذا عنك؟ فقال: لا فانك إذا حدثت به فأنكر منكر جاهل بمعنى ما تقول ثم قدر ان ذلك تشبيه كفر وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون.

أقول: وليست الرؤية المعرفة القلبية بصرف المسائلة.

وفيه ج ٣٦٢ عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ قالوا بألسنتهم؟ قال: نعم وقالوا بقلوبهم فقلت وأي شيء كانوا يومئذ؟ قال: صنع منهم ما اكتفى به.

فطرة الإنسان باقية ما دامت له باقية مهما فقد جسمه وعقله، فإنها لزام الروح الإنساني حيث ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ ولولاها لم يكن ناس، فهي تلازم حياته الإنسانية تعيشها وتعيّشها كإنسان، ولذلك تجب إقامة الوجه لها بكل وجوهه، فإنها أصل الدين الحنيف القيم وجذره ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

والدين الحنيف القيم الذي لا تبدّل له ولا تبديل هو كلمة التوحيد «لا إله لا الله» كما وآية الفطرة وآيات إقامة الوجه للدين الحنيف القيم، فيها كلا السلب والإيجاب التوحيدي، فهنا ﴿حَنِيفٗاۚ . . .﴾ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ هما سلب: لا إله - و﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ هما الإيجاب: إلّا الله.

أجل - إن ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ هي «دين الله»(١) الحنيف القيم الذي لا بديل عنه ولا تبديل له، وهي المعرفة(٢) وهي التوحيد(٣) وهي الإسلام(٤) وهي الولاية(٥) وهي كلها واحدة:

عباراتنا شتى وحسنك واحد وكل إلى ذاك الجمال يشير

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٥٥ - أخرج عن جماعة قال رسول الله ﷺ فطرة الله التي فطر الناس عليها قال: دين الله.

(٢) نور الثقلين ٤: ١٨٤ - القمي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: حنفاء لله غير مشركين به قال: الحنيفة من الفطرة التي فطر الله عليها لا تبديل لخلق الله - قال: فطرهم على المعرفة به..

(٣) المصدر ١٨٣ - أصول الكافي بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام في آية الفطرة قال: فطرهم على التوحيد ورواه مثله عنه هشام بن سالم وعبد الله بن سنان والعلاء بن فضيل، وفيه عن زرارة عنه عليه السلام مثله بإضافة «جميعاً».

(٤) المصدر بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام عن الآية ما تلك الفطرة؟ قال: هي الإسلام فطرهم الله حين أخذ ميثاقهم على التوحيد قال: الست بربكم وفيه المؤمن والكافر.

(٥) المصدر - أصول الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: هي الولاية.

فـ «دين الله» هو معرفة الله، وهي ولاية الله، وهي الإسلام لله، وهي توحيد الله، فلا تعني خماسية العبارة إلّا أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[١] ثم المعاد والرسالة ومن ثم ولاية الأئمة[٢] و«إلى هاهنا التوحيد»[٣] كلها تحور على محور ولاية التوحيد ومعرفته، منه تصدر وإليه تعود، فنكران سائر الأصول ليس إلّا حصيلة نقصان أصلها الأصيل: معرفة الله بتوحيده بولاية الله في الإسلام له، وجماعها «دين الله» كما تدل عليه فطرت الله، كأصيل، والعقل كوسيط، والشرعة تفصيل.

---

(١) المصدر الكافي عن القمي حدثنا الحسين بن علي بن زكريا قال حدثنا الهيثم بن عبد الله الرماني قال حدثنا علي بن موسى الرضا عليه السلام عن أبيه عن جده عن أبيه محمد بن علي عليه السلام في الآية قال: هو لا إله إلا الله محمد رسول الله علي أمير المؤمنين ولي الله إلى هاهنا التوحيد ورواه مثله في بصائر الدرجات عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية فقال: «على التوحيد ومحمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي أمير المؤمنين عليه السلام وفي التوحيد رواه مثله عن عبد الرحمن مولى أبي جعفر عن أبي عبد الله عليه السلام.

(٢) المصدر.

(٣) الدر المنثور عن جماعة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه كما تنتج الإبل من بهيمة جمعاء هل تحس من جدعاء قالوا يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفرأيت من يموت وهو صغير؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء.
في تفسير الطبري بإسناده عن الأوسد بن سريع من بني سعد قال: غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاشتد عليه ثم قال: ما بال أقوام يتناولون الذرية فقال رجل يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: أن خياركم أبناء المشركين إلا أنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها» قال الحسن: لقد قال في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].
ولقد روى حديث الفطرة باختلاف يسير كما هنا في صيغها ووحدة في سوقها جماعة كما في المعجم المفهرس للحديث النبوي ج ٥: ١٨٠: «ما جاء في» كل مولود يولد، ولد على الفطرة، كل نسمة تولد على الفطرة في جنائز ٩٤ دسنة ١٤ - ت قدره، ط جنائز ٥٢، حم ٣، ٢٣٣، ٢٧٥، ٣٩٣، ٤١٠، ٤٨١، ٣، ٣٥٣.

ولقد أجملها الرسول ﷺ: في قوله «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه..» وهذه ثالوث الشرك بمختلف صوره، تجسيداً لله وتبنياً منه تهويداً، وتثليثاً معهما تنصيراً، وتثنية له أنه والنار إلهان إثنان تمجيساً، فكافة الخرافات الشركية لاصقة لاحقة على أهلها، والأصل الثابت والدين الحنيف القيم لها هو التوحيد قضية ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾.

وقد تعني «الولاية» هنا ولاية التوحيد والعبودية وولاية التكوين والإعادة وولاية التشريع، فهي تجمع الأصول الثلاثة، ثم ولاية الأئمة كفرع من ولاية الشرعة الرسالية، و«إلى هاهنا التوحيد» كما مضت في رواية.

فآية الفطرة تأمرنا بمطالعة كتابها، ومن ثم الآيات التي تستجيش العقول أن تعقل، تأمرنا بمطالعة كتاب العقل، والوجه الروحي المأمور بإقامته للدين حنيفاً هو وجه الروح والعقل والصدر والقلب واللب والفؤاد، وعلى هامشها وجه الحس، وهذه السبع تقام للدين حنيفاً ابتداء بكتاب الفطرة وإنهاء إلى كتاب الشرعة، والعقل هو الوسيط في هذه الرحلة، مهما كان وجهاً من الوجوه السبعة.

نحن نجد أصول المعارف الإلهية في كتاب الفطرة، كما ونجد كل صغيرة وكبيرة من عقائد وأقوال وأعمال خيرة وشريرة، مرتسمة في كتاب الذات ظاهرة وباطنة حين الحساب ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[1] وبين الكتابين كتاب الشرعة الإلهية ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ...﴾[2] ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٢) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

للفطرة أحكام ثابتة لا مرد لها كما هي نفسها: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ إذاً فهي أمتن قاعدة وأحسنها لتبنّي الكمالات الإنسانية، وعلى السالك إلى الله أن يعتبرها أولى المنازل في سيره وأولاها.

ولكي تكون هذه السفرة ناجحة، عليه أن يتزود براحلتها «الفطرة» وزادها الستة الأخرى من عرفات آية الفطرة، وقد عرفنا الفطرة بعض المعرفة وإليكم الستة الأخرى:

١ - معرفة النفس، ٢ - وحبها، ٣ - وإقامتها، وهي المطوية في ﴿فَأَقِمْ﴾، ٤ - ثم ﴿وَجْهَكَ﴾، ٥ - ﴿لِلدِّينِ﴾، ٦ - ﴿حَنِيفًا﴾ هي الأخرى من ألفاظها الأخرى.

معرفة النفس كما هيه حسب الطاقة البشرية هي أولى الخطوات في هذه الرحلة وعلى حد قول الرسول ﷺ «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

فلتعرف أولاً من أنت، هل أنت - فقط - هذا البعد الحيواني، وكما أكثر الناس يظنون، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[1] أولئك الذين يستعمرون كافة طاقاتهم المادية والمعنوية للشهوات والحيونات، إذ ضلوا عن أنفسهم فظلوا عاكفين على حيوناتهم فـ ﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ...﴾[2] ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[3] وذلك رأس كل خطيئة.

أم أنت الروح الإنساني كما هو مكتوب في كتاب الفطرة، فما الإنسان إلا عقلاً فاهماً، وما قيمته إلا قدر عقله، فلتكرّس كافة طاقاتك مادية ومعنوية في ترقية روحك.

ولما وجدت نفسك من أنت، تحب نفسك كما أنت، وذلك الوجدان

(١) سورة الروم، الآية: ٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

والحب يدفعانك إلى محبوب مطلق وموجود مطلق، هو المنطلق لكل محب وموجود، وهو الله تعالى شأنه.

فمعرفة النفس بالحيوانية فحبها بها هي الكفر بالله ويغضه، ولكن معرفتها بالروحانية وحبها بها هي معرفة الله وحبه.

فمن وجد نفسه كواقع الحق فقد وجد ربه، ومن ضل عن نفسه فقد ضل عن ربه، وكلما ازداد الإنسان معرفة صالحة بنفسه ازداد معرفة بربه، فحين يعرف نفسه أنه لا شيء في ذاته، يعرف الله وإنه مصدر كل شيء، فقر مطلق يتعلق بغنى مطلقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[١] - ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٢].

ثم الوجه من كل شيء ما يواجه به شيئاً أو يواجه إليه، فتختلف وجوهه حسب اختلاف كيان المواجه والمواجه إليه.

فإذا كان المواجه إليه من عالم المادة فوجه الإنسان الموجّه إليه هو بعده المادي، سواء الوجه المعروف منه كعضو بين الأعضاء كـ ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾[٣].

أم ظاهر المقاديم من بدنه كما يتجه إلى القبلة ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[٤]، أم البدن كله حيث يواجه حريقاً شاملاً يحرقه ظاهراً وباطناً، فكما وجه النار هنا هو كلها كذلك وجه الإنسان المحترق بالنار هو كله، ووجه الأرض ككل هو ظاهر الكرة الأرضية، وهو بوجه أخص الأفق الذي أنت فيه حيث تواجهها بعين مجردة أو مسلحة.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٥.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٠.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٩٣.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

وقد يعني وجه الشيء أوّله لأنه في أوّل المواجهة، كوجه لنار: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾[١].

وإذا كان الموجّه إليه أمراً معنوياً كعلم أو عقيدة أو شرعة ودين فالوجه إليه هو المعنوي من المواجه، وأحرى مصداق له هو الله ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾[٢] والعبد كله، بظاهره وباطنه وجه لله حيث يواجهه بعلمه وقدرته، ووجه إلى الله، حيث يتجه إليه بكله، بجسمه وروحه وعقله وصدره وقلبه ولبه وفؤاده.

إذاً فللوجه وجوه حسب مختلف الوجوه، فالوجه المقام ﴿لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾ هو الإنسان ببعديه، بظاهر الحواس الخمس، وباطن المدركات الست روحاً ككل، وعقلاً ثم صدراً ثم قلباً ثم لباً ثم فؤاداً، فإنها المراتب المتدرجة المتفاضلة لإدراكات الروح ومعتقداته واتجاهاته.

وهنا الفؤاد أعمق أعماق الروح المتكامل حيث يتفأد بنور المعرفة واليقين كما للرسول الصادق الأمين: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴿١٦﴾﴾[٣].

هذه وجوه سبعة للإنسان يجب أن يقيمها ﴿لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾ ابتداء بـ ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾.

تجب إقامتها، دون توجيهها غير مقامه، حيث الروح الخامل، والعقل المتكاسل، والصدر الضيق الشاغل، والقلب المقلوب القاحل، واللّب أو الفؤاد غير المتكامل، لا توجّه للدين إلّا أن تبوء بخسار، وكما الحسّ وهو

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٢.
(٣) سورة النجم، الآيات: ١١-١٦.

الخطوة الأولى والبلد الأوّل من هذه الرحلة في بلاد العرفات، لا يأتي بغير قيامه إلّا بالبوار.

إلى هنا، وقد عرفت نفسك وأحببته مشياً على صراط مستقيم دون إكباب على وجهك، ثم عرفت وجهك بوجوهه وإقامته فيها، يجب أن تعرف «الدين» المتوجّه إليه كخامسة الخطوات فما هو الدين؟

الدين في أصله هو الطاعة، وهو هنا طاعة الله لأعلى مراتب التسليم، فهو الإسلام، ولا إسلام إلّا بالتوحيد فهو التوحيد، ولا توحيد إلّا بولاية الله تكويناً وتشريعاً، بدء وعوداً، وولايته عبودية و«إلى هاهنا التوحيد» حيث يشمل دين التوحيد والتوحيد الدين: اصول الدين بفروعه.

وإلى سادسة هي عشيرة العشرة ﴿حَنِيفًاۚ﴾ فلتكن حنيفاً مائلاً عن الضلالة إلى الاستقامة في معرفة نفسك وحبها ووجهها وإقامتها والدين المتّجه إليه، حيث الجنف في أيّ من هذه يخسرك في رحلتك، والحنف يربحك فيها، ومهما كان الإنسان حنيفاً بذاته فقد يقصّر أو يقصر فيبدل حنفه إلى جنف:

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾[1] ثم وبصيغة سائغة واجب الحنافة أن تكون في هذه الرحلة عشيرة لعشرة كاملة بين العرفات السبع والوجوه السبعة، باستثناء الحنافة نفسها لأن حنافتها تحصيل للحاصل اللهم إلّا كشفاً عن غطاءها حيث تحسب الجنف حنفاً إذ يحسب ضلاله هدى! وباستثناء الفطرة لأنها حنيفة في ذاتها، والوجه فإنه منقسم إلى سبعة محسوبة في العشرة، ووجه الروح فإنه وجهان من الوجوه السبعة، فهذه العشرة العشيرة مع الحنافة هي الروح: ١ - بمعرفته، ٢ - وحبه وهما وجه الروح، ٣ - وإقامته، ٤ - ومعرفة الدين، ٥ - ووجه الحس، ٦ - والعقل، ٧ - والصدر، ٨ - والقلب، ٩ - واللب، ١٠ - والفؤاد.

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

تلك عشرة كاملة مكملة إذا كانت عشيرة الحنف مهما كانت درجات، ثم هي عشرة ناقصة ناقضة إذا كانت أسيرة الجنف وعشيرته، مهما كانت دركات.

درجات لتلك الكاملة، ودركات لهذه الناقصة، تأمرنا آية الفطرة أن نزودها كلها بحنف، و﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.

فمن حنف الحس بإدراكاته الخمس أن يحس بالدنيا ورائها دون إخلاد عليها ونظرة قاصرة إليها، فالدنيا أمام الحس اثنتان على حد المروي عن الإمام علي عليه السلام «من ابصر بها بصرته ومن أبصر إليها أعمته».

فجنف الحس أن يقصر استعماله في الشهوات فتصبح عيناً لا تبصر وسمعاً لا يسمع، كما وجنف القلب فأصحابها كما قال الله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[1].

ولأن القلب هو قلب الروح فيشمل صدراً قبله ولباً وفؤاداً بعده وعقلاً معها والروح كأمها، وكذلك العين والسمع هما أهم الحواس الظاهرة، فالآية تشمل حنف الحواس الخمس الظاهرة والإدراكات الست الباطنة.

والحنافة من قضايا الفطرة الإنسانية في أعمق أعماق الإدراكات، والجنف ليس مقصوداً بنفسه إلّا لمن يخطأ إليه الحنف قاصراً أو مقصراً وكما يروى عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام «إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله ويتولى عليها رجال رجالاً فلو أن الحق خلص لم يخف على ذي حجى ولو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معاً فهناك استحوذ الشيطان على أولياءه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى».

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

ومن حنف النفس معرفتها كما هي حسب الطاقة البشرية، ومن جنفها تجاهلها كأن النفس هي البدن، وهناك - إذاً - حنف في حبها فحب الله، أم جنف في حبها فحب اللهو، وكذلك حنف إقامتها وجنفها، وحنف الدين وجنفه، وحنف الحس وجنفه.

ومن حنف العقل ان يعقل ما يحق عقله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

ومن جنفه إلّا يعقل: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2] ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3].

أم يصرف عقله في خدمة: الشيطنات والحيونات ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[4].

ومن حنف الصدر انشراحه لتقبّل الحق المعقول: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[5].

ومن جفنه ضيقه: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[6] أو شرحه بالكفر وهو ضيقه عن الايمان.

ومن حنف القلب وعيه وسلمه ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[7].

ومن جنفه تقلّبه عن قلب الإنسان إلى قلب حيوان وهو طبعه ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[8].

ومن حنف اللب ذكره الدائب دون غفلة ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[9].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧١.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٢.
(٤) سورة القصص، الآية: ٦٠.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.
(٧) سورة الشعراء، الآية: ٨٩.
(٨) سورة غافر، الآية: ٣٥.
(٩) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

ومن جنفه أن يكون لباب الحيوان والشيطان، خاوياً عن لب الذكر والإيمان.

ومن حنف الفؤاد تفئوده بنور اليقين: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾(١) وتثبّته بانباء الحق: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾(٢) ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾(٣).

ومن جنفه تفؤده بنيران الجهالات: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾(٤).

إن الإنسان أياً كان يدرك بوجه الحس المحسوسات، وبوجه العقل يدرك المعقولات ببرهان ودون برهان كالمشهودات العقلية وضرورياتها، وبوجه الصدر يصدرها ليعتقدها، وبوجه القلب يطمئن بها، وبوجه اللب يزيل أقشارها واغشاءها ويبقي ألبابها، وبوجه الفؤاد يتفأد تفدية لها، فلا يبقي مجالاً في لبّه لها.

نفس حنيفة بوجه حنيف وإقامة حنيفة لدين حنيف، تسلك صراطها المستقيم دون زلة ولا ضلة، ابتداء من ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ وإنهاء إلى شرعة الله التي كلف الناس بها و﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فالعقل هنا يأخذ الدين بيديه وكلتا يديه يمين، بيد أولى تأخذ من الفطرة، وبثانية تأخذ من الشرعة، ثم تنقل ما أخذت إلى الصدر متكاملاً، ثم إلى القلب فأكمل، ثم اللب فأفضل، ثم الفؤاد وهو أكمل الأفضل وأفضل

(١) سورة النجم، الآية: ١١.
(٢) سورة هود، الآية: ١٢٠.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.
(٤) سورة الهمزة، الآيتان: ٦، ٧.

الأكمل، حيث لا يبقى في لب القلب إلّا شعلة النور المعرفية، متجاهلاً عما سوى الله، متدلياً بالله ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾[1]! ولأن هذه الوجوه السبع درجات، وتلك العرفات السبع درجات.

فالنتيجة الحاصلة للسالك إلى الله درجات حب الدرجات، من أدنى الإيمان إلى أعلاه وإلى العصمة، وإلى أعلاها الخاصة بالرسول الأقدس محمد ﷺ وأهليه الطاهرين عليهم السلام.

هناك وجه للدين وهو شرعة الدين، وهنا وجه إلى الدين وهو مشرعة الدين: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وكما أن دين الشرعة معصوم كذلك دين التكوين الشرعة معصوم، لا اختلاف ولا تخلف في أحكامها.

إذاً - فإلى أحضان الفطرة وأحكامها، لنقيم وجوهنا إليها للدين حنيفاً، وليكن الله معنا.

حب الكمال المطلق

إنّ الإنسان أياً كان يحب الكمال المطلق الذي لا حدّ له، ولأنه لا يجده في نفسه، فهو دائب السعي والجد للوصول إليه، دون أية وقفة في جده وسعيه، ولأن هذا الكون كله محدود وناقص، وكله فقير مفتاق، فلا يجد بغيته الأصيلة فيه، وهو متأكد أن ليس يجدها فيه على أية حال، فلولا أن هناك في الكون كمالاً مطلقاً وهو لا يجده بتاً في هذا الكون، فكيف لا تخمد نار حبه وتفوّد فؤاده للوصول اليه، فلا فتور للفطرة في حب الكمال المطلق.

إنه - قطعاً وبيقين - يحب الكمال المطلق، وهو لا يجده قطعاً ويقيناً في

(١) سورة النجم، الآيتان: ٨، ٩.

هذا الكون المحسوس وكله محدود، فليكن ذلك الكائن اللّامحدود موجوداً وراء الحس والمادة، وهو يحدّد الحدود، ويفيض على المحدود الفقير الفقير في ذاته على أية حال، وهذه هي فطرة المعرفة ودين المعرفة لله.

وهذه ضابطة سارية قاطعة إن واقع الحب يقتضي واقع المحبوب، إلا حباً خاطئاً بتخيّل وجود المحبوب أو إمكانيته، فإذا تأكد من استحالة المحبوب زال حبه إذ لا يعقل حسب المستحيل.

والإنسان المحب للكمال المطلق اللّامحدود حين يتأكد أنه مستحيل في الكون المادي، نراه لا يزول حبه ولا يزال محباً كما كان، وهذا يكشف عن واقع المحبوب وراء عالم المادة دون جدال ولا هوادة.

ولأن الكمال المطلق يقتضي كأصول صفاته الذاتية، الحياة السرمدية، والعلم غير المحدود المطلق عن كل حد وحدود، والقدرة اللّامحدودة بحدود، فهذه الثلاث أيضاً محبوبة فطرية لأنها من لزامات الكمال المطلق، كما أن الحياة السرمدية هي محط العلم والقدرة اللّانهائية.

ثم وكل واحدة منها محبوبة فطرية ذاتية، فلا تجد من الناس أحداً إلّا ويحب هذه الثلاث حباً دائباً لا فتور فيه ولا فطور، ولأنه لا يجدها في هذا الكون المحسوس المحدود، وهو متأكد أنها مستحيلة الوجود له ولسواه من كائن محدود[1] ومع ذلك لا تفتر فطرته في حبّها ذاتية، فلتكن موجودة لمحبوبه الأول الكامل المطلق اللانهائي وهو الله تعالى شأنه.

حبّ عريق في الفطرة، عميق مندغم في ذاتها دون فترة، أولاً يكشف عن وجود محبوبه، ولو أخطأت الفطرة في هكذا حب عريق دائب، فليعش الإنسان أياً كان حياته كله اخطاء واخطاء، وليخطأ عقله على طول الخط،

(١) وذلك لأن اللامحدود من وجود وكمالاته لا يحل في المحدود من جسم، وهذا دليل فطري على أنه تعالى مجرد عن المادة وخواصها.

ما دامت فطرته المعصومة عن الخطأ خاطئة في هكذا محبوب، وبأحرى الأخطاء في حواسه وكل إدراكاته ما دامت فطرته وهي الأصيلة في كيانه، والقاعدة الأصيلة في إنسانيته، هي خاطئة فيما تحبه ذاتية دون تبدّل ولا تبديل، ولكن ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

إن العقلاء يرون عقولهم حجة مصيبة على أخطاءها، وكذلك حواسهم رغم أخطاءها، أفلا يرون - بعد - أن فطرهم مصيبة ولا يختلفون فيها ولا يتخلفون عنها؟

إذاً فدين الفطرة تدين له البشرية عن بكرتها دون خلاف، وهكذا يكون كتاب الله: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

ومن ثم حكم ثان - كما الأول - للفطرة، ان المحبوب واحد لا شريك له، حيث لا يتعلق قلب الإنسان أياً كان، ملحداً أو مشركاً أو موحداً، لا يتعلق - على أية حال - إلّا بنقطة واحدة ولا سيما إذا انقطعت الأسباب، وحارت دون الخطر المحدق كلّ الألباب، كما وآيات ركوب البحر الملتطم بأمواجه، والضر المحيط على الإنسان بأفواجه، تدل على ذلك الحكم الفطري، ومنها الآية التالية آية الفطرة كمثال ماثل من أحكامها: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤)﴾(١) وكم لها من نظير في سائر القرآن مثالاً من أحكام ثابتة عدة للفطرة، لا نكير لها بين الناس أجمعين، وهي حجة الله على الناس بينهم وبينه مهما أنكروها أمام الناس بغية استمرارية حياة الشهوة وحرية الحيونة: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ

---

(١) سورة الروم، الآيتان: ٣٣، ٣٤.

مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾[١] ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾[٢] - ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

ومثال ثان لحكم التوحيد حسب الفطرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾[٤] - ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾[٥] - ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾[٦].

آيات سبع مما تدل على ذلك الحكم الفطري، أن الإنسان في أعمق أعماق كيانه منعطف إلى نقطة واحدة من الكمال اللّامحدود، لا ينعطف إليها بطبيعة الحال، إلّا عندما تقطعت الأسباب التي يعيشها ويظن انها هي

(١) سورة النحل، الآيتان: ٥٣، ٥٤.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٨.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٩.
(٤) سورة يونس، الآيتان: ٢٢، ٢٣.
(٥) سورة العنكبوت، الآيات: ٦٤، ٦٦.
(٦) سورة الإسراء، الآية: ٦٧.

التي تعيّشه وتنفعه أو تضره، فيشركها بربه، أم وينكر ربه مؤلّها إياها ملحداً بربه.

ولولا هنا إلّا ذلك الحكم الحكيم لـ ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ لكفي برهاناً صارخاً من عمق ذاته أن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فإن الاعتراف بأصل وجود الله مطوي فيها دون هوادة.

ومن ثم العقل حيث يتبني الفطرة وسائر الآيات أنفسية وآفاقية، يكمل المعرفة التوحيدية ببراهين تفصيلية هي كتفسير لإجمال ما في الفطرة، ثم الشرعة الإلهية حيث يتبناهما، تشرح كلمة التوحيد بتفاصيل حكيمة معصومة، ملائمة للفطرة أولياً وللعقل ثانوياً، إذا فثلّت الدين الحنيف القيم، كله صارخ بأن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

فالشرعة تصوّب إجمال حكم الفطرة وتخطّئ البعض من أحكام العقل المتخلفة عن الفطرة، وترشده على ضوء الفطرة إلى صراط مستقيم.

ومن حكم العقل استحالة التعدد في المطلق، ولا سيما الذي لا حدّ له، حيث التعدد بحاجة ماسة إلى ميزة بين المتعددين، هي الفصل المايز الفاصل بينهما، وما يز الزمان والمكان والحدود المادية الأخرى مسلوب عن ذلك الكامل المطلق، ومايزة الصفات ذاتية وفعلية مستحيلة في غير المحدودين، فإنها إما صفة كمال أو نقص، والثاني يناقض كما له فضلاً عن اللانهائي، والكمال لكلّ دون الآخر يحكم بنقص الآخر فهما - إذاً - ناقصان.

وكيف يمكن التعدد في المطلق اللّامحدود، ولا يمكن في محدوده، فمطلق الماء دون أية قيود وحدود وألوان ليس إلّا واحداً، والماء في ذلك الإطلاق محدود في واقعه، فالمطلق اللّامحدود مستحيل التعدد من بعدين اثنين.

وحكم ثالث تحكم فيه بالحياة الآخرة هو حب الحياة اللانهائية لنفسه، وهذا يختلف عن حب الحياة السرمدية المستحيلة له، حيث الفطرة تحب مطلق الكمال كما تحب الكمال المطلق، والثاني منفصل عن ذاته، مستحيل لذاته، والأول محبوب لذاته في ذاته ومنه الحياة الأبدية، ففي حين تعلم كلّ نفس انها ذائقة الموت، ومع ذلك لا فتور في فطرته لحب الحياة الأبدية، فلو كان موته فوته، دون حياة بعده، لكان محبوبه تخيّلاً لا واقع له، والحب الفطري المندغم في الذات يحيل عدم المحبوب، ويفرض وجوده، وإذ لا أبدية في الحياة الدنيا فلتكن بعدها وهي حياة الحساب.

ولئن سألت: إذا كانت الحياة محبوبة الذات فلماذا ينتحر البعض رغم حب الحياة؟

قلنا: وذلك دليل آخر على حب الحياة، فلا أحد يرجّح الموت على الحياة إلّا لحب الذات بحياة مريحة، وأما الحياة الهرجة المحرجة المريجة، فلا يتصبّر عليها إلّا كل ذو حظ عظيم من معرفة الحياة بعد الممات، ثم قليلو المعرفة، والناكرون للحياة بعد الموت، هؤلاء قد يفضّلون الموت على شقوة الحياة، حباً لراحة الحياة وبغضاً لشقوتها، ثم وكافة المحاولات للإنسان تهدف إلى حياة مريحة مستمرة كأطول ما يمكن، فلا أحد - إذاً - إلّا ويحب الحياة بأبديتها.

ومما يؤيد ذلك الحكم حكم الفطرة بحب استدامة الصيت والاسم بعد الموت، فلو كان الموت فوتا لفترت الفطرة في حكمها أو نفدت فيه، ونحن نرى المعترف بالحياة بعد الموت والناكر لها يحبان ذلك الصيت كما يحبان الأبدية، دون فتور لهذا الحب أو ذاك، مع العلم بواقع الموت، فلو لا الحياة بعد الموت، فلا موقع لذلك الحب! ولا سيما لمنكر الحياة بعد الموت، فما يفيده صيته وتردّد اسمه بخير على الألسن بعد موته إذا كان موته فوته، فمن ذا الذي يحظو ببقاء اسمه لو لا حياته بعد موته؟

هذا حكم الفطرة، وثم العقل يحكم بلزوم الحياة بعد الموت قضية علمه تعالى وعدله فليجازي المحسن والمسيء، وإذ لا جزاءً في الدنيا فليكن في الأخرى، تداوماً وتفصيلاً لحكم الفطرة.

ثم الشرعة المعصومة فيها كل تفاصيل ذلك الحكم الفطري والعقلي، مخطئة أخطاء العقل، مقررة صوابه وحكم الفطرة.

وحكم رابع للفطرة وجوب احترام المحبوب الكامل الحاضر المقتدر العالم المنعم المنتقم، وكل هذه السبع موجودة لله الواحد القهار لأعلى القمم، ولا بد أن يحترم كما يشاء ويرضى ولا سبيل إلى معرفة مشية ورضاه في كيف يحترم ويعبد إلّا بوحيه، وإذ لا يوحي إلينا أجمع فليوح إلى بعض الصالحين من عباده المخلصين، وهذه هي النبوة العامة، الأصل الثالث من أصول الدين الحنيف القيم.

فلأنه تعالى هو الكامل لغير النهاية، فليكن محبوباً لغير النهاية، وقضية الحب احترام المحبوب قدر الحب حتى في غيبه فكيف إذا كان حاضراً ناظراً فإنه قضية العلم المطلق، وكيف إذا كان قديراً على كل شيء؟ فإنه قضية الكمال المطلق كما العلم! وكيف إذا كان منعماً؟ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[1] ومن ثم إذا كان منتقماً بعدله بين خليقته.

ثم الفطرة تحب مطلق المعرفة كما تحب المعرفة المطلقة ومعرفة المطلق وهو الله تعالى شأنه، ومن ثم العبودية لذلك المطلق استكمالاً للإنسان، ثم العدالة تعديلاً لكيانه وسائر الإنسان.

حب المعرفة يجذبه إلى معرفة الله وتوحيده، وحب المعدلة تعرّفه أنه لا بد من حياة الحساب بعد الموت ليظهر فيه عدل الله تعالى إذ لم يظهر تماماً

(١) سورة النحل، الآية: ٥٣.

يوم الدنيا لأنها يوم التكليف الاختبار الاختيار، وحب العبودية تدفعه إلى التفتيش عن كيف يعبد ربه ولا سبيل له إلا الوحي.

فهذه الأصول الثلاثة المعرفية كلها مندغمة في الفطرة إذا أزيلت عنها حجب الظلمة، واستفرغت لاتجاه الإنسان بوجوهه لها وإليها حنيفاً في عشرة كاملة، و﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ما من إنسان إلّا ويحب التخضع لحد والعبودية للأكمل منه، فهل يجد أكمل من الله وأفضل أو من يساميه في محتده فيعبده دونه أو يشركه به؟

ذلك هو الميثاق المأخوذ على ذرية بني آدم كما تتحدث عنها آية الذرية، وهي ذرية الروح لمكان المعرفة ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾[1] فـ ﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[2] لا تعني إلّا ظهور الأرواح وهي أصلابها الأعماق، وهي الأصول الفطرية التي تتبناها الأرواح.

فكما للجسم ظهر الصلب وهو النطفة الجرثومية التي هي أصل الجسم، كذلك للروح ظهر الصلب وهو الفطرة الجرثومية التي هي أصل الروح، وهما البعدان الأولان لأيّ إنسان! وإليكم تفاصيل الدرجات السبع لأحكام الفطرة، حيث تتدرج الست منها من حب الكمال المطلق الذي لا حدّ له.

سبق أن تحدثنا عن حب الكمال المطلق وعلى ضوءه معرفة الخالق وتوحيده و«هل الدين إلا الحب»؟

١ - ثم حب ذلك المطلق اللانهائي تفرض احترامه على أية حال دون أي اختبار، واحترام الكامل - أياً كان - هو من الحقائق الفطرية بالنسبة لأي كامل بأي كمال، حاضراً وغائباً، مقتدراً وعاجزاً، عالماً وجاهلاً، منعماً أو متنعماً، منتقماً إن لم تحترمه أو غير منتقم، فما جوابك في الهول

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

المطلع حين يسألك ربك: ألم أكن كاملاً وأكمل من سائر الكون، فكيف احترمت كل كامل واخترمت خالقهم؟

٢ - ثم احترام المحبوب فطري حتى إن فقدت الست الأخرى، فما جوابك حين تُسأل: ألم أكن محبوبك، واجداً للست الأخرى أكمل وأحرى من سائر الكون، فكيف احترمت كل محبوب واخترمتني وانا فوق كل محبوب؟

٣ - ثم احترام المقتدر فطري إذا كان عادلاً حتى ان فقدت الست الأخرى، فما جوابك حين تسأل: ألم أكن مقتدراً عدلاً وأفضل من سائر الكون، فكيف احترمت كل مقتدر سواي واخترمتني؟

٤ - ثم احترام العالم فطري حتى إذا فقدت الست الأخرى، فما جوابك حين تسأل: ألم أكن عالماً وأعلم من سائر الكون؟ فكيف احترمت كل عالم سواي واخترمتني؟

٥ - ثم احترام المنعم فطري حتى إذا فقدت الست الأخرى فما جوابك حين تسأل: ألم أكن منعماً عليك وعلي كل المنعمين عليك، فكيف احترمت كل منعم عليك واخترمتني؟. ثم احترام المنتقم - إلى - واخترمتني.

٧ - ثم احترام الحاضر - أياً كان - فطري، حتى إذا كان عدواً لك، وحتى إذا كان صورة منه أو تمثال، لا يتجاوز حضوره عالم الخيال، فما جوابك حين تسأل: ألم أكن معك حاضراً حضور العلم ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ حاضراً عندك أكثر من حضورك أنت لنفسك، فـ «اعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ما جوابك حين يسألك ربك، ألم أكن كاملاً محبوباً مقتدراً عالماً منعماً منتقماً وحاضراً عندك، وأفضل في كل ذلك لغير النهاية من غيري ولو جمع السبعة، فكيف احترمتهم واخترمتني؟.

إن جواب المخلصين من عباد الله هو إخلاص العبادة لله على درجاتهم، بل ليسوا ليسألوا كمن سواهم! ثم جواب المؤمنين فيما قصروا في كبيرة أو صغيرة: أننا كنا غافلين، مهما كنا في غفلتنا مقصرين:

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا. . .﴾[1] اعتذاراً مقبولاً لمن تركوا كبائر ما ينهون عنه: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[2].

ثم لمن يستشفع فيشفع له عفواً في قسم من الكبائر، ثم لمن لا شفاعة وله بقية من الإيمان عقوبة الدنيا ثم البرزخ ثم القيامة ثم إلى رحمة الله.

ومن مقال المذنبين من المؤمنين ما قاله آدم وزوجه ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[3].

ثم لا جواب لغيرهما من مطلق الكافرين، منافقين أم أهل كتاب منسوخ، أم مشركين أم ملحدين، حيث الأحكام الفطرية تشمل الناس أجمعين، لا يفلت منها فالت.

فيا ويلنا من هول المطّلع حين يستجوبنا ربنا عما اخترمناه، حينما احترمنا سواه من خلقه وهم غيّب، وإذا كانوا حضوراً فهم بحضرته صغار صغار.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ فإنها مشرّعة لمعرفة الشرعة الإلهية وتصديقها، وما هذه الشرائع إلّا شراحاً لأحكام الفطرة، وقد يعتبرها القرآن ذكريات لما في الفطرة حيث حجبت فاستغفلت، فآيات القرآن ذكريات لآيات الفطرة وأين آيات من آيات وإن كانت كلها معصومة لأنها مما كتب الله.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

فآيات ذكر الله في كتاب الشرعة توحي بأصل المعرفة المحجوبة في الفطرة ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[(١)] ولا ذكر إلّا بعد نسيان، كما لا نسيان إلّا عن كائن سابق.

كما وآيات ذكر الإنسان بخلقه ولم يك شيئاً توحي بأصل المعرفة أن الله خالقه: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾[(٢)].

وآيات ذكر الإنسان بنعم الله السابغة توحي باعترافه المنسي المتغافل المتجاهل: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[(٣)] ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[(٤)].

ثم والشرعة الإلهية جملةً وتفصيلاً، أصولاً وفروعاً، ليست إلّا ذكرى، ولا الرسول ﷺ إلّا مذكراً: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[(٥)] ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾[(٦)] وأخيراً: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (٢٢)﴾[(٧)] ولا تذكير إلّا بماله أصل سابق سابغ مغفول، فلتكن الشرعة كائنة في الفطرة مغفولة.

لذلك يسمى كتاب الشرعة ذكراً ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾[(٨)] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[(٩)] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨)﴾[(١٠)] ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾[(١١)] ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾[(١٢)] كذلك وكل كتاب سماوي ذكر: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ...﴾[(١٣)].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.
(٢) سورة مريم، الآية: ٦٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣١.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٧٤.
(٥) سورة ق، الآية: ٤٥.
(٦) سورة الأعلى، الآية: ٩.
(٧) سورة الغاشية، الآيتان: ٢١، ٢٢.
(٨) سورة آل عمران، الآية: ٥٨.
(٩) سورة الحجر، الآية: ٩.
(١٠) سورة التكوير، الآيتان: ٢٧، ٢٨.
(١١) سورة الأنبياء، الآية: ٥٠.
(١٢) سورة يس، الآية: ١١.
(١٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢.

كما وإن رسوله ذكر يحمل ذلك الذكر: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ...﴾[1] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾[2].

يذكر الذكر في القرآن بمختلف صيغة وموارده زهاء (٢٦٧) مرة مما يبرهن واضحة إن كتاب التدوين الشرعة نسخة كاملة عن كتاب التكوين الفطرة، مهما بان البون بينهما جملةً وتفصيلاً.

فلنقرء كتاب الفطرة بإقامة الوجه إليها حنفاء لكي تتسهل لنا قراءة كتاب الشرعة، نقرء كتاب الفطرة بحنف في بنوده العشرة.

ففي إقامة وجه الحس بوجوهه الخمسة، المفروض إصلاح الحس دون إخلاد فيها إلى الأرض واتباع الهوى، فليعرف بفطرياته السبع إنه في استعمال حواسه أمام محبوب كامل مقتدر عالم منعم منتقم حاضر، فليكن حاذراً متحضراً في صلاحه على أية حال.

وفي إقامة وجه العقل إلى الدين حنيفاً لا بد من مراجعة الفطرة في أحكامها، كيلا يخطأ أو يقصر أو يقصّر في تعقله، ولينظر إلى آيات الله آفاقية وأنفسية على غرار الفطرة.

وفي إقامة وجه القلب إلى الدين حنيفاً لا بد من قطع العلائق العالقة الحالقة الدنيوية لكي تتجلى فيه نور المعرفة، وهذه الثلاث هي أصول وجوه الإنسان، حيث القلب قلب بين الصدر قبله واللب والفؤاد بعده، وهذه حالاته ودرجاته.

وبذلك نرى ربطاً عريقاً عميقاً بين كتاب الفطرة وكتاب الشرعة وكلاهما من صنع الله وفقاً لناموس الكون.

---

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ١٠، ١١.

(٢) سورة يس، الآية: ٦٩.

فالاعتراف بالربوبية الوحيدة فطرة غير وهيدة في الكيان الإنساني، أودعها الله تعالى في هذه الكينونة الغالية، فالرسالات - إذاً - ليست إلا تذكيرات لها، وتحذيرات، لمن ينحرفون عنها وينجرفون، فهم - إذاً - يحتاجون إلى تذكيرات وتحذيرات، فالتوحيد إذا ميثاق معقود بين فطرت الناس وخالق الناس منذ كينونتهم الأولى، فلا حجة لهم في نقض ذلك الميثاق وحتى لو لم يبعث إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، ولكن رحمته تعالى اقتضت ألّا يكلهم إلى فطرهم إذ قد تنحرف حين تحجب، ولا إلى عقولهم إذ تنجرف حتى إذا لم تحجب، فلتلك معصومة في أصلها، وهذه ليست معصومة.

﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾:

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ . . . مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ - إقامة بادئة من رسول الهدى، ناحية منحى كل المرسل إليهم كـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[(١)] و﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[(٢)]. والإنابة هي الرجوع بنوبات متتاليات، وإقامة الوجه إلى الدين حنيفاً بحاجة في كمالها إلى حالة الإنابة إلى الله كما و﴿مُنِيبِينَ﴾ حال من «أقم» بتأويل الجمع كما قلناه أم لأنه يعني الجمع على الأبدال، ﴿فَأَقِمۡ﴾ أنت يا رسول الهدى، وكل من يأهل لهذا الخطاب، أم «أقم» ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[(٣)].

وليس فقط ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ بالوجوه الباطنة أم بوجه القال، بل وبوجوه الأعمال: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ ولكي تكمل الصلاة في هذه الإقامة الإنابة الاتقاء:

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ١.
(٢) سورة هود، الآية: ١١٢.
(٣) سورة هود، الآية: ١١٢.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فإنها خير الصلات إلى الله ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ المفرّقين دينهم بين الله وما اتخذوها شركاء لله:

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

تفريق الدين وهو الطاعة لله عَزَّوَجَلَّ، يقابل إقامته له لا شريك له: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ...﴾[1] - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[2].

فـ ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هنا ليسوا فقط الوثنيين، بل وأهل الكتاب المفرقون دينهم هم داخلون هنا في زمرتهم، فإن إقامة الوجه للدين حنيفاً بإنابة واتقاء وإقام الصلاة، هذه تناحر وتفرق الدين، فإنه خلاف الفطرة والشرعة الإلهية، ولا يرضى الله من عباده شيعاً متفرقين في دينه، ولا يحكم في عصر واحد إلّا شرعة واحدة من الدين، وهذا هو إقامة الدين، قياماً له في كل زمن بشرعة يشرعها الله منه.

والمفرقون في الدين هم أحزاب وليسوا متشرعين بشرعة الدين الموحدة بين كافة المكلفين: فـ ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ﴾ - منهم - ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ ولا فرح لديّن إلّا بما شرّعه الله لا ما فرقه هو من دين الله، وهؤلاء كما المشركون تبنّوا دينهم على أهوائهم بغير علم وهم يعلمون، متجاهلين عن حكم الفطرة والعقل والدين، ولأن الأهواء مختلفة، والجهالات متفرقة، فهم لذلك فرقوا دينهم بكل فرقة فرقة فرقة، وشيعة شيعة، وحزباً حزباً ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٩.

فَرِحُونَ﴾ - ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[1].

إنه لا تنتهي أنماط الشرك وسبله إلى نهاية إذ لا نهاية للأهواء الجاهلة في هوساتها، والصراط المستقيم هو إقامة الدين بشرعة واحدة، مهما اختلفت بعض التصورات الفرعية في بعض الفروعات على ضوء الاجتهادات السليمة فإنها لا تضر بوحدة الشرعة في إقامة الدين، كما أن مختلف الواجبات والمحرمات حسب مختلف الظروف والحالات لا تضرّ بها، وإنما التنديد في هذه الآية واضرابها بمن يتفرقون في أصل الدين عن هوى جاهلة، دون اختلاف الاجتهادات في البعض من فروعها عن هدى كاملة، سناداً إلى الكتاب والسنة، اللهم إلّا اجتهادات متخلّفة عن حجة الكتاب وثابت السنة قاصرة أم مقصرة.

ومن جلوات الفطرة بأحكامها حالات الضرّ وتقطّع الأسباب إذ لا أمل فيما كانوا يأملون أو يعملون:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾[2].

وهذه إندفاعة وإنابة إلى الله فطرياً بتيارات الضر الطائرات أحياناً، إذ لا يجد الإنسان عندها ملجأ إلّا الله الذي كان ناكره أو مشركاً به قبلها، فهنا ﴿دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ إتجاهاً ضارياً بنوبات متتالية وصرخات مدوية لا تنقطع.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

(٢) سورة العنكبوت، الآيتان: ٦٥، ٦٦.

﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ تكشف ضرهم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ وهم الأكثرية الساحقة ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ سواه قائلين: هذه صدفة طيبة، أم لو لا فلان لما كشف عني ضري، أماذا من خربطات القيلات التي هي ويلات على أصحابها، وترى ما هو موقف «منه» هنا؟ هل هي: من الله؟ ولا ريب في أن رحمة الله هي من الله لا سواه، ولا سيما أن القائل هو الله، فقد تلمح «منه» كأن هناك رحمات من غير الله يؤتيها الله لمن مسّه ضر، ويكأن الله ليست عنده رحمة فيستدينها ممن سواه! «منه» قد لا يعني من الله، بل هو من ضر مسّه، ليعلم انها رحمة خاصة بهذا الضر دون مطلق الرحمة التي لا ينالها إلّا الأقربون، وإنما رحمة من ضرهم، تخلصهم عنه، فقد تكون - على خاصتها - رحمة سلبية - فقط - هي إزالة الضر الخاص.

فهناك من الضر رحمة بإيجابه ورحمة بسلبه «فإذا أذاقهم منه (الضر) رحمة» تسلبه...

وقد تعني «منه» - إضافة إلى الضر - الله سبحانه، رحمة من الله من ضرّ، ولا ضير أن يكون ضمن المعنى وعلى هامشه، إذ لا تلمح - إذاً - ما لمحته أولاً، بل وقد يعنى الثاني أصالة كما الأول كما ﴿...وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا...﴾[1].

و«منا» هي لبيان أن الرحمة ليست مستحقة للإنسان أياً كان، فإنما هي فضل من الله دونما استحقاق لأهله، بل هو إمتحان كما الضر إمتحان.

إذاً فأصل المعني في «رحمة منه» هو الرحمة من الله، مهما كانت بازالة ضر مسّه أم سواها.

ولماذا ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[2] بعد الإنابة وذوق رحمة منه؟:

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٨.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٤﴾:

لا يعني إشراكهم عند الرحمة انقلاب الفطرة عن الله إلى سواه، فإنما هو غفلة عامدة، وغفوة عائدة، مصلحية الحفاظ على إشراكهم بالله ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ﴾ بعدما آمنوا، كفراناً فكفراً، وهنا يوجّه إليهم خطاب العتاب. ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ بما أذقناكم من رحمة تمتّع الحيوان وأحون، وهذا نهي صارم بصيغة الأمر، يوجّه إلى من لا يجديه نهي ولا أمر حين يتخلف عن فطرته وعقليته وشرعته، تجاهلاً عن كل ذلك كأنه لا يعلم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في البرزخ والقيامة أم وهنا في الرجعة أو قبلها ﴿تَعْلَمُونَ﴾ عين اليقين وحق اليقين، برؤية العذاب وذوقه بما كنتم تكفرون.

في العنكبوت «ليتمتعوا» بعد «ليكفروا» وهنا «فتمتعوا» بيان لموقف هذا الأمر، انهم يشركون بغية الكفر والتمتع، فليؤمروا بما ابتغوا كنهي صارم بصيغة الأمر إذ لا أسماع تصغي ولا قلوب تعي فـ ﴿ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[1].

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ۝٣٥﴾:

أتدلهم فطرتهم أو عقليتهم أو شرعة الله إلى اشراكهم؟ ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ آخر غير سلطان التكوين فطرة وعقلية، وسلطان التشريع في كل شرعة ﴿فَهُوَ﴾ السلطان المتخلف عن مثلث السلطان ﴿يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ فما هو ذلك السلطان؟! أم هل يجوز أن ينزل عليهم سلطانين متناقضين في التوحيد والإشراك، أم لهم سبيل إلى نكران مثلث السلطان الدال على التوحيد، ولا سيما فطرت الله التي فطر الناس عليها.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

﴿رَحْمَةً﴾ هنا علّها أعم مما هناك، فإنها مطلق الرحمة وتلك «رحمة منه» وقد تكون خاصة بإزاحة الضر، و﴿فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ﴾ مقابل ﴿يَقْنَطُونَ﴾ يتضمن الأمل، فالناس هنا هم الآملون في إذاقة الرحمة، القانطون في إصابة السيئة بما قدمت أنفسهم.

تراها كيف تلائم المعاكسة في الآية السابقة القائلة عن الناس أنهم حين يمسهم الضر ينيبون إلى ربهم ولزامها الأمل وحين ذوق الرحمة مشركون ولزامه القنوط؟

هنا ﴿رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ﴾ تعم الفرح المرح، وقد يتضمن الإشراك بالله، وغيره الجامع أحياناً مع إيمان دون تمام، وهناك «رحمة منه» هي المزيلة للضر وهنا فريق منهم يشركون لا كلهم، ثم وإصابة السيئة حيث تقنطهم قد تجمع القنوط القاحل بنكران الله، وأخرى القنوط الذي يدفعه للإنابة إلى الله لكي يزول بزوال أسبابه.

ثم الناس هنا غير الناس هناك فإنهم مختلفون في إذاقة الرحمة وإصابة الضر بمعاكسة، فـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾[1] والناس هنا مثالهم كما ﴿. . . وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾[2]. ومنهم من يعاكس هؤلاء، والآية الأولى مثالهم كما ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾[3]

(١) سورة الحج، الآية: ١١.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٨.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٥١.

ومنهم من هم على سواء في الحالتين، راضين بمرضات الله ومثلهم: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾(١).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

بسط الرزق وقدره أياً كان إنما هما بمشيئة الله حسب الحكمة العالية الربانية كما يراها الله، وفي كلّ من البسط والقدر ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله، أنه لا يبسط أو يقدر رزقه إلّا بحكمة إمتحاناً أو إمتهاناً، وفي كلّ ابتلاء، بل البلاء في خضمّ الرزق أبلى وأشجى من قدره.

والواو هنا قد تعطف إلى ما تغافلوا عنه وهو: إن لم يروا معاكسة في الرزق وقدره بين المؤمنين وسواهم، بسطاً لهم في الأكثر وقدراً للمؤمنين، وليس في ذلك حط لقدرهم أولاء ورفع لقدر هؤلاء، فإن لم يروا ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ بصورة طليقة بين القبيليين ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ مؤمناً وكافراً على قلة اهتمام في طلبه وجهله بموارده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ لمن يشاء على كثرة اهتمامه وعلمه بموارده ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الاختلاف الظاهر في بسط الرزق وقدره ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ تدل على قدرة حكيمة وإرادة طليقة وراء القدرات والمحاولات.

ثم البسط والقدر هنا لا يخصان حقل التكوين بل والتشريع أيضاً حيث يفضّل الله بعضاً على بعض في الرزق إيتاء وإنفاقاً وكما:

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

آيتان تامرانه ﷺ بإيتاء ذي القربى حقه أولاهما في الأسرى: ﴿وَءَاتِ ذَا

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾(١) وقد قدمنا فيها أن ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ هو صاحب القرابة الأدنى إلى رسول الهدى ﷺ: نسبياً ورسالياً، حقّ المال وحقّ الحال، إمرة للإمام علي وفدكاً لفاطمة عليها السلام وقد آتاهما(٢).

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٦.

(٢) ومما ورد في شأن نزولها ما ذكره ملا معين الكاشفي في معارج النبوة (١ : ٢٢٧) لما نزل جبرئيل إلى رسول الله ﷺ بقوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسرَاء: ٢٦] قال رسول الله ﷺ: من ذو القربى وما حقه؟ قال: هو فاطمة فأعطها فدك. في مجمع الزوائد عن أبي سعيد قال: لما نزلت دعا النبي ﷺ فاطمة فأعطاها فدك، كما أخرجه عنه البزار وأبو يعلي وابن أبي حاتم وابن مردويه، ومن وجه عام في القربى أخرج الثعلبي في تفسيره روى عن السدي عن أبي الديلمي عن علي بن الحسين عليه السلام قال: نحن ذو القربى.

أقول: قد اوردنا أحاديث من طرق إخواننا السنة حول قصة فدك في تفسير الآية ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النّمل: ١٦] في سورة النمل فلا نعيدها هنا، وإنما نذكر نموذجاً مما رواه أصحابنا الإمامية، منها ما في تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن عثمان بن عيسى وحماد بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما بويع لأبي بكر واستقام له الأمر على جميع المهاجرين والأنصار بعث إلى فدك من أخرج وكيل فاطمة بنت رسول الله ﷺ منها فجاءت فاطمة عليها السلام إلى أبي بكر فقالت: يا با بكر منعتني ميراثي من رسول الله ﷺ وأخرجت وكيلي من فدك وقد جعلها لي رسول الله ﷺ بأمر الله عز وجل؟ فقال لها: هاتي على ذلك شهوداً فجاءت بأم ايمن فقالت: لا أشهد حتى احتج يا أبا بكر عليك بما قال رسول الله ﷺ فقالت: أنشدك يا أبا بكر ألست تعلم أن رسول الله ﷺ قال: أم ايمن امرأة من أهل الجنة؟ قال: بلى قالت: فأشهد بأن الله أوحى إلى رسول الله ﷺ ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسرَاء: ٢٦] فجعل فدك لفاطمة بأمر الله وجاء علي فشهد بمثل ذلك فكتب لها كتاباً ودفعه أليها فدخل عمر فقال: ما هذا الكتاب؟ فقال أبو بكر: إن فاطمة ادعت في فدك وشهدت لها أم ايمن وعلي فكتبت لها بفدك، فأخذ عمر الكتاب من فاطمة فمزقه وقال: هذا فيء المسلمين، وقال: أوس بن الحدثان وعائشة وحفصة يشهدون على رسول الله ﷺ أنه قال: انا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة، وان علياً زوجها يجرّ إلى نفسه وام ايمن فهي امرأة صالحة لو كان معها غيرها لنظرنا فيه، فخرجت فاطمة عليها السلام من عندها باكية حزينة فلما كان بعد هذا جاء علي عليه السلام إلى أبي بكر وهو في المسجد وحوله المهاجرون والأنصار فقال: يا با بكر لم منعت فاطمة من ميراثها من رسول الله ﷺ وقد ملكته في حياة رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: هذا فيء المسلمين فإن أقامت شهوداً ان رسول الله ﷺ جعل لها والا فلا حق لها فيه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام =

وتراها كيف تعني الحقين وهما مدنيتان وهي مكية؟ قد تكون هي

= تحكم فينا بخلاف حكم الله في المسلمين؟ قال: لا، قال: فإن كان في يد المسلمين شيء يملكونه وادعيت أنا فيه من تسأل البينة؟ قال: إياك كنت اسأل البينة على ما تدعيه على المسلمين، قال: وإذا كان في يدي شيء فادعى فيه المسلمون فتسألني البينة على ما في يدي وقد ملكته في حياة رسول الله ﷺ وبعده ولم تسأل المسلمين البينة على ما ادعوا علي شهوداً كما سألتني على ما ادعيت عليهم شهوداً؟ فسكت أبو بكر ثم قال عمر: يا علي دعنا من كلامك فانا لا نقوى على حجتك فإن أتيت شهوداً عدولاً وإلا فهو فيء المسلمين لا حق لك ولا لفاطمة فيه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام يا أبا بكر تقرأ كتاب الله؟ قال: نعم، قال: فأخبرني عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] فيمن نزلت، فينا أم في غيرها؟ قال: بل فيكم، قال: فلو ان شاهدين شهدا على فاطمة بفاحشة ما كنت صانعاً؟ قال: كنت أقيم عليها الحد كما أقيم على سائر المسلمين، قال: كنت إذا عند الله من الكافرين، قال: ولم؟ قال: لأنك رددت شهادة الله لها بالطهارة وقبلت شهادة الناس عليها كما رددت حكم الله وحكم رسوله ان جعل لها فدكا وقبضته في حياته ﷺ ثم قبلت شهادة اعرابي بائل على عقبيه مثل أوس بن الحارث عليها وأخذت منها فدك، وزعمت أنه فيء المسلمين وقد قال رسول الله ﷺ البينة على المدعي واليمين على من أدعى عليه، قال: فدمدم الناس وبكى بعضهم فقالوا: صدق والله علي عليه السلام ورجع علي إلى منزله قال: فدخلت فاطمة عليها السلام المسجد وطافت بقبر أبيها ﷺ وهي تبكي وتقول:

انا فقدناك فقد الأرض وابلها ... و اختل قومك فاشهدهم ولا تغب
قد كان بعدك انباء وهنبثة ... لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
قد كان جبريل بالآيات يونسنا ... فغاب عنا فكل الخير محتجب
وكنت بدراً منيراً يستضاء به ... عليك تنزل من ذي العزة الكتب
تهضمتنا رجال واستخف بنا ... إذ غبت عنا فنحن اليوم مغتصب
وكل أهل له قربى ومنزلة ... عند الإله على الأدنين مقترب
أبدت رجال لنا نجوى صدورهم ... لما مضيت وحالت دونك الترب
فقد رزينا بما لم يرزه أحد ... من البرية لا عجم ولا عرب
فقد رزئنا به محضاً خليقته ... صافي الضرائب والأعراق والنسب
فأنت خير عباد الله كلهم ... و اصدق الناس حين الصدق والكذب
سيعلم المتولي الظلم حامتنا ... يوم القيامة أنى كيف ينقلب

قال: فرجع أبو بكر إلى منزله وبعث إلى عمر فدعاه ثم قال: أما رأيت مجلس عليّ بنا اليوم؟ والله لئن قعد مقعداً مثله ليفسدن علينا أمرنا فما الرأي؟ قال عمر: الرأي ان نأمر بقتله، قال: =

وصاحبتها مكية إعلاناً من قبل أن يؤتي ذا قرباه حقه وقته مهما كان مدنياً، ثم نزلت في المدينة ثانية، أم فسرت فيها بالحقين وأضرابهما، أم هي مدنية ولا تنافيها مكية السورة ككلّ، وأمثالها غير قليل.

و﴿حَقَّهُۥ﴾ قد تلمح بحق ثابت لا قبل له، وهو حق القرابة روحية رسالية كالإمرة بعده أم سواها كفدك وسواه من حق لفاطمة عليها السلام ثم ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ تعني حقوقهم أياً كانوا وأيان، ثم ومن واجهة أخرى تامر الآية كافة المخاطبين بإيتاء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل.

و﴿ذَٰلِكَ﴾ البعيد المدى من إيتاء الحق ﴿خَيْرٌ﴾ قبال الشر وهو ترك الإيتاء ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ في الحياة الدنيا، دون وجهها الظاهر الملهي الملغي وجه الله ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ شقاً لمزرعة الحياة فإنتاجاً منها، كما الفلّاح يشقّ، فأولئك هم الناجون الناجحون، ولأن الإيتاء هنا

= فمن يقتله؟ قال: خالد بن الوليد، فبعثا إلى خالد فأتاهما فقالا: نريد أن نحملك على أمر عظيم، قال: احملاني على ما شئتما ولو قتل علي بن أبي طالب قالا: فهو ذاك، قال خالد: متى اقتله؟ قال أبو بكر: إذا حضر المسجد فقم بجنبه في الصلاة فإذا أنا سلمت فقم إليه فاضرب عنقه، قال: نعم، فسمعت اسماء بنت عميس ذلك وكانت تحت أبي بكر فقالت لجاريتها: اذهبي إلى منزل علي وفاطمة فاقرئيهما السلام وقولي لعلي عليه السلام: إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين. فجاءت الجارية إليهما فقالت لعلي عليه السلام إن اسماء بنت عميس تقرأ عليكما السلام وتقول لك: «إِنَّ ٱلْمَلَأَ . . ». فقال علي عليه السلام: إن الله يحول بينهم وبين ما يريدون، ثم قام وتهيأ للصلاة وحضر المسجد ووقف خلف أبي بكر وصلى لنفسه وخالد بن الوليد بجنبه ومعه السيف فلما جلس أبو بكر في التشهد ندم على ما قال وخاف الفتنة وشدة علي عليه السلام وبأسه فلم يزل متفكراً لا يجسر أن يسلم حتى ظن الناس أنه قد سهى ثم التفت الىّ خالد فقال: يا خالد ما الذي أمرك به؟ قال: أمرني بضرب عنقك، قال: أو كنت فاعلاً؟ قال: أي والله لولا أنه قال لي لا تفعل لقتلتك بعد التسليم، قال: فأخذه علي فضرب به الأرض واجتمع الناس عليه فقال عمر: يقتله الساعة ورب الكعبة، فقال الناس: يا أبا الحسن الله الله بحق صاحب هذا القبر فخلى عنه، قال: فالتفت إلى عمر فأخذ بتلابيبه وقال: يا ابن صهاك لولا عهد من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكتاب من الله عز وجل سبق لعلمت أينا أضعف ناصراً وأقل عدداً».

طليق فليكن كذلك طليقاً في الوجه العام فيشمل الزكاة كأهم الإيتاءات كما في الآية التالية، ترغيباً فيها بأضعاف، وترهيباً عن الربا بتضعيفه:

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

هنا ﴿مِّن رِّبًا﴾ هي الزيادة أيّاً كانت لمكان «من» فتشمل كل زيادة مؤتاة لتزيد في أموال الناس، سواء أكانت الربا المحرمة أم المحللة، فحين لا يقصد مؤتيها ليربوا في أموال الناس، بل يقصد تمشية حاله بالقرض الربوي دون ضرورة واضطرار كان محظوراً، فضلاً عما إذا ينوي ليربوا في أموال الناس قصداً إلى تضخيم الرأسمالية المحرمة ودولة المال بين الأغنياء فإنه أشد محظوراً وأشجى.

ومن الربا المحرمة دون هذه إيتاء الزكاة لغير أهليها من الأثرياء وغير المحاويج، «ليربو في أموالهم» وإن قصد وجه الله لو صح منه هذا القصد.

ومنها إيتاء الزكاة لأهليها المحاويج دون اتجاه فيه لوجه الله فإنه لا يسقط حق الزكاة لفقدان قصد الوجه، وغير ما يقصد فيه ﴿لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ منها، داخلة في حظر الآية وسواه في سواها مما تشترط الفقر وقصد الوجه في صالح الزكاة.

ومن الربا المحلّلة «أن يقرض الرجل أخاه قرضاً لأن يزيده ويعوضه بأكثر مما يأخذ بلا شرط بينهما فإن أعطاه اكثر مما اخذه على غير شرط بينهما فهو مباح له وليس له عند الله ثواب فيما أقرضه..»[١]

---

(١) نور الثقلين ٤ : ١٨٩ عن تفسير القمي بسند عن حفص بن غياث قال قال أبو عبد الله عليه السلام الربا رباءان أحدهما حلال والآخر حرام فأما الحلال فهو أن يقرض... وهو قوله: ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٩] وأما الحرام فالرجل يقرض قرضاً ويشترط أن يرد اكثر مما اخذه فهذا هو الحرام.

ومنها «هديتك إلى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منها فذلك رباً يوكل»[(١)].

ومنها الهدية دون عوض للأثرياء دون ابتغاء وجه الله، بل ليوجّه إليه وجوههم ويزيد في أموالهم، وهذه الأخيرة تشملها الآية نصاً، والأوليان تأويلاً حيث القصد فيهما ليس ليربوا في أموال المؤتى إليهم، بل في أموال المؤتي، توسيعاً للناس إلى المؤتين تأويلاً.

وقد تعم الربا كل زيادة مالية سواء أكانت زيادة دون مقابل في معاملة كالربا المحرمة المعروفة، أم زيادة أيٍّ من الثمن والمثمن أو العمل وأجرته على بعض بشرط، فمحرمة أيضاً مهما كانت دون الربا المصطلحة.

أم أموالاً زائدة على حاجيات الحياة، وهي العفو في: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[(٢)] فإيتاء هذه الزيادة لوجه الله وكما أمر الله إضعاف للمال ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ وايتاءها ليربوا - فقط - في أموال الناس ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ إذ هو خلو عن وجه الله، وما يؤتى لوجه الله من ربا المال: الزائد فرضاً أو نفلاً، هو زكاة ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

كما أن ما يؤتى بغير وجه الله حلاً أو حراماً هو رباً ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ إذ لا أجر فيه عند الله.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

---

(١) المصدر عن التهذيب بسند عن ابراهيم بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية «قال هو»... وفيه عن الكافي بسند عن إبراهيم بن عمر اليماني عن أبي عبد الله عليه السلام قال الربا رباءان رباً يؤكل ورباً لا يؤكل فأما الذي يؤكل فهديتك.. وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم...﴾ [الرُّوم: ٣٩] وأما الذي لا يؤكل فهو الذي نهى الله عنه وأوعد عليه النار.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

﴿ٱللَّهُ﴾ هنا مبتدء خبره ﴿ٱلَّذِى . . . يُحۡيِيكُمۡ﴾ تعريفاً به في مربّعه الشامل للبدء والعود وما بينهما، وضلع الخلق من هذا المربع تتبناه الأضلاع الأخرى، فالرزق هو من لزامات الخلق الحكيم، وهو مرحلة ثانية من الخلق، والإماتة هي خلق الانفصال بين الروح والبدن، والإحياء هو خلق ثان في الأخرى لرزق ثان فيها هو من خلفيّات الحياة الأولى.

ذلك عرض خاطف للرحمتين الرحمانية والرحيمية يحلق على كافة الرحمات الإلهية، «ورزقكم» لا تعني - فقط - الرزق المادي فإنه أدناه، بل والروحي فإنه أعلاه، فكل هدى لأيّ خلق هي رزقه حسب الحاجيات والدرجات والمتطلّبات: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1] فـ ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أياً كان، عقلاء خيّرين كالعباد الصالحين، أم شريرين كالطواغيت، فضلاً عن سواهم من أصنام وأوثان، فإن «من» هنا تستغرق كل الشركاء المختلقة من دون الله، ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىۡءٍ﴾:

وهنا «من الأولى تستغرق مربع الرحمة ككل، والثانية تستغرق الأجزاء من كلّ، تدليلاً على ألّا شريك له - فضلاً عن مستعل - في أي خلق ورزق وإماتة وإحياء، فهذه الأربع هي قواعد عرش الربوبية، لا شريك له فيها ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

وترى الفساد الظاهر في البر والبحر هو أيضاً من رزق الله أم من خلق الشيطان - إذاً - فهو من شركاءه؟ كلا بل:

﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾:

فلما تكسبه أيدي النسناس من الناس أثر حسب سنة التكوين كما

(١) سورة طه، الآية: ٥٠.

للحسنات أثر، ولا تبرز هذه الآثار حسنة وسيئة ككل إلّا يوم الحساب، وهنا ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بعضاً منبهاً ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ لا لأنها دار الجزاء الأوفى، وإنما ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: عما تكسبه أيديهم، فكما أن العذاب في الأخرى ليس إلّا نفس ما كسبت أيديهم من آثام كذلك يوم الدنيا.

فهنا الله لا يظهر فساد ما كسبت أيدي الناس لأنه ليس يوم الجزاء، وإنما ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ - ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾[1] عفواً هنا مؤقتاً ثم يظهر في الأخرى ما لا يعفى عنه بمكفرات هنا.

وليس ظلم الناس هنا - فقط - بالذي يفسد عليهم، بل وكل دابة ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[2].

هذه أبعاد ظلم الناس حيث لا تبقي دابة في الأرض ولا تذر إلّا قضت عليها لو لا تأخيرهم إلى أجل مسمى، وتأخير العذاب إمهال لمن يتذكر ببعضه هنا، وإملال على الطغاة وقد يأخذهم عذاب الاستئصال.

وما كسبت أيدي الناس في كل حقل يظهر منه حقله، ثقافياً - عقائدياً - سياسياً - اقتصادياً[3]، وإمرة علينا[4].

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦١.

(٣) نور الثقلين ٤ : ١٩٠ عن القمي قال الصادق عليه السلام في الآية: حياة دواب البحر بالمطر فإذا كف المطر ظهر الفساد في البر والبحر وذلك إذا كثرت الذنوب والمعاصي.

(٤) المصدر عن ميسر وعن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: ذلك والله يوم قالت الأنصار منا أمير ومنكم أمير.

مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

أكثر الهلكى الغابرين كانوا مشركين، والباقون موحدون، أهل كتاب وسواهم بما كانوا يتخلفون عن شرحة التوحيد، ولا سبيل للفرار عن سوء العاقبة هنا وفي الأخرى إلّا إقامة الوجه للدين القيم وهو التوحيد الحق وحق التوحيد الذي تتبناه الفطرة والعقلية والشرعة، كل تلو بعض ولصق بعض في تعاضد ثلاثي سامي.

﴿فَأَقِمْ ... مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ وهو يوم انقطاع التكليف، بدايته يوم الموت ونهايته يوم الأخرى، ولأن هذا التكليف قائم على كل مكلف إلى يوم الدين، لم يكن ليخص أحد اليومين، فمن مات قبل القيامة فـ ﴿يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ بادئ له من الموت، ومن مات في قيامة الإماتة فيوماه يوم واحد، وهو على أية حال ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾.

والمردّ هو مصدر ميمي واسم زمان ومكان، و«من» قد تعني كلا الابتدائية والتجاوز، فمثلث المردّ لذلك اليوم مسلوب «من الله» إذ لا يرد، ومن غير الله «من الله» أن نحمله على المردّ.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أصلها يتصدعون، وهو التفرق والتمزق، فلا تصدّع يوم الدنيا بما عملوا إذ لا تتفجر وتظهر بحقائقها النارية، فإنما هو يوم بعد الموت برزخاً بينه وبين الأخرى، وجزاء أوفى فيها: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[1].

فهنا يتصدعون بكل تصدّع وصداع في أنفسهم، ويتفرقون بعضهم عن بعض، ويتفرق الكل عن المؤمنين ففريق في الجنة وفريق في السعير.

(١) سورة النجم، الآيات: ٣٩-٤١.
(٢) سورة الطور، الآية: ٢١.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

فإنما كفر الكافر عليه في كل النشآت، كما صالح الصلحاء لأنفسهم حيث يجزون من فضل الله، وأولئك يعذبون من عدل الله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيبغضهم، إذ لا تخفى على ربنا خافية حتى يخلوا أحياناً من حب وبغض جهلاً بالحال! فمن لا يحبه فهو يبغضه، ومن لا يبغضه فهو يحبه.

وكما ﴿كَفَرَ﴾ تعم كفر العقيدة والعمل كذلك ﴿عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ إذ لا يصلح عمل إلّا بإيمان.

والإفراد في «عليه» لرعاية اللفظ «من» والجمع في ﴿يَمْهَدُونَ﴾ لرعاية المعنّي منها، ولماذا - بعد - لم يأتيا بصيغة واحدة إفراداً أو جمعاً واللفظ نفس اللفظ والمعنى نفس المعنى؟ قد يعني الإفراد في «عليه» التبعة الفردية في الكفر، والجمع في ﴿يَمْهَدُونَ﴾ المهاد الجمعي في الإيمان، فإن أولاد المؤمنين - الصغار - يلحقون بهم في مهدهم، ولا يلحق أولاد الكفار بهم، كما وذرية المؤمنين التابعين لهم بإيمان يلحقون بهم في درجتهم تكريماً لهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[١].

فالرحمة لأنها قضية الفضل هي أعم من الغضب وهو قضية العدل، لا فحسب في الأخرى بل وأيضاً في الأولى حيث يشمل برحمته كل مرزوق مؤمناً وكافراً ولا يأخذ بعذابه هنا إلّا الكافر فقد «سبقت رحمته غضبه» بكل سبق وفي كل سباق[٢].

---

(١) نور الثقلين ٤: ١٩١ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن العمل الصالح ليسبق صاحبه إلى الجنة فيمهد له كما يمهد لأحدكم خادمه فراشه.

(٢) سورة غافر، الآية: ٥١.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةًۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَلَئِن جِئْتَهُم

بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ لرحمته الشاملة ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ برحمات: إزالة للعفونات، وتلقيحاً لشجرات، وتلحيقاً للسحاب ركاماً أم إثارة لها بسطاً في السماء كيف يشاء، وتلطيفاً للأجواء، وتبريداً للهواء، أماذا مما تخلّفه الرياح المبشرات ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ فالإذاقة قلة، و«من» التبعيض قلة أخرى تجعلان غزير الأمطار قلة قليلة من رحمته، ولنعرف ما هي رحمته يوم الرحمة الأخرى.

﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ بالرياح ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بجريان الفلك والرياح ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ مرسل الرياح مبشرات، بهذه الرحمات ومحققات لهذه العطيات.

وحين يرسل الله الرياح مبشرات لرحماته المادية للأولى أفلا يرسل رياح الوحي مبشرات لرحماته الروحية التي تعيّشنا في النشأتين:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

إن الرياح الروحية الرسالية المبشرة بكل الرحمات قد أتت ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ ثمرات الحياة قطعاً لها قبل إيناعها، فتحويلاً لها إلى نكبات، وأما الذين آمنوا ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في حقول

الرسالات هنا ويوم يقوم الاشهاد: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾(١).

و«كان» هنا تضرب إلى أعماق الماضي الرسالي بمستقبله، تأكيداً لاستمرارية النصر الرباني لهؤلاء الأكارم قدر ما ينصرون الدين والدينين.

﴿اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِي السَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

إثارة السحاب وبسطها في السماء كيف يشاء وجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله، ذلك من مبشّرات الرياح المبشّرات، أفردت بالذكر فصلاً بعد وصل لأنها أهم بشارات الرياح ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

فمن فاعليات الرياح إنها تثير سحاباً من المياه بما تحمله من الأبخرة المائية، فكما بقر الحرث تثيره، كذلك السحاب تثير حرث الأبخرة قلعاً من الكتل المائية على وجه الأرض ﴿فَيَبْسُطُهُۥ﴾ الله ﴿فِي السَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾: ﴿وَاللَّهُ الَّذِىٓ أَرْسَلَ الرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾(٢). ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾: ويجعل الله السحاب المبسوط في السماء: كسفاً: قطعاً ركاماً فوق بعض: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ﴾(٣).

والودق هو بداية المطر، يخرج من خلال السحاب كأنها غرابيل، ثم يصبح الودق مطراً نزيراً أم غزيراً ﴿فَإِذَآ أَصَابَ﴾ الله ﴿بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ برحمة الماء من السماء.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٩.
(٢) سورة النور، الآية: ٤٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٧.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ۝٤٩﴾:

وما هو المرجع لضمير الغائب في ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾؟ أهو الودق وقد أغني عنه من قبل بـ ﴿مِن قَبۡلِ﴾! ولا فصل بعيداً يقتضي التكرار! وليس الإبلاس الإياس إلّا من قبل الرياح! أم إنه «السحاب»؟ فكذلك الأمر معنوياً مهما صح لفظياً!..

انه إرسال الرياح المؤوّل من ﴿يُرۡسِلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ -: وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم الودق من قبل إرساله الرياح لملبسين.

﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٥٠﴾:

﴿فَٱنظُرۡ﴾ نظرة العبرة النبهة بصراً وبصيرة ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ الودق المطر ﴿كَيۡفَ يُحۡيِ﴾ به ﴿ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ كيفية متواترة مرئية ليل نهار، أن يضم رحمة السماء إلى رحمة الأرض ببذر، وكل الثلاث ميتة بمفرداتها، ثم تحصل الحياة بجمعيتها كما يشاء الله ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الرحمن الرحيم القدير ﴿لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ أياً كانت وأيان، وأهمها لإحياء يوم الحساب فإنه قضية عدله مهما كان سائر الإحياء في سائر الأحياء قضية فضله.

﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ۝٥١﴾:

هذا الريح هو ريح العذاب حاراً أم بارداً يصفّر به الزرع عن اخضراره، وترى ﴿فَرَأَوۡهُ﴾ تعني الريح؟ وليس لريح العذاب كما سواه لون! ولو كان وهو مصفر فصالح التعبير عنه «ريحاً مصفراً - أو - أصفر»! ولم يوصف الريح فيما وصف بأي لون اللهم إلّا بفاعلية العذاب: ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾[1] [2].

---

(١) ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ [يونس: ٢٢] ﴿قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ [الإسراء: ٦٩] ﴿ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] ﴿بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٦].

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٧.

مرجع الضمير هو الزرق أو مطلق النبات المعلوم من السياق ﴿أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ بعد إرسال الرياح ﴿فَرَأَوْهُ﴾: النبات المخضّر بالمطر الحاصل عن إثارتها السحاب، رأوه مصفراً ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ كفراناً برحمته السابقة السابغة، أم وكفراً به.

ثم الإفراد في ريح العذاب قد يلمح بالعذاب، كما الأكثرية الواردة في القرآن تعنيه، بخلاف الجمع في رياح الرحمة فإنها لم تأت في عشرتها الكاملة إلّا للرحمة[1].

وعلّ وجه الجمع في رياح الرحمة، أنها خليطة من مختلف الرياح، أم ريحاً متكرراً متواتر لكي يصلح لما يبشر به، وريح العذاب أحياني، وأما ريحاً الرحمة فدائبة، فهذه جمع يحلّق على كل زمان ومكان، وذلك مفرد حيث لا يأتي إلّا الأحيان.

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ هنا هم موتى القلوب فالصمّ الأسماع والعمي الأبصار، حيث لا يعون ولا يسمعون ولا يبصرون ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ . . .﴾[2] وذلك ختم الجزاء يوم الدنيا دون الجزاء الختم فإنه في الأخرى.

إن إسماع آيات الله ليس يؤثر إلّا في ﴿مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فإن سجيّته الإيمان بها حين تواجهه، وهو يتحرى عنها، ولأقل تقدير لا يتجرأ عليها ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ لها، مؤمنون بها.

---

(١) في آيات عشر الرياح كلها للرحمة وفي (١٨) آية ريح أو ريحاً لا تجد إلا مرة يتيمة ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢] أم وريح سليمان ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأنبياء: ٨١] وهي ريح القوة وليست ريح الرحمة العامة.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧.

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾:

تعريف آخر بالله وجاء مختلف حالات الإنسان من ضعف إلى قوة إلى ضعف وشيبة، ومن القوة الحياة ومن الضعف الممات، والإنسان كما هو بين مختلف حالات سائر الضعف والقوة كذلك هو بين الموت والحياة ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لا كما نشاء «وهو العلي القدير» بما يخلق.

﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ هو منّي فإنه ضعف في كيانه وضعف في دفقه، ف ﴿ضَعْفٍ﴾ مصدراً تلمح إلى مدى ضعف النطفة كأنها الضعف نفسه.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ أمنذ العلقة إلى المضغة إلى العظام إلى كسوتها لحماً إلى إنشاءه خلقاً آخر وإلى. . . ؟ وكل ذلك ضعف بعد ضعف! وقد تعني ﴿قُوَّةً﴾ بداية القوة والقيام على ساق للولائد، و﴿مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ قد تعني الضعف فيما بين الضعف الأوّل والقوة الأولى.

فإن «من ضعف في خلقكم» هو النطفة المخلوق منها الجنين، ف ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ تعني ضعف الجنين المخلوق من ضعف، ومن ثم ف «ثم» هنا تفصل بين خلقه من ضعف وجعل قوة له بعد ضعف، فذلك الفاصل ضعف بعد ضعف.

فضعف المصدر ممثّل في تلك الخليّة الصغيرة الدقيقة التي ينشأ منها الجنين، وضعف الصادر بينه وبين قوة هو الجنين بأطواره، ثم الطفل حتى يقوم على ساقه من ضلاعة التكوين.

وقوته بادئة من ذلك القيام كاستقلالية مّا في بعض الحاجيات مشرباً ومأكلاً وملبساً، وقياماً في حاجيات أخرى.

وهذه القوة باقية لحد الأربعين متزايدة، ثم تبدّل إلى ضعف ثم شيبة، فالشيخوخة انحدارة إلى الطفولة بكل مظاهرها الضعيفة ولحد لا تعلمون

شيئاً ولا تقدرون على شيء وهو أرذل العمر: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾(1).

«يخلق الله ما يشاء» من ضعف وقوة وشيبة ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ ماذا يخلق وفق الحكمة العالية ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ بكل خلق.

فليس خلقكم ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾ لضعفه قدرة وعلماً، ولا ﴿جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ لقوته علماً وقدرة، بل إنها تحويلات إلى حالات حسب الحكمة العملية القديرة كما يشاء، ولا يفلت منها أحد من أبناء الفناء حيث تتعاور تلك الخليقة البشرية لتشهد انها مدبّرة كما يشاء الله العليم القدير.

أو ليس لهذه النشأة الحكيمة القاصدة استمرارية في نشأة أخرى هي مزرعة الأولى؟:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

اللبث هنا هو لبث البرزخ، فإنه الذي يسبق ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ لا لبث الدنيا، أم هو مجموع اللبثين؟ استقلالاً لحياة التكليف والتي بعدها قبل قيامة الساعة.

وإقسام المجرمين هناك ﴿مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ إفك مبين كما هم في حياة التكليف ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ صرفاً عن وجه الحق إلى غير وجهه، على طول خط الحياة إلى قيام الساعة ولمّا يفيقوا عن غفوتهم وهم محشورون ليوم الدين!

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ علّه كتاب التكوين التقدير إلى جنب كتاب التشريع

(1) سورة الحج، الآية: ٥.

التدوين، فقد قدر الله وقرر لبثاً برزخياً لكل من الأموات وإن ماتوا في قيامة الإماتة، كما أن آيات من القرآن تتحدث عن هذه الحياة الفاصلة بين الحياتين ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1].

ف ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ بالكتاب ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ بما في الكتاب، هناك يكذبون المجرمين القائلين ﴿مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ كما هنا، أم ﴿عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾[2] ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[3] أو ﴿عَشْرًا﴾[4] يكذبونهم بقولهم ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ وقد يعني ﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ ما كتبه الله من الحياتين قبل الأخرى وهي ﴿يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الذي كنتم به تكذبون ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ﴾ قبله ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أتراهم كانوا لا يعلمون إنهم سوف يبعثون وهم في البرزخ وقد ظهر لهم ما كان خفياً عليهم؟

هنا ﴿كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ماض بعيد يضرب إلى بعيد هو بالطبع حياة التكليف لا والبرزخية أيضاً.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

الاستعتاب هو طلب العتبى وهي العتاب وإزالته، فهم كما لا ينفعهم معذرتهم إن اعتذروا، لا يطلب منهم أن يعتبوا أنفسهم أم يزيلوا عتابهم، مهانة لهم وهواناً كأنهم جماد لا يشعرون.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.

(٢) سورة النازعات، الآية: ٤٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

(٤) سورة القصص، الآية: ٢٥.

إن الآية المثبتة للحق أصبحت عندهم مبطلة والجائي بها مبطل، وهكذا يرتكس الظالمون في حمأة الغباوة الخانقة أن تنقلب آية الحق عندهم آية الباطل.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

لقد طبع الله على قلوب هؤلاء الظالمين وأزاغها كما زاغت بتجاهل عارم قاحل لحد تقلّب الحق عندهم باطلاً والباطل حقاً، حياة منكوسة مركوسة أرذل من الدواب وأضل.

فـ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هنا هم الجاهلون المقصرون، لا القاصرون المستضعفون، ولا يطبع الله إلّا على قلوب خالية عن الهدى خاوية عن التقوى، مليئة من الطغوى ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[1].

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا رسول الهدى على قولتهم ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ وعلى فعلتهم المضادة لدعوتك فما أنت إلا نذير ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ في نصرتك: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] وفي عذابهم كما يشاء ويصلح ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ استخفافاً عن ثابت الإيمان الإسلام والدعوة الصارمة.

هنا ﴿فَٱصْبِرْ﴾ توطين لخاطر الرسول وقلبه القريح الجريح، ثم وفي تأويله قد يكون توهيناً لسواه تهويلاً بمستقبل العذاب كما فعله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام جواباً عن ابن الكوا[3].

---

(١) سورة الصف، الآية: ٥.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤٧.

(٣) نور الثقلين ٤ : ١٩٢ عن تفسير القمي كان علي بن أبي طالب عليه السلام يصلي وابن الكوا خلفه=

وقاله أبو جعفر الباقر عليه السلام جواباً عن أمره بالخروج المبكّر ولمّا يَحِن حينه ترحماً على زيد[١]. فهذا تنزيل وذلك تأويل ولكلّ مجاله.

فالصبر أمام العراقيل في الطريق الشاق الطويل هو زاد المؤمنين، أن يثبتوا على الحق دون زعزعة ولا تلكع، صبراً يكون سبراً لأغوار الحوادث والمصائب التي قد تنقص من الإيمان بوعد الله فتنقض وثاق الله، لا صبر التخاذل والتنازل، وإنما صبر جميل يعني الاستقامة على الطريقة.

وهكذا تختم السورة كما بدأت بوعد النصر، تختم بالصبر انتظاراً لانتصار بنصر الوعد وتحققه كما يراه الله.



= وامير المؤمنين عليه السلام يقرأ فقال ابن الكوّا ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزُّمَر: ٦٥] فسكت أمير المؤمنين عليه السلام حتى سكت ابن الكوا ثم عاد في قراءته حتى فعل ابن الكوا ثلاث مرات فلما كان في الثالثة قال أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الرُّوم: ٦٠].

(١) المصدر عن الكافي ان زيد بن علي بن الحسين دخل على أبي جعفر عليه السلام ومعه كتب من أهل الكوفة يدعونه فيها إلى أنفسهم ويخبرونه باجتماعهم ويأمرونه بالخروج فقال له أبو جعفر: هذه الكتب ابتداء منهم أو جواب ما كتبت به إليهم ودعوتهم اليه؟

فقال: بل ابتداء من القوم لمعرفتهم بحقنا وبقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وآله ولما يجدون في كتاب الله عز وجل من وجوب مودتنا وفرض طاعتنا ولما نحن فيه من الضيق والضنك والبلاء، فقال له أبو جعفر عليه السلام ان الطاعة مفروضة من الله عز وجل وسنة أمضاها في الأولين وكذلك يجريها في الآخرين والطاعة لواحد منا والمودة للجميع وامر الله يجري لأوليائه بحكم موصول وقضاء مفصول وحتم مقضي وقدر مقدور وأجل مسمى لوقت معلوم ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الجاثية: ١٩] فلا تعجل فإن الله لا يعجل لعجلة العباد ولا تسبقن الله فتعجلك البلية فتصرعك».

٣١

مكيّة وآياتها أربع وثلاثون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾﴾

سورة لقمان تحمل ثورة لقمان العقائدية والخلقية بصورة العظة لابنه، وفيها ككلّ جولات ثلاث وجاه القلب البشرى بفطرته إذ يعلم الله مداخلها ومساربها ومآربها، وما تغشى عليها غواش من دخان الأرض.

تبدأ الجولة الأولى من خلال النفس الإنسانية بأسلوب شيّق ومؤثّرات جادّة جديدة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ...﴾[1] نموذجاً عالياً من العظات الرسالية مهما لم يكن لقمان رسولاً.

والجولة الثانية بادئة بعرض كائنات من السماوات والأرض: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم...﴾[2].

والجولة الثالثة هي مشهد الليل والنهار والشمس والقمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ...﴾[3].

وفي هذه الجولات الثلاث وما بينهما جلوات عقلية وفطرية وعلمية وحسية تتبنى الأصول الثلاثة كما هي طبيعة الحال في القرآن كله ولا سيما في السور المكية.

﴿الٓمٓ ① تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ②﴾:

﴿تِلْكَ﴾ البعيدة الأغوار، النازلة في الزمن الرسولي، كهذه وما مضت وتستقبل ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾: حكيماً عند الله قبل نزوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[4] حكيماً بنازله ليلة القدر، وحكيماً في تفصيله: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[5].

والحكمة في كلّ من الثلاث كما تناسبه، كالإجمال في الأوّلين أم ثالث التفصيل، والإتقان في الكلّ عن أي تدخل وتسرّب من سواه، والحكمة البلاغية لفظية ومعنوية في كل الحقول، محلقة على كلّ العقول، بعيدة عن

(١) سورة لقمان، الآية: ١٢.
(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٠.
(٣) سورة لقمان، الآية: ٢٩.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٤.
(٥) سورة هود، الآية: ١.

الذبول والأفول، حاكمة حكيمة محكمة كأنها الحكيم نفسه، إذ برزت وركزت فيها حكمة الرب الممكنة البروز ككلّ ودون إبقاء.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾:

﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ حالكونه ﴿هُدًى﴾ نفسها ﴿وَرَحْمَةً﴾ نفسها حيث تجسدتا فيه حاملاً كل الهدايات والرحمات الإلهية للكلّ كفاعلية مطلقة، و﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ كقابلية بفعلية الاهتداء والرحمة، والتنوين فيهما يعني التعظيم البعيد عن الأفهام.

و«المحسنين» هم الذين يحسنون الإيمان وعمل الإيمان على ضوء ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾:

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾:

فإقام الصلاة عموداً للدين مثال لكافة الصلات الربانية بينهم وبين الله فإنها معراج المؤمن، وإيتاء الزكاة من كل الوهبات الربانية لعباد الله، يحلّق على كل الصلات الخلقية، ثم ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ تؤصّل صلتهم بالله وبخلق الله وتربطها من المبدء إلى المعاد، فقد أحسنوا كل الصّلات العقائدية والعملية، المتمثلة في إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ناحية منحى مرضات الله وإلى يوم الله.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾:

﴿عَلَىٰ﴾ هنا تسيطرهم ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ عظيمة واسعة ناصعة ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ لا ضلال فيها ولا كلال، وبطبيعة الحال ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ دون سواهم ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ إذ يفلحون ويشقّون طريق الهدى في البحر الملتطم بسفن النجاة، ويفلجون عمّال الردى وعواملها في هذه الطريقة الشاقة الطويلة.

هؤلاء الأكارم هم من ﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[١] فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[٢] - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ...﴾[٣] كما:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾:

﴿ٱلْحَدِيثِ﴾ هنا هو كل ما حدث من قول أو فعل أو مزيج منهما، فقد يكون ذكراً لله، أو لهواً عن الله، أم عواناً بين ذلك خلواً عن أي ذكر أو لهو، ولهو الحديث، المضلّ عن سبيل الله وهو ذكره، بأن يتخذ هزوا، ذلك هو الضلال البعيد.

«اللهو» حرام في كل حقوله وألوانه، فإنه ككلّ ما يشغل الإنسان عما يهمه ويعنيه، كما اللهوة هي ما يشغل الرحى مما يطرح فيه.

إذاً فاللهو دركات حسب درجات ما يهم الإنسان ويعنيه، وأسفلها اللهو عن الله وعن ذكر الله، وعن يوم الله، وعما يتوجب على العبد أو يحرم عليه وجاه الله.

وله أسباب عدّة من معدّة وغير معدّة، فالأولى كالتكاثر: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[٤] والأمل: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[٥] ومنه لهو الحديث ككل، فإنها من المعدة، ومن غير المعدة الأموال والأولاد: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٦] والتجارة والبيع: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٧] والحياة الدنيا ككل: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[٨].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٤.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١١١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.
(٤) سورة التكاثر، الآية: ١.
(٥) سورة الحجر، الآية: ٣.
(٦) سورة المنافقون، الآية: ٩.
(٧) سورة النور، الآية: ٣٧.
(٨) سورة الأنعام، الآية: ٣٢.

فالمعدّة من اللهو محرمة على أية حال، وغير المعدة كالحياة الدنيا بوسائلها غير محرمة إلّا أن تلهي، فإنما الأصل هو الإلهاء - بالفعل - عما يعنى للإنسان كإنسان وما يعنيه كمؤمن بالله.

والمفروض في لهو الحديث أن يرفض بكل أساليبه وألوانه كمفتاح أوّل لرفض المحرمات كلها[١] وفرض الواجبات كلها، حيث الملاهي بجوارح وجوانح تتخطى إلى القلوب، فإذا ألهت القلوب الغت كل ما تعني الإنسان ويعنيها الإنسان من إيجابيات وسلبيات تتبنى الإنسان كإنسان وبأحرى كحامل إيمان: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[٢].

وأنحس بلهو يُشترى، وأنحس منه: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ثم ثالث: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾[٣] فذلك مربع من النحوسة الواصلة إلى ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

فليست حرمة اللهو لتختص بما يشترى ويضل ويهزء، وإنما ذلك أسفل دركات الحرمة فيه، وكل ما يلهي، أو ما شأنه أن يلهي، فهو محرم في شرعة الله من غناء تلهي أو رقص يلهي أماذا من الملهيات، وأما ما يذكّر الله من أصوات حسنة أو أعمال فراجحة، وما لا يذكّر ولا يلهي فعوان يباح، إلّا ألّا يعني غرضاً عاقلاً فلغو لا يباح إلّا للأطفال.

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٥٩ - أخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن أبي عثمان الليثي قال قال يزيد بن الوليد يا بني أمية إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة وانه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعل المسكر فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء فإن الغناء داعية الزنا.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣.

(٣) في المجمع روى عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال - في الآية - هو الطعن في الحق والاستهزاء به وما كان أبو جهل وأصحابه يجيئون به إذ قال: يا معاشر قريش ألا أطعمكم من الزقوم الذي يخوفكم به صاحبكم؟ ثم أرسل إلى زبد وتمر فقال: هذا هو الزقوم الذي يخوفكم به، قال: ومنه الغناء.

فالغناء المفسر به قول الزور[١] واللهو[٢] ليس محرماً ككل حيث التغني بالقرآن محبور، وسائر التغني بذكر الله مشكور، كما يروى عن رسول الهدى «تغنوا بالقرآن فإنه من لم يتغن بالقرآن فليس منا».

فصرف الوقت في التعرف إلى معنى الغناء، المختلف فيه اللغة والأقوال، قد يكون نفسه من لهو الحديث، حيث الأصل المحرم في الغناء وغيره هو اللهو، فقد يحل الغناء كما في القرآن، وقد يحرم غير الغناء كما في الرقص الملهي وما أشبهه، فبين اللهو والغناء - إذاً - عموم من وجه.

فمن لهو الحديث ما يلهي بنفس الحديث دون غناءه كالقصص الأسطورة المزخرفة المقصوصة في المقاهي وسائر النوادي المناسبة لها وهي من شؤون نزول الآية[٣] ومنه ما يلهى بغنائه سواء أكان معناه ملهياً مثله

---

(١) كما في صحيحه الشحام وموثقه أبي بصير ومرسله ابن أبي عمر المرويات عن فروع الكافي، وحسنة هشام المحكية عن تفسير القمي ورواية عبد الأعلى المحكية عن معاني الأخبار والثلاثة الأولى في الوسائل الباب ٩٩ ح ٢ - ٩ - ٨ والرابعة نفس الباب ح ٢٦ والخامسة فيه ح ٢٠ وفي الدر المنثور ٥: ١٥٩ - أخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في سننه عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل، وفيه أخرج ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن أبي امامة ان رسول الله ﷺ قال: ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله إليه شيطانين يجلسان على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك، أقول: يعني الغناء الملهي.

(٢) كما في صحيحة ابن مسلم ورواية مهران بن محمد والوشاء ورواية عبد الأعلى السابقة، والثلاثة الأول في الوسائل ب ٩٩ ح ٦ - ١١ و١٦ وفي نور الثقلين ٤: ١٩٣ عن معاني الأخبار بسند متصل عن يحيى ابن عيادة عن أبي عبد الله عليه السلام قلت قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ...﴾ [لقمان: ٦] قال: منه الغناء.

فيه عن الكافي بسند متصل عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال سمعته يقول: الغناء مما أوعد الله عز وجل عليه النار وتلا هذه الآية ومثله عن أبي عبد الله: الغناء مما قال الله:...

فيه عن الحسن بن هارون قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: الغناء مجلس لا ينظر الله إلى أهله وهو مما قال الله عز وجل: ومن الناس.

(٣) نور الثقلين ٤: ١٩٤ عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية =

أم لم يكن، كما من الغناء ما لا يلهي، ككل ما لا يحمل المعاني أو الحالات الملهية، أمّا يحمل المعاني المذكّرة كالغناء بالقرآن وسائر المعارف الإلهية من مواعظ شعرية أو منثورة أمّاهيه.

واشتراء لهو الحديث يعم اشتراء القينات[١] وآلاتها (٧) واشتراء نفس اللهو كأن يستأجر الملهي بحديثه أو غناءه ويدفع له ثمن[٢].

و﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هنا هي القرآن ونبي القرآن وكل ما منهما وإليهما من ذكرى، فإنهما الأصل في ذكر الله بما يذكّران الله، فكل ما يلهي عن ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ويضل في أى حقل من حقولها، كان محظوراً، ولا سيما إذا كان مأخذاً لاتخاذها هزواً.

ف ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يشترون لهو الحديث إضلالاً عن سبيل الله واتخاذها هزوا ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ هنا ويوم الدين، كما أهانوا سبيل الله إن فضّلوا عليها لهو الحديث[٣].

= فهو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة من بني عبد الدار بن قصي وكان النضر ذا رواية لأحاديث الناس وأشعارهم يقول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

(١) الدر المنثور ٥ : ١٥٩ أخرج جماعة عن أبي امامة عن رسول الله ﷺ قال: لا تبيعوا القينات ولا تشروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام في مثل هذا أنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ. . .﴾ [لقمان: ٦].
فيه عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ ان الله حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها ثم قرأ الآية.

(٢) المصدر ١٦٠ - أخرج ابن أبي الدنيا عن علي بن الحسين عليه السلام قال: ما قدست أمة فيها الربط.

(٣) المصدر ١٦٠ - أخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الرحمن بن عوف ان رسول الله ﷺ قال: انما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين صوت عند نغمة لهو ولعب ومزامير شيطان وصوت عند مصيبة خشن وجوه وشق جيوب ورنة شيطان، وفيه أخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن نافع قال: كنت أسير مع عبد الله بن عمر في طريق فسمع زمارة راع فوضع إصبعيه في أذنيه ثم عدل عن الطريق فلم يزل يقول يا نافع أتسمع؟ قلت: لا - فاخرج إصبعيه من أذنيه وقال: هكذا=

واشتراء لهو الحديث قد لا يختص بالنقود وسائر الأثمان المعروفة، فقد يشتريه بماله، أو يشتريه بوقته وبحياته، يبذل تلك الأثمان الغالية لهذا الرخيص البخيس، ولماذا يشتريه ﴿لِيُضِلَّ﴾ نفسه وسواه ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ منه وممن يضل بإضلاله، جهل التجاهل بالقيم والموازين، ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ كما كان يفعله المنافقون والمكذبون بآيات الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ كما أهانوا الضمير الإنساني وأهانوا الحق.

وليست الآية لتحمل - فقط - تصويراً لحادث مضى في الجماعة الإسلامية الأولى وهو أن النضر بن الحارث كان يشتري الكتب المحتوية لأساطير الفرس وقصص أبطالهم وحروبهم ثم يجلس في طريق الذاهبين لسماع القرآن من رسول الله ﷺ محاولاً لجذبهم إلى لهو الحديث، إنصرافاً عن القرآن ورسوله وهما سبيل الله، حيث النص أعم، و﴿يَشْتَرِي﴾ مستقبل يضرب إلى أعماق الزمن منذ نزول القرآن إلى يوم الدين، في كل عصر ومصر يصبح لهو الحديث أياً كان معارضاً لمدارسة القرآن كأصل، ودراسة الشرعة الإلهية ككل على ضوء القرآن، والاستماع إلى حملة رسالة القرآن.

فكما أن التسبّل بسبيل الله فرض طول الحياة الإيمانية، كذلك لهو الحديث المضل عنها محرّم على أية حال، وهذه الآية تحمل أسفل دركاته اضلالاً عن أفضل درجاتها.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾:

وإنها لقسمة ضيزى بين ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ و﴿ءَايَٰتُنَا﴾ معاملة معهما

= رأيت رسول الله ﷺ صنع، وفيه أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمر أنه سمع النبي ﷺ قال في هذه الآية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ...﴾ [لقمان: ٦] انما ذلك شراء الرجل اللعب والباطل.

معاكسة، منكوسة منحوسة مركوسة، أن يشتري لهو الحديث إضلالاً عن آيات الله، ثم يولي عنها كأن لم يسمعها حين تتلى عليه ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وكما يستبشر بلهو الحديث المضل الهازئ.

وهنا نتأكد تماماً أن ليس كل لهو تشمله الآية بهكذا تنديد شديد، مهما كان محرماً على أية حال، فإنما المعروف من آيات اللهو حرمته في المعدّ له، وحرمة الالتهاء بغير المعدّ له، فباختلاف الأشخاص والحالات والظروف واختلاف المجالات يختلف اللهو في واقعه وحكمه، ودركات الحرمة فيما يلهي عن فرض أم في محظور، حيث اللهو مفتاح كل شرّ إيجابياً وسلبياً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩)﴾:

هنا نتأكد أن الإيمان وعمل الصالحات يناحران لهو الحديث بكل التصرفات فيه، التهاء والهاء، بيعاً واشتراء، فالمؤمنون يعيشون سبيل الله دون أن يلهيهم عنها أية زخرفة من زخارف الدنيا، ومن أخطر اللهو هو لهو الإمرة والرئاسة أعاذنا الله من شرها.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠)﴾:

لقد فصلنا القول في آية الرعد: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...﴾[١] حول ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ فلا نعيد، وكذلك الرواسي الملقاة في الأرض في آياتها، وإنها تعم الملقاة من البركانات جو الأرضية، والأمواج سطح الأرضية، والأحجار فوق الأرضية الساقطة عليها من كرات سماوية.

(١) سورة الرعد، الآية: ٢.

و﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ مما يدل على سبح الأرض في خضمّ الفضاء، فهي سفينة جوية بحاجة لاستقرارها إلى رواس تربطها عن الميدان، فـ «وتد بالصخور ميدان أرضه».

ثم ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ فيها لمحتان، إحداهما أن أرضنا تحمل من كل دابة في الكون نماذج، والأخرى أن هناك في غير أرضنا دواب كما فيها، وقد دلت على التعميم آية الشورى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾[1].

كما ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[2] تدل على أن الأزواج النابتة هنا نماذج عن كل الأزواج النابتة في غيرها من كرات عامرة.

فالسماوات على علوّها محبوكة مربوطة بالأرض بعمد لا ترونها، ومن احتباكها نزول مائها إليها، ومنه وجود النماذج من كل دوابها وأزواج النباتات فيها، مما يدل على تعميم قاصد واحد يربط كل الكائنات بعضها ببعض دون تفاوت وتهافت.

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾:

﴿فَأَرُونِى﴾ أمر تعجيز في مسرح خلق الله، فهل من خالق غير الله ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المشركون بالله هم غارقون ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يبين ضلاله بهدي خلق الله فإنها آيات بينات تبين أنها - فقط - لله.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٩.

(٢) سورة ق، الآية: ٧.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

آيات ثمان تختص بحكمة لقمان التي تلقاها من ربه ثم ألقاها إلى ابنه، تجمع من عظات الحكم جوامعها ولوامعها، فيها الحكمة الحكيمة للعبد وجاه الله، ووجاه خلق الله أمراً لهم بالمعروف عند الله، ونهياً عن المنكر لدى الله، وصبراً على ما أصاب في مسرح العبودية والدعوة إلى الله، وقصداً في المشي بين خلق الله.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾:

«لقد» تأكيدان و«نا» الدالة على جمعية الصفات ثالثهما، تؤكد هذه الثلاث الحكمة المؤتاة للقمان، المختصرة في ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ بياناً لهذه الحكمة الجامعة العالية، وقد تكون هي حكمة الشكر وشكر الحكمة، حيث الشكر هو وضع النعم مواضعها التي يرضاها المنعم.

والشكر مقابل الكفر يعم الإيمان بكل قضاياه، كما الكفر يعمه والكفران بكل رزاياه، فهي - إذاً - حكمة فطرية وعقلية ونفسية في كل حقولها، إضافة إلى حكمة عملية، هما يقضيان على كافة التفسخات العارمة الذاهبة بالإنسان مذاهب الكفر والكفران.

واصل الحكمة هو «الفهم والعقل»[1] ولقد «كان رجلاً قوياً في أمر الله، متورعاً في الله، ساكتاً مستكيناً، عميق النظر، طويل الفكر، حديد النظر، مستغن بالعبر. . . ويعتبر ويتعلم ما يغلب به على نفسه، ويجاهد به هواه، ويحترز به من الشيطان، وكان يداوي قلبه بالفكر، ويداوي نفسه بالعبر، وكان لا يظعن إلا فيما يعنيه، فبذلك أوتي الحكمة، ومنح العصمة. .»[2] «كان عبداً كثير التفكر، حسن الظن، كثير الصمت، أحب الله فأحبه الله

(١) نور الثقلين ٤ : ١٩٥ في أصول الكافي عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام يا هشام إن الله قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢-] قال: الفهم والعقل.

(٢) المصدر تفسير القمي حدثني أبي عن القاسم بن محمد عن سليمان بن داود المنقري عن حماد قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن لقمان وحكمته التي ذكرها الله عز وجل فقال: أما والله ما أوتي لقمان الحكمة بحسب ولا مال ولا أهل ولا بسط في جسم ولا جمال ولكنه كان رجلاً قوياً. . لم ينم نهاراً قط ولم يره أحد من الناس على بول ولا غائط ولا اغتسال لشدة تستره وعموق نظره وتحفظه في أمره ولم يضحك من شيء قط مخافة الإثم ولم يغضب قط ولم يمازح إنساناً قط ولم يفرح بشيء أتاه من أمر الدنيا ولا حزن منها على شيء قط. . .

تعالى فمن عليه بالحكمة... فنام نومة فغط بالحكمة غطاً فانتبه فتكلم بها...»[(١)].

ولقد أتت «الحكمة» في الذكر الحكيم عشرين مرة، هي في هذه المرة اليتيمة عطية ربانية للقمان ولم يكن من النبيين، فقد أوتي الحكمة البالغة دون رسالة، مما يدل على عظم موقفه تجاه الله، ولم يكن إلّا عبداً حبشياً فأصبح من سادات السودان[(٢)].

والشكر درجات ارفعها أن يعرف الشاكر النعمة ويعترف بعجزه عن أداء

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٦١ - أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي مسلم الخولاني قال قال رسول الله ﷺ إن لقمان كان عبداً.. نودي بالخلافة قبل داود عليه السلام فقيل له يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة تحكم بين الناس بالحق؟ قال لقمان: إن أجبرني ربي عزّ وجلّ قبلت فإني أعلم أن فعل ذلك أعانني وعلمني وعصمني وإن خيّرت قبلت العافية ولم أسأل البلاء، فقالت الملائكة يا لقمان لم؟ قال: لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها يغشاه الظلم من كل مكان فيخذل أو يعان فإن أصاب فبالحرى أن ينجو وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ومن يكون في الدنيا ذليلاً خير من أن يكون شريفاً ضائعاً، ومن يختار الدنيا على الآخرة فاتته الدنيا ولا يصير إلى ملك الآخرة، فعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام... ثم نودي داود عليه السلام بعده بالخلافة فقبلها لوم يشترط شرط لقمان فأهوى في الخطيئة فصفح الله عنه وتجاوز وكان لقمان يوازره بعلمه وحكمته فقال داود عليه السلام طوبى لك يا لقمان أوتيت الحكمة فصرفت عنك البلية وأوتي داود الخلافة فابتلي بالذنب والفتنة».

أقول: لا بأس بهذا الحديث إلا في نسبة الذنب والخطيئة وعدم الحكمة إلى داود فإنها من المختلقات الإسرائيلية. فإن داود عليه السلام اوتي الحكمة كما أوتيها لقمان: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١] ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠] كما وأن الحكمة هي من العطيات الربانية لكافة النبيين: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ...﴾ [آل عمران: ٨١] وإن قول لقمان للملائكة: فإني أعلم إن فعل ذلك أعانني وعلمني وعصمني» دليل العصمة لمن أوتي الحكمة من النبيين.

(٢) المصدر أخرج ابن عساكر عن عبد الرحمن بن يزيد عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: سادات السودان أربعة لقمان الحبشي والنجاشي وبلال ومهجع فيه قال رسول الله ﷺ اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم سادات أهل الجنة لقمان الحكيم والنجاشي وبلال المؤذن.

شكرها، فـ «من أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه فقد أدى شكورها وقد «أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى عليه السلام يا موسى اشكرني حق شكري، فقال: يا رب وكيف أشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به إلا وأنت أنعمت به علي؟ قال: يا موسى! الآن شكرتني حين علمت أن ذلك مني»[1].

وكما الحكمة هي بين معرفية وعملية، كذلك الشكر المفسر لها معرفي وعملي، أن يحلّق الشكر على الشاكر ككلّ، فلا تبقى من قالاته وحالاته وفعالاته إلا ترسيمات لمرضاة الله.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾:

عظة لا بقة لائقة من والد حكيم لولده، بادئة بالسلب: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ وخلفيّته الإيجاب وهو توحيد الله، فهي عبارة أخرى عن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ تحقيقاً لها حقيقاً بولد الحكيم وهو يعظه بحكمة الله التي آتاه.

وليست مجرد عظة، بل هي معلّلة بأقوى البراهين البيّنة ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ظلم يبتدء من الإنسان المشرك نفسه أن يعبد أكرم خلق الله خلقاً خسيساً كوثن أو صنم أو حيوان، أم خلقاً مثله في الحاجة المحلّقة على الخلق كله، كملك أو نبي أو ولي وهم أنفسهم يوحدون الله وينهون عن أن يشرك بالله.

ثم ظلم للحق أن يسوّى بين الخالق والمخلوق، ثم يفضّل المخلوق على الخالق، بأن يختص عبوديته للخلق ويترك الخالق، وظلم في كافة الموازين والمقاييس أن يشرك بالله العظيم، إذاً فهو ظلم عظيم لا يساوى

(١) نور الثقلين ٤: ٢٠١ - ح ١ و٢ عن أبي عبد الله عليه السلام.

بأي ظلم، ولبعده في عظمه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[١].

ولأن عظة الوالد ولده غير متهمة إذ لا أرأف منه به، تعرض في هذه الإذاعة القرآنية استئصالاً لكل ريبة تعتري ألدّاء المشركين زمن الرسول ﷺ أن ليس وراءها انتزاع سلطان منهم وتفضل عليهم.

لذلك نرى الآيتين التاليتين تأتيان كجملة معترضة بين عظات لقمان لابنه، عرضاً لمدى حق الوالدين على الأولاد وفرضاً لطاعتهما وشكرهما بعد شكر الله إلّا في الإشراك بالله، فإن هذا الظلم العظيم لا يقبل حلولاً حتى بين أقرب الأقارب الوالدين والأولاد.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾:

لقد فصلنا القول حول هذه الوصية بطيات آيات لها لا سيما آية الأسرى، وهذه الآية هي اليتيمة في خصوص الأم حيث اختصت بذكرى اتعاب لها وأشغاب ليست للوالد مثلها ولها نظيرة في ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ...﴾[٢].

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ وهو الضعف الحمل لذلك الحمل، وعلّ الأوّل هو منذ الحمل حتى الوضع، فإنه كله ضعف مهما اختلفت مراحله، والثاني هو منذ الوضع حتى قيامه على ساقه، والحد المتوسط هو العامان للرضاعة.

﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ عن الرضاعة، وعن ثاني الوهنين ﴿فِى عَامَيْنِ﴾ وهما أكثر زمن للرضاعة، وبما أن ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[٣] نتعرف إلى أقل

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٨.
(٣) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

الحمل وهو ستة أشهر، و«في» هنا ظرفاً لـ«فصاله» تقرر أن انفصال الرضاعة هو ضمن عامين، لا - فقط - في منتهاهما، بل خلالهما، البادئ من بداية العام الثاني، والحدّ المعتدل منه الشهر التاسع قضية الجمع بين ﴿فِي عَامَيْنِ﴾ و﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ لمن يكون حمله تسعة أشهر، فلا فصال - إذاً - قبلها إلّا عند العسر أو الحرج، فحقّ للولد أن يرتضع عامين إلّا ثلاثة أشهر.

﴿وَوَصَّيْنَا . . . أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ اشكر لي أن خلقتك وجعلت حبك في قلوبهما لحدّ التضحية في صالحك صغيراً أو كبيراً، وأشكر ﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ أن تحمّلا كلّ عبء في سبيل تحويل هذه الأمانة الربانية و﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ فأسألك عن واجب الشكر لي ولهما «فمن لم يشكر والديه لم يشكر الله تعالى»(١) فإنهما منعمان عليك بعد الله «ومن لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكر الله عزّ وجلّ »(٢) والأم بطبيعة الحال لها الحق الأوفر للعبء الأكثر.

الشكر للوالدين هنا هو الحسن والإحسان المأمور به في آيات اخرى بحقهما، ولا سيما الأم المتحملة في حمله أكثر من الوالد فلها حق أكثر منه: «وأما حق أمك فأن تعلم أنها حملتك حيث لا يحتمل أحد أحداً، وأعطتك من ثمرة قلبها ما لا يعطي أحد أحداً، ووقتك بجميع جوارحها ولم تبال أن تجوع وتطعمك وتعطش وتسقيك وتعرى وتكسوك وتضحى وتظلك وتهجر النوم لأجلك ووقتك الحر والبرد فإنك لا تطيق شكرها إلا بعون الله وتوفيقه، وأما حق أبيك فإن تعلم أنه أصلك فإنك لولاه لم تكن فمهما رأيت من نفسك ما يعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه فاحمد الله واشكره على قدر ذلك ولا قوة إلا بالله»(٣).

---

(١) نور الثقلين عن العيون بإسناده إلى الرضا عليه السلام حديث طويل وفيه يقول: وأمر بالشكر له وللوالدين فمن. .

(٢) المصدر بإسناده إلى محمود بن أبي البلاد قال سمعت الرضا عليه السلام يقول: . .

(٣) المصدر في الفقيه في الحقوق المروية عن زين العابدين عليه السلام . . .

وقد «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله من أبر؟ قال: أمك قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أباك»[١].

وعلّ الأم تزيد عن الأب مرتين لوهنيها في حمل الولد. وللوالدين تأويل إنهما الرسول وعلي صلى الله عليهما وآلهما فإنهما أبوا هذه الأمة، وكذلك كل العلماء الربانيين، فإن حق الوالدية الروحية التربوية فوق الجسمية الولادية[٢].

ذلك، وكما الله لا يشكر حقه مهما بلغ الشكر مبلغه القمة، كذلك الوالدان، إلّا أن يعترف بالعجز عن أداء شكره وشكرهما، وهو الحق الحقيق بالأجر.

قد يروى «أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها فسأل النبي ﷺ هل أديت حقها؟ قال: لا ولا بزفرة واحدة»[٣].

ذلك، ولأن الأصل في حقوقهما هو الله الخالق لهما وإياكم منهما،

---

(١) المصدر عن تفسير القمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال جاء رجل.. وفيه عنه قال جاء رجل وسأل النبي ﷺ عن بر الوالدين فقال: أبرر أمك أبرر أمك أبرر أمك، أبرر أباك ابرر أباك ابرر أباك وبدأ بالأم قبل الأب.

(٢) المصدر عن الكافي بسند متصل عن الأصبغ بن نباتة أنه سأل أمير المؤمنين عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]؟ فقال: الوالدان اللذان أوجب الله لهما الشكر هما اللذان ولدا العلم وورثا الحكم وأمر الناس بطاعتهما ثم قال الله: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ فمصير العبّاد إلى الله والدليل على ذلك الولدان ثم عطف القول على ابن حنتمة وصاحبه فقال في الخاص والعام ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي﴾ [لقمان: ١٥] تقول في الوصية وتعدل عمن أمرت بطاعته ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ ولا تسمع قولهما ثم عطف القول على الوالدين فقال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥] يقول: عرف الناس فضلهما وادع إلى سبيلهما وذلك قوله: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ [لقمان: ١٥] فقال: إلى الله ثم إلينا فاتقوا الله ولا تعصوا الوالدين فإن رضاهما رضا الله وسخطهما سخط الله».

(٣) رواه الحافظ أبو بكر البزاز في مسنده بإسناده عن بريد عن أبيه أن رجلاً..

الجاعل حبكم في قلوبهما، الآمر بشكرهما، فلا تناحر - إذاً - بين حق الله وحقوقهما، ولا حق لهما إلّا في طول الخط من حق الله دون مشاقة، ف:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ جهدهما في جحدهما توحيد الله، وقدر ما كل جهودهما ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ويطبيعة الحال ليس لأي إنسان علم بشريك لله ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ - فقط - في حقل الضلال، وأما العشرة الحيوية الدنيوية، غير المناحرة لتوحيد الله ف ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ كما كنت، ف «بر الوالدين واجب وإن كانا مشركين ولا طاعة لهما في معصية الله ولا لغيرهما فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[1] وليس يختص ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في الإشراك بالله كعبادة وثن، بل في معصية الله ككل، بل وكل معصية لله اشراك بالله، فإنه واحد في أن يطاع كما هو واحد بسائر شؤون الألوهية والربوبية، لا شريك له على أية حال وفي كافة حقول المعرفة والعبودية والطاعة، مهما اختلفت دركات الإشراك به كما تختلف درجات توحيده[2].

---

(١) نور الثقلين ٤: ٢٠٣ عن العيون في باب ما كتبه الرضا عليه السلام للمأمون من محض الإسلام وشرايع الدين: . . وفيه (٢٠٤) محاسن البرقي بإسناده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديث طويل وفيه يقول: أطيعوا آباءكم فيما أمروكم ولا تطيعوهم في معاصي الله.

(٢) وفي المناقب مرّ الحسين بن علي عليه السلام على عبد الرحمن بن عمرو بن العاص فقال عبد الله: من أحب أن ينظر إلى أحب أهل الأرض إلى السماء فلينظر إلى هذا المجتاز وما كلمته منذ ليالي صفين، فأتى به أبو سعيد الخدري إلى الحسين عليه السلام فقال له الحسين عليه السلام أتعلم اني أحب أهل الأرض إلى أهل السماء وتقاتلني وأبي يوم صفين؟ والله ان أبي لخير مني، فاستعذر وقال: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لي: أطع أباك فقال له الحسين عليه السلام أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان: ١٥] وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: انما الطاعة بالمعروف، وقوله: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

أجل وإن «بر الوالدين من حسن معرفة العبد بالله، إذ لا عبادة أسرع بلوغاً بصاحبها إلى رضا الله تعالى من حرمة الوالدين المسلمين لوجه الله، لأن حق الوالدين مشتق من حق الله تعالى إذا كانا على منهاج الدين والسنة، ولا يكونان يمنعان الولد من طاعة الله تعالى إلى معصيته، ومن اليقين إلى الشك، ومن الزهد إلى الدنيا، ولا يدعو إنه إلى خلاف ذلك، فإذا كانا كذلك فمعصيتهما طاعة وطاعتهما معصية قال الله ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ. . .﴾ وأما في باب العشرة فدارهما واحتمل أذاهما نحو ما احتملا عليك في حال صغرك ولا تضيّق عليهما مما قد وسع الله عليك من الحال والجلوس ولا تحوّل بوجهك عنهما ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما فإن تعظيمهما من الله تعالى وقل لهما بأحسن القول وألطفه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(١)].

فعلى أية حال ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ والدين وغيرهما، ولا تتبع سبيل من صدّ عني والدين وغيرهما فإن ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ لا إلى سواي ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وجاه الله وخلقه.

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾:

﴿إِنَّهَآ﴾ تعني أن الطاعة في الإشراك بالله وإن كانت للوالدين، مما تلمح أن الوصية بالوالدين كما هنا هي من نصائح لقمان، مهما كانت هنا كجملة معترضة بين وصاياه، وما أجمله ترتيباً رتيباً في أسلوب البيان! وهذه الآية إنذار صارم عن الطاعة في الإشراك بالله، فضلاً عنها مستقلة لغير الله، فالإشراك على أية حال مسؤول عنه، قصوراً أو تقصيراً، تقليداً وسواه.

ثم ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ تصوير عن أدنى الشرك و﴿فَتَكُن فِي

(١) نور الثقلين ٤ : ٢٠٢ عن مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام :

صَخْرَةٍ﴾ عن أخفاه ثم ﴿أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عن أبعده، وذلك مثلث من صغار الشرك في أبعاده، فضلاً عن كباره في كل أبعاده فـ «اتقوا المحقرات من الذنوب فإن لها طالباً، لا يقولن أحدكم أذنب وأستغفر الله إن الله يقول ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ. . .﴾[(١)].

و﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ تصريحة بين نظائرها أن الإشراك بالله سراً وإعلاناً مما يؤتى به بنفسه يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾[(٢)] حيث تعم عمل القلب والقالب والسر والعلن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[(٣)].

وما أتمها أداء وأجملها إيقاعاً تصويراً عن الطاعة صالحة وطالحة بـ ﴿حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ صغيرة كأصغر ما كان يعرفه الإنسان ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ صلبة لا سبيل إليها كالعادة ﴿أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في خضمّ الأجواء الشاسعة التي يبدو فيها النجم الكبير نقطة سابحة أم لا تبدو ولو بالعيون المسلحة ﴿أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ضائعة في أعماقها، ومع كل ذلك الخفاء ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ دونما انفلات عن علم الله وقدرته.

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾:

أوامر أربعة تتبنّى شخصية المؤمن كشخص أولاً وكداعية ثانياً، وصموداً

---

(١) المصدر روى العياشي بالإسناد عن ابن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «اتقوا». . .
أقول: يأت بها الله قطعي بالنسبة لمن مات مشركاً، ثم من مات مذنباً دون توبة ولا شفاعة، فالمعاصي المكفرة لا يأتي بها الله فإن التائب عن الذنب كمن لا ذنب له.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٣.

في كلا البعدين، فـ ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هي في الحق إقامة لكافة الصلات المعرفية الإيمانية والعملية بالله، ثم ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ تشمل الدعوة إلى كافة الخيرات الفردية والجماعية، كما ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ تعم كافة المنكرات.

ولأن إقام الصلاة بحقها، ثم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحول دونها عراقيل وصدمات، لذلك ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ في صالح الإيمان وعمله، دون تزعزع عن قواعده، ولا تلكع وانكسار في سواعده ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ التكليف الصارم والصبر على تحقيقه ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

وإذا كان الصبر على المصاب في فرائض الإيمان من عزم الأمور، فليس الأمن عن الضرر من شروطات الجواز أو الوجوب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلّا إذا كان الضرر فيه أهم من الضرر في تركه فمرفوض، أم يتكافئان فغير مفروض.

فالضابطة العامة في هذين الفرضين فرض الصبر على ما أصابك إلّا فيما يستثنى بأهمية أم مكافئة، وكما الدفاع والقتال في سبيل الله لا يشترط في وجوبهما الأمن عن الضرر كضابطة، كذلك وبأحرى، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما أقل تعرضاً للضرر[1].

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾:

من مظاهر الاختيال والفخر تصعير الخد للناس، والمشي في الأرض

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٢٠٥ عن الخصال فيما علم أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه من الأربعمائة باب ائمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر واصبروا على ما أصابكم، وفيه عن أصول الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: الجنة محفوفة بالمكاره والصبر فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة وجهنم محفوفة باللذات والشهوات فمن اعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار» فيه عن المجمع عن علي عليه السلام «واصبر على ما أصابك من المشقة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

مرحاً، وتصعير الخد للناس هو إمالة العنق عن النظر إليهم استكباراً، كأنهم لا شيء وهو فقط كل شيء، فإن الصعر داء يصيب الإبل فيلوي أعناقها، والمرح هو كثرة الفرح بمال أو منال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[(١)] [(٢)] وهذا المشي الرديء هو المشي في تخايل ونفخة وقلة مبالات بالناس، وقد يعني تصعير الخد للناس ليّ العنق لهم تذللاً واستكانة، أم هما معنيّان حيث يحملهما تصعير الخد، فإن ليّ العنق وإمالته قد يعني الاختيال، وأخرى الإذلال وكلاهما منهيان.

و﴿لَا يُحِبُّ﴾ من الله يعني البغض، إذ لا تخفى عليه خافية حبيبة أو بغيضة، فإذا لا يحب فهو - إذاً - يبغض، وقد يروى عن الرسول ﷺ قوله: من مشى على الأرض اختيالاً لعنته الأرض ومن تحتها ومن فوقها[(٣)].

﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾:

القصد في المشي هو الاعتدال في المشي والمشية الحيوية وتمشية الأمور، مجانباً حد الإفراط والتفريط فإن خير الأمور أوسطها، فالمشية القاصدة إلى الأهداف الصالحة بكل بساطة وانطلاق هي التي توصل إليها دون تلكّا وانحياق، فـ «سرعة المشي يذهب ببهاء المؤمن»[(٤)] ومن القصد في المشي - ككل - هو المشي القاصد الحق على أية حال، وهو الاعتدال العدل في مشي الإنسان كإنسان[(٥)].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٧.

(٢) المصدر في المجمع عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية لا تمل وجهك من الناس بكل ولا تعرض عمن يكلمك استخفافاً به.

(٣) المصدر في كتاب ثواب الأعمال بإسناده إلى ابن فضال عمن حدثه عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: وفيه عنه قال أبو جعفر عليه السلام قال رسول الله ﷺ ويل لمن يختال في الأرض معارض جبار السماوات والأرض.

(٤) نور الثقلين ٤: ٢٠٨ في كتاب الخصال عن أبي الحسن عليه السلام قال: . . .

(٥) عن الكافي أبو عمر والزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث: إن الله تبارك وتعالى فرض=

ومن القصد في المشي في انطلاقته الغض من الصوت دون رفع صارخ ولا خفض هامس، والمنكر بينهما هو الصارخ فوق الحاجة إلّا إذ اقتضت الضرورة، أم فيه رجاحة كأن يكون داعياً أو يقرأ القرآن[١] فليس القصد من الصوت في كلام وسواه إلا تفهيم المخاطب، فليكم قدر الحاجة من سماعه لا زائداً ولا ناقصاً، فالناقص حماقة والزائد حماقة أخرى بل هي أحمق فـ ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾.

فالغض من الصوت أدب صارح، ورفعه سوء أدب قارح، إساءة إلى صاحبه كأن لا يحسب صوته صوتاً، وإلى مخاطبه كان يحسبه أصم أو لا يفهم، فلذلك يشبه بصوت الحمير في كونه أنكر الأصوات، ولكن أين حمير من حمير، الحيوان تعلي صوتها قصوراً بلا نية سوء، وحمير الإنسان تعلي تقصيراً وبنية سوء، أم قصوراً عن تقصير مهما لم ينو سوء.

ومن الغض من الصوت - بل هو أهمه - غضه عما لا يحل، أن يربط الإنسان لسانه عما لا يعنيه، فيجعل لسانه وراء قلبه، دون أن يجعل قلبه وراء لسانه.

هذه عظات غرة، سلبية وإيجابية، فردية وجماعية، تأتي في القرآن من لقمان عليه السلام كأصول عظاته لابنه وسواه، وقد يروى عنه عظات أخرى نذكر قسماً منها هنا كما يناسب الفرقان: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن لقمان قال لابنه يا بني عليك بمجالس العلماء واستمع كلام الحكماء فإن الله يحيي القلب

= الإيمان على جوارح ابن آدم وقسمه عليها وفرقه فيها وفرض على الرجلين أن لا يمشي بهما إلى شيء من معاصي الله وفرض عليهما المشي إلى ما يرضى الله عزّ وجلّ فقال: ولا تمش في الأرض مرحاً انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً - وقال: واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير.

(١) المصدر عن المجمع وروي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: هي العطسة المرتفعة القبيحة والرجل يرفع صوته بالحديث رفعاً قبيحاً إلا أن يكون داعياً أو يقرأ القرآن.

الميت بنور الحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر»[١].

قال ﷺ عنه عليه السلام كان يقول: «إن الله إذا استودع شيئاً حفظه»[٢].

قال عليه السلام لابنه «يا بني لا تكونن أعجز من هذا الديك الذي يصوت بالأسحار وأنت نائم على فراشك»[٣].

قيل للقمان: ما الذي أجمعت عليه من حكمتك؟ قال: «لا أتكلف ما قد كفيته ولا أضيع ما وليته»[٤].

«فوعظ لقمان ابنه بآثار حتى تفطّره وانشق وكان فيما وعظه به أن قال: يا بني إنك منذ سقطت إلى الدنيا استدبرتها واستقبلت الآخرة فدار أنت إليها تسير أقرب إليك من دار أنت عنها متباعد، يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، ولا تجادلهم فيمنعوك، وخذ من الدنيا بلاغاً ولا ترفضها فتكون عيالاً على الناس، ولا تدخل فيها دخولاً يضر بآخرتك، وصم صوماً يقطع شهوتك ولا تصم صياماً يمنعك من الصلاة فإن الصلاة أحب إلى الله من الصيام، يا بني إن الدنيا بحر عميق قد هلك فيها عالم كثير، فاجعل سفينتك فيها الإيمان، واجعل شراعها التوكل، واجعل زادك فيها تقوى الله، فإن نجوت فبرحمة الله وإن هلكت فبذنوبك، يا بني إن تأدبت صغيراً انتفعت به كثيراً، ومن عنى بالأدب اهتم به ومن اهتم به تكلف علمه، ومن تكلف علمه اشتد له طلبه، ومن اشتد طلبه أدرك منفعته، فاتخذه عادة فانك تخلف في سلفك، وينتفع به من خلفك، ويرتجيك فيه راغب، ويخشى صولتك

(١) الدر المنثور ٥: ١٦٢ - أخرج الطبراني والرامهرمزي في الأمثال عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ:

(٢) المصدر أخرج أحمد والحكيم الترمذي والحاكم في الكنى والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر عن النبي ﷺ..

(٣) المصدر أخرج البيهقي عن الحسن ان لقمان عليه السلام قال لابنه...

(٤) قرب الإسناد هارون بن صدقة عن جعفر عن أبيه عليهما السلام قيل للقمان:...

راهب، وإياك والكسل عنه بالطلب لغيره، فإن غلبت على الدنيا فلا تغلبن على الآخرة، وإذا فاتك طلب العلم في مظانه فقد غلبت على الآخرة، واجعل في أيامك ولياليك وساعاتك نصيباً في العلم فانك لن تجد له تضييعاً أشد من تركه، ولا تمارين فيه لجوجاً، ولا تجادلن فقيهاً، ولا تعادين سلطاناً، ولا تماشين ظلوماً ولا تصادقنه، ولا تصاحبن فاسقاً ناطقاً، ولا تصاحبن متهماً، واخزن علمك كما تخزن ورقك.

يا بني خف الله عز وجل خوفاً لو أتيت القيامة ببر الثقلين خفت أن يعذبك، وارج الله رجاء لو وافيت القيامة بإثم الثقلين رجوت أن يغفر الله لك، فقال له ابنه: يا أبت كيف أطيق هذا وإنما لي قلب واحد؟ فقال له لقمان: يا بني لو استخرج قلب المؤمن يوجد فيه نوران نور للخوف ونور للرجاء لو وزناً لما رجح أحدهما على الآخر بمثقال ذرة، فمن يؤمن بالله يصدق ما قال الله عز وجل ، ومن يصدق ما قال الله يفعل ما أمر الله، ومن لم يفعل ما أمر الله لم يصدق ما قال الله فإن هذه الأخلاق يشهد بعضها لبعض، فمن يؤمن بالله إيماناً صادقاً يعمل لله خالصاً ناصحاً فقد آمن بالله صادقاً، ومن أطاع الله خافه، ومن خافه فقد أحبه، ومن أحبه فقد اتبع أمره، ومن اتبع امره استوجب جنته ومرضاته، ومن لم يتبع رضوان الله فقد هان عليه سخطه، نعوذ بالله من سخطه، يا بني لا تركن إلى الدنيا ولا تشغل قلبك بها فما خلق الله خلقاً هو أهون عليه منها، ألا ترى إنه لم يجعل نعيمها ثواب المطيعين، ولم يجعل بلاءها عقوبة للعاصين»[1].

وقال يا بني: إن تك في شك من الموت فارفع عن نفسك النوم ولن

---

(١) نور الثقلين ٤ : ١٩٨ عن تفسير القمي حدثني أبي عن القاسم بن محمد عن سليمان بن داود المنقري عن حماد قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن لقمان وحكمته التي ذكرها الله عز وجل ؟ فقال: - ذكرنا الشطر الأول من كلامه بداية البحث عن عظات لقمان - ثم قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ. . .﴾ [لقمان: ١٣] قال: فوعظ. . .

تستطيع ذلك، وإن كنت في شك من البعث فارفع عن نفسك الانتباه ولن تستطيع ذلك فانك إذا فكرت في هذا علمت أن نفسك بيد غيرك، وإنما النوم بمنزلة الموت وإنما اليقظة بعد النوم بمنزلة البعث بعد الموت.

وقال: يا بني لا تقترب فيكون ابعد لك ولا تبعد فتهان، كل دابة تحب مثلها وابن آدم لا يحب مثله، لا تنشر بزك إلّا عند باغيه وكما ليس بين الكبش والذئب خلة كذلك ليس بين البار والفاجر خلة، من يقترب من الزفت تعلق به بعضه كذلك من يشارك الفاجر يتعلم من طرقه، من يحب المراء يشتم، من يدخل مدخل السوء يتهم، ومن يقارن قرين السوء لا يسلم، ومن لا يملك لسانه يندم.

وقال يا بني صاحب مأة ولا تعاد واحداً، يا بني إنما هو خلاقك وخلقك، فخلاقك دينك وخلقك بينك وبين الناس فلا تبغضن إليهم وتعلّم محاسن الأخالق.

يا بني كن عبداً للأخيار ولا تكن ولداً للأشرار، يا بني أد الأمانة تسلم دنياك وآخرتك وكن أميناً فإن الله لا يحب الخائنين، يا بني لا تر الناس أنك تخشى الله وقلبك فاجر»[١].

وقال: «يا بني إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم فلم يبق ما جمعوا ولم يبق من جمعوا له وإنما أنت عبد مستأجر قد أمرت بعمل ووعدت عليه أجراً فأوف عملك واستوف أجرك ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فأكلت حتى سمنت فكان حتفها عند سمنها، ولكن اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها فتركتها ولم ترجع إليها آخر الدهر، أخربها ولا تعمرها فانك لم تؤمر بعمارتها، واعلم انك ستسأل غداً إذا

(١) البحار عن قصص الأنبياء بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: وكان فيما وعظ به لقمان ابنه ان قال: . . .

وقفت بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ عن أربع: شبابك فيما أبليته، وعمرك فيما أفنيته، وما لك مما اكتسبته وفيما أنفقته، فتأهب لذلك وأعد له جواباً ولا تأس على ما فاتك من الدنيا فإن قليل الدنيا لا يدوم بقاءه، وكثيرها لا يؤمن بلاءه، فخذ حذرك وجد في أمرك، واكشف الغطاء عن وجهك، وتعرض لمعروف ربك، وجدد التوبة في قلبك، واكمش في فراقك قبل أن يقصد قصدك، ويقضي قضاءك، ويحال بينك وبين ما تريد»[١].



(١) في الكافي بإسناده عن يحيى بن عقبة الأزدي عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: كان فيما وعظ به لقمان لابنه: . . .

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ

مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾:

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟﴾ خطاب التنبيه لكل راء من المكلفين من الجنة والناس أمن سواهما أجمعين، ولا دليل على اختصاصه بالمشركين لمكان اطلاق العموم وعموم الإطلاق، ثم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ حيث تستثني جماعة من هؤلاء توكّد واقع العموم.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم...﴾ لفتة مكرورة في الذكر الحكيم، ذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد، ورغم تكرارها هنا وهناك بمختلف المناسبات ترى جديدة في كل مرة، جادة نحو تذكير الإنسان النسيان.

و«كم» هنا كما في «تروا» هم كافة المكلفين - وعلّهم - في كل الأرضين، دون هذه فحسب، والتسخير له تعني لمسة من الملكية وشطرة من الغاية المعنيّة للخلق كله، مما يقرر لنا إمكانية الانتفاع من الكون كله، مما في السماوات وما في الأرض كلّه.

وهذه الآية لا نظيرة لها بهذه الشمولية إلّا ما في الجاثية: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١) (٢).

لا تعني ﴿لَكُم﴾ إن الله جعلنا مسخّرين للكائنات، وإنما ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ بتسبيل السبل العقلية والعلمية كفاعليات، والسبل القانونية الكونية كقابليات، حتى نتمكن من مختلف الانتفاعات مما في الأرض وما في السماوات، مهما اختص قسم منها بخوارق العادات الخاصة برسل الله ومن إليهم، ثم: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ والإسباغ هو التوفير والإتمام، فلا تفريط من ربنا فيما أنعم علينا من نعمه مهما فرطنا نحن في جنبه! ثم ﴿ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ حالان من ﴿نِعَمَهُۥ﴾ والنعم الظاهرة ككل هي المادية المرئية بمحاولة ودون محاولة، فالباطنة - إذاً - هي الروحية من فطرية وعقلية وفكرة وشرعة ربانية.

ثم ومن الظاهرة «ما سوى من خلقك وأما الباطنة فما ستر من عورتك ولو أبداها لقلاك أهلك(٣) مهما كانتا من الظاهرة في التقسيم الشامل.

كما الإسلام وهو من الباطنة هو من النعم الظاهرة إذ هو ظاهر لكل من يتحرى عنه كما من الباطنة ما ستر من مساوي عملك»(٤) ومن الباطنة الظاهرة ما هي ظاهرة لكل المسلمين كـ «النبي وما جاء به من معرفة الله عزّوجلّ وتوحيده، ومنها ما هي غير ظاهر للكل كولاية أهل البيت عليهم السلام (٥).

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٣.

(٢) راجع تفسير الآية في الجاثية من الفرقان يغنيك عما نختصره هنا.

(٣) الدر المنثور ٥: ١٦٧ - أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عطاء قال سألت ابن عباس عن الآية قال هذه من كنوز علي قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: أما الظاهرة فما سوى»...

(٤) المصدر أخرج ابن مردويه والبيهقي والديلمي وابن النجار عن ابن عباس قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الآية قال: أما الظاهرة فالإسلام وما سوى من خلقك وما أسبغ عليك من رزقه وأما الباطنة فما ستر من مساوي عملك يا ابن عباس إن الله تعالى يقول ثلاث جعلتهن للمؤمن صلاة المؤمنين عليه من بعده وجعلت له ثلث ماله اكفر عنه من خطاياه وسترت عليه من مساوي عمله فلم أفضحه بشيء منها ولو أبديتها لنبذه أهله فمن سواهم.

(٥) نور الثقلين ٤: ٢١٢ في تفسير القمي بسند متصل عن جابر قال: قال رجل عند أبي =

ثم ومن الولاية نفسها ما هي ظاهرة كالإمام الظاهر، وما هي باطنة كالإمام الغائب(١) وعلى أية حال فالظهور والبطون هما من الأمور النسبية وهذه تفاسير بمصاديق من النعم الظاهرة والباطنة، والتفسير بالمفهوم هو كالأول، كل ما ظهر لكل ناظر هو الظاهرة، وكل ما هو غير ذلك هو الباطنة، ولكن الثانية ليست بالتي لا تظهر أم لا تعرف مهما لم تظهر، ونعم الله ظاهرة وباطنة لا تحصى(٢) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم النسناس منهم ﴿مَن يُجَٰدِلُ

= جعفر عليه السلام: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ...﴾ [لقمان: ٢٠] قال: أما النعمة الظاهرة فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به من معرفة الله عز وجل وتوحيده، وأما النعمة الباطنة فولايتنا أهل البيت وعقد مودتنا فاعتقد والله قوم هذه النعمة الظاهرة والباطنة، واعتقدها قوم ظاهرة ولم يعتقدوها باطنة فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١] ففرح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند نزولها أنه لم يقبل الله تبارك وتعالى إيمانهم إلا بعقد ولايتنا ومحبتنا.

(١) المصدر محمد بن مسلم وحماد بن زياد عن الكاظم عليه السلام قال: الظاهرة الإمام الظاهر والباطنة الإمام الغائب.

(٢) نور الثقلين ٤: ٢١٣ في امالي الطوسي بإسناده إلى أبي جعفر عليه السلام قال: حدثني عبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله الأنصاري قالوا أتينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مسجده في رهط من أصحابه فيهم أبو بكر وأبو عبيدة وعمر وعثمان وعبد الرحمن ورجلان من قراء الصحابة - إلى قوله حاكياً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وقد أوحى إلى ربي جل وتعالى أن أذكركم بالنعمة وأنذركم بما اقتص عليكم من كتابه وأملى ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ...﴾ ثم قال لهم: قولوا الآن قولكم ما أوّل نعمة رغبكم الله وبلاكم بها؟ فخاض القوم جميعاً فذكروا نعم الله التي أنعم عليهم وأحسن إليهم بها من المعاش والرياش والذرية والأزواج إلى ساير ما بلاهم الله عز وجل من أنعمه الظاهرة فلما أمسك القوم أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على عليّ عليه السلام فقال يا أبا الحسن قل فقد قال أصحابك، فقال: وكيف بالقول فداك أبي وأمي وإنما هو أنا الله بك؟ قال: ومع ذلك فهات قل ما أوّل نعمة أبلاك الله عز وجل وأنعم عليك بها؟ قال: إن خلقني جل ثناءه ولم أك شيئاً مذكوراً، قال: صدقت فما الثانية؟ قال: أحسن بي إذ خلقني فجعلني حياً لا مواتاً، قال: صدقت فما الثالثة؟ قال: إن انشأني فله الحمد في احسن صورة واعدل تركيب، قال: صدقت فما الرابعة؟ قال: إن جعلني متفكراً راعياً لا بلها ساهياً، قال: صدقت فما الخامسة؟ قال: إن جعل لي شواعر أدرك ما ابتغيت بها وجعل لي سراجاً منيراً، قال: صدقت فما السادسة؟ قال: إن هداني الله لدينه ولم يضلني عن سبيله، قال: صدقت فما السابعة؟ =

﴿فِي ٱللَّهِ﴾ جدالاً سيئاً نكراناً له أم إشراكاً به أو إنكاراً لوحيه واليوم الآخر ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فطري أو عقلي أو تجريبي أماذا من علم ذاتي ﴿وَلَا هُدًى﴾ رسالية أماهيه كحجة ربانية من المكتسب أم وأخيراً، ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ وهو كتاب الوحي الذي ينير الدرب على السالكين إلى الله إسباغاً لسائر الحجج آفاقية وانفسية، وقد فصلناها في آية الحج: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ . . . مُّنِيرٍ﴾.

وهذا هو الجدال بالتي هي أسوء ألّا يملك أية برهنة ذاتية أو كسبية إلّا تعنتاً على الحق وتعنداً للحق:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾:

﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ حيث يصاحبه علم وهدى وكتاب منير متروك عندهم إلى ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ الذي لا يحمل أيّة حجة إلّا التقليد الأعمى ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ هؤلاء الآباء وإياهم ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فإن أخطر الوسائل الشيطانية وأشرها هو الحمل على تقليد الآباء القدامى - فقط - بحجة انهم آباء، والمقلّد الأول في هذه السلسلة هو الشيطان الداعي إلى عذاب السعير، لمسة موعظةً موقظة مخيفة، بعد تلكم الأدلة العظيمة اللطيفة، تأخذ بأزمة القلوب غير المقلوبة، قارعة للقلوب المقلوبة، حيث يجادل أصحابها في الله دون أي إسناد إلى علم أو هدى أو كتاب منير من الله.

= قال: إن جعل لي مردا في حياة لا انقطاع لها، قال: صدقت - إلى قوله - ان سخر لي سماءه وارضه وما فيهما وما بينهما من خلقه. . . قال ﷺ فما بعدها؟ قال: كثرت نعم الله يا نبي الله فطابت ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] فتبسم رسول الله ﷺ وقال ليهنئك الحكمة ليهنئك العلم يا أبا الحسن فأنت وارث علمي والمبين لأمتي ما اختلفت فيه من بعدي من أحبك لدينك وأخذ بسبيلك فهو ممن هدي إلى صراط مستقيم ومن رغب عن هواك وأبغضك وتخلاك لقى الله يوم القيامة لا خلاق له». . .

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ...﴾[1] ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2]:

هذه واضرابها تحمل الإسلام المطلق أو إسلام الوجه لله، وآيتنا ﴿يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مما يجعلها يتيمة في آيات الإسلام، وقد يكون إسلام الوجه إلى الله كتقدمه لإسلام الوجه لله.

واشمل الوجه هنا للوجه المسلم إلى الله هو وجه الفطرة والعقل والعلم فإنه الدين القيم كما في آية الفطرة، فلما اسلم وجهه إلى الله هكذا يسلم وجهه لله بوجه الشرعة الربانية، وكل ذلك مصحوباً بالإحسان ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في إسلام وجهه، تزويداً لإسلامه في وجوهه المعرفية بالوجوه العلمية ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ في هذا السبيل ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ هنا ويوم يقوم الأشهاد.

فحذار حذار، إن الرحلة شاقة وطويلة، حافلة بالشبكات والأخطار، ولا زاد فيه إلا إسلام الوجه لله، ولا راحلة إلا الإحسان في الله، وليعرف السالك إلى الله أن خطر الوجدان ليس أقل من خطر الحرمان، وخطر السّراء ليس بأهون من خطر الضراء.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾:

ولماذا ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾؟ أتأسفاً عليه؟ وقد أديت ما عليك فكذبوك!

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٢.

أم زعم أنهم سابقونا؟ فـ ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ لا مفلت لهم عنا حين يرجعون ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ إنباء الإخبار علمياً وواقعياً لما يرون العذاب ﴿بِمَا عَمِلُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ لا يعزب عنه مثقال ذرة!.

﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ هنا ﴿قَلِيلًا﴾ وكل متع الدنيا قليلة مهما كانت كثيرة غزيرة ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ بما عملوا ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ هو في الحق أعمالهم أنفسهم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

«هم» المسؤول عنهم هنا هم المشركون المعترفون أن الله هو خالق السماوات والأرض، فـ ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ﴾ كله لله الذي يعترف بتوحيد خالقيته المشركون و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾ الذي يملك كافة البراهين آفاقية وأنفسية على توحيده و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾ على وضوح الحق للحق المتعالي عن كل شائبة وشاكلة.

﴿بَلْ﴾ هم يخالفون اعترافهم هذا بما يشركون، فقليل منهم يعلمون الحق وهم منكرون و﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ جهلاً عن تقصير في تقاليد آباءهم وكبرائهم، فالكل - إذاً - مقصرون، حيث الإشراك بالله في العبودية مع الاعتراف بتوحيد الخالقية مما لا يقبل القصور المطلق.

﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾:

﴿لِلَّهِ﴾ لا سواه ملكاً وملكاً، علماً وقدرة، بداية ونهاية وعلى أية حال كل ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ لأنه الخالق لهما دون سواه، ولـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ غني في إن «لله...» «حميد» في هذه السلطة الملكية والمالكية.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾:

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[1].

لقد تحدثنا عن الثانية في الأسرى بما قد يكفي تفسيراً للأولى وفيها زيادة عنها كالتصريح بأقلام شجرة الأرض، وسبعة أبحر إضافة إلى البحر، والثانية خلو عنهما إلّا ضعف البحر وهنا أربعة أضعاف، مما يؤكد لنا إنهما يمثلان الكثرة الكثيرة من الماء المداد، ولم يذكر فيهما كاتب للكلمات، وعلّه إشارة إلى إنه يحلّق على الجنة والناس أجمعين إن لو كانوا كلهم كاتبين وبأية سرعة ممكنة.

وكما لم يذكر فيهما الأوراق المكتوب عليها، لمحة إلى كل بساط الأرض بكل ما يمكن أن يكتب عليه، مهما كانت رؤوس الأقلام كأدقّها، فالكلمات كأنعمها وأرقها.

ففي ذلك المربع ذي الزوايا الشاسعة الشاملة كلما بالإمكان كونه مواداً من البحر الحبر وزيادة، وأقلاماً وكاتبين ومكتوباً عليه، يقول الله ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ وهناك ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾.

وبالنظر إلى كل قلم في مدى إمكانية الكتابة به، وكل كاتب كما يمكن أن يكتب، وكل مكتوب عليه من أجزاء الأرض وبسيطها، ومداد الأبحر الثمانية، نعرف سعة كلمات الله حيث لا تنفد بهذه الكتابات! في حين نعلم أن ليتراً واحداً من الحبر قد يكتب به بقلم واحد وكاتب واحد وكراسات عدة في خمسين سنة ملايين الكلمات التي تشكل مكتبة ضخمة، فضلاً عن

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.

ذلك المربع الشاسع الواسع! إنه ينفذ حبر البحار وأقلام الأشجار وأعمار الكتّاب بكتاباتهم ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ و﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وقد تعني الزيادتان في آية لقمان أن الكلمات فيها أكثر مما في الأسرى، زيادة كلمات الله على كلمات ربي، فإنه الله قبل كونه رباً، والربوبية صفة فعل فكلماتها محدودة طالما لا نحيط بها علماً ولا إحصاء، والألوهية تحلّق عليها بزيادة للذات وصفات الذات ولهما كلمات كما لصفات الفعل.

لا نقول إن كلمات ربي هي ربع كلمات الله لمكان سبعة أبحر إلى البحر هنا، ومثله هناك، فإنهما لا تمثلان إلّا الكثرة، إلّا أن الكثرة في كلمات الله أكثر بكثير من كلمات الرب، وهي فيهما لا تنفد مهما اتسعت البحور وكثرت الأقلام، فإنها - أيضاً - كلها من كلمات الرب فكيف تحلق على كل كلمات الرب فضلاً عن كلمات الله!.

وكما الأقلام هنا تحلق على كل أشجار الأرض، كذلك البحر يعني كل بحارها أم والأرضين السبع كلها، أم وبحار السماء أيضاً.

هنا يروى ان أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة يا محمد أرأيت قولك ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١] إياناً تريد أم قومك؟ فقال: كلّا، فقالوا: ألست تتلوا فيما جاءك أنا قد أوتينا التورات وفيها تبيان كل شيء؟ فقال: إنها في علم الله قليل فانزل الله في ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ...﴾[٢].

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) الدر المنثور ٥: ١٦٧ - أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ان... وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: اجتمعت اليهود في بيت فأرسلوا إلى النبي ﷺ أن ائتنا فجاء فدخل عليهم فسألوه عن الرجم فقال: أخبروني بأعلمكم فأشاروا إلى ابن صوريا الأعور قال: أنت أعلمهم؟ قال: أنهم يزعمون ذاك قال فنشدتك بالمواثيق التي =

فالكلمات - إذاً - هي علم الله ذاتياً وصفاتياً وواقعياً، لفظياً ومعنوياً، تكوينياً وتشريعياً، وليست لهذه المجموعة - ككل - حد ولا نهاية، مهما كانت نعمه حسب المنعم عليهم محدودة، وهي أيضاً كما الكلمات لا تحصى، وقد تكفي كلمة «كن» مثالاً لهذه السعة المعجزة، ولا سيما ما بالإمكان أن يتلون به، فلا حد لها محدوداً ولا عدّ معدوداً، فلو أن الأقلام كلها بثمانية أضعاف من مداد البحر كتبت هذه الكلمات لما نفدت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وقضية عزته الطليقة وحكمته، هي اللامحدودية في كلماته الإلهية، واللامحصورية في كلماته الربانية بحصار الكتابات التي هي أيضاً بوسائلها والكاتبين لها من كلمات الرب.

وعلّ ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ تلمح إلى أنها محدودة ولكنها لا تنفد، ولكن ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ لا تلمح إلى نفادها، حيث النفي هنا أعم من ذلك دونما هناك.

أجل، وكما يتوارى كل شيء إلّا الله، كذلك تتوارى الأشجار والبحار، وتنزوي الأحياء والأشياء ولا تتوارى كلمات الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ كما لا يغلب في ذاته كذلك لا يغلب في كلماته.

= أخذت عليكم وبالتوراة التي أنزلت على موسى ما تجدون في التوراة؟ قال: لولا أنك نشدتني بما نشدتني به ما أخبرتك، أجد فيها الرجم، فقضى عليهم النبي ﷺ فقالوا: صدقت يا محمد عندنا التوراة فيها حكم الله فكانوا فسب ذلك لا يظفرون من النبي ﷺ بشيء قال فنزل على النبي ﷺ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] فاجتمعوا في ذلك البيت فقال رئيسهم يا معشر اليهود لقد ظفرتم بمحمد فأرسلوا إليه فجاء فدخل عليهم فقالوا يا محمد، ألست أخبرتنا أنه أنزل عليك ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣] ثم تخبرنا أنه أنزل عليك ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فهذا مختلف، فسكت النبي ﷺ ولم يردّ عليهم قليلاً ولا كثيراً، قال ونزل على النبي ﷺ «ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام وجميع خلق الله كتاب وهذا البحر يمد فيه سبعة أبحر مثله فمات هؤلاء الكتاب كلهم وكسرت هذه الأقلام كلها ويبست هذه البحور الثمانية وكلام الله كما هو لا ينقص ولكنكم أوتيتم التوراة فيها شيء من حكم الله قليل فأرسل النبي ﷺ فأتوه فقرأ عليهم هذه الآية فرجعوا مخصومين بشر».

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾:

آية يتيمة بين آي المعاد تجعل خلق الجمع وبعثهم كنفس واحدة في خلقها وبعثها، وعلّها إجابة فيما تعنيه عن السؤال: كيف يحشر الجميع وقد خلطت أجزاؤهم مع بعض، فضلّت كل نفس في الآخرين، كما قالوا: ﴿أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾(1).

فالجواب: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أمام الحيطة العلمية والقدرة الإلهية، إذ لا تضل نفس في أنفس الآخرين عن علم رب العالمين مهما ضلّت عمن سواه، فكما أنه تعالى خلق كل نفس ثم يبعثها كما خلق، وهو أهون عليه، كذلك يبعثكم ليوم الجمع كما خلقكم أول مرة، وذلك أهون عليه، ف ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أقوالكم ﴿بَصِيرٌ﴾ بأحوالكم روحية وجسمية، فلا يفلت عنه فالت ولا يعزب عن علمه عازب، فعلمه لازب كل معلوم، وقدرته لازبة كل مقدور.

إنه تعالى لا يختلف في خالقيته القليل والكثير، والسهل والعسير، لأنه على كل شيء قدير.

لقد ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾(2) على توالي الدهور والأنسال وفق الحكمة الربانية، ثم يبعثكم جميعاً في ساعة واحدة قضية العدالة في الحكمة(3)، دون رحلات الأجنّة، ولا انتسالات مترتبة، فإنهما لدى الله سيّان، بل

---

(1) سورة السجدة، الآيتان: ١٠، ١١.

(2) سورة النساء، الآية: ١.

(3) نور الثقلين ٤: ٢١٦) عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية: بلغنا والله أعلم أنهم قالوا: يا محمد خلقنا أطواراً: نطفا ثم علقا ثم أنشأنا خلقاً كما تزعم ونزعم أنا نبعث في ساعة واحدة فقال الله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

والبدء أياً كان أصعب - لو صح التعبير - وليس إلا تنازلاً في التعبير: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[1].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾:

هذه وتسع أخرى عشرة كاملة تحدث عن إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، وهي تدل على كروية الأرض، لولاها لكانت الأرض كلها ليلاً أم كلها نهاراً فلا مجال لولوج كلّ في الآخر.

ثم ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ﴾ في شروقات وغروبات مختلفة حسب مختلف أيام السنة، في الآفاق الأرضية، بما يتحقق معه الولوجان ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم القيامة الكبرى، أو ليس الله الذي يجريهما مع سائر الجاريات إلى أجل مسمى، ليجري المكلفين إلى أجلهم المسمى وهم أحق وأحرى؟ إذ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فليجازكم بما عملتم قضية العدل، وإذ لا جزاءً وافياً هنا فليكن هناك.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ العظيم العظيم، الكثير الكثير من البراهين الساطعة من الآيات الآفاقية والأنفسية التي تحلّق على الكائنات كلها، دالة على وجوده تعالى وتوحيده وكمال ربوبيته ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ بكل ما للحق من معنى: ثبوتا ضرورياً لا بدء له ولا ختام، وثبوتاً لكل شؤون الألوهية والربوبية، وثبوتاً لكل استحقاقات واختصاصات المعبودية.

و﴿ذَٰلِكَ﴾ الصغير الصغير، الجافي الهزيل من كل دليل مما يدعون من

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٧.

دونه، إنه هو الباطل بكل معاني البطلان كوناً وكياناً ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ فلا يسامى أو يساوى ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ فلا يوازى.

فكل حق يملك من البرهان ما يحققه قدره، وكل باطل هو صفر اليد عن أي برهان يثبته، بل ويبطله، ولأن الله هو الحق المطلق، فحقّ للكائنات كلها أن تكون معسكر البراهين الدالة على حقه دون قصور ولا فتور.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾:

«نعمت الله» هي التي تجري بها الفلك على طول الخط، من الرياح التي تجري السفن الشراعية، ومن البترول والكهرباء وسائر الوسائل المكتشفة، حيث الكلّ نعم الله، والعلم الكاشف لها من نعمت الله ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالة على حقه و﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ البعيد الغور ﴿لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

وعلّ الآيات هنا هي رقة الماء وخفة الفلك الثقيلة على الماء، وسببية الرياح لجريانها فوق الماء، وسائر الأسباب التي تكشف لكل صبار شكور، ومن الآيات هي الفطرية البارزة ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ...﴾.

ثم للصبر والشكر واجهتان، صبر في البأساء وشكر في السرّاء وقد يعنيه قوله ﷺ: «الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر.

ثم صبر في التروك وشكر في الأفعال كما يعنيه قوله ﷺ: «الصوم صبر والأفعال شكر»[١].

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ هؤلاء الراكبين في الفلك مؤمنين ومشركين ﴿مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٥: ١٦٢ يرويهما عن النبي ﷺ.

وهي السحب السوداء الحاملة العذاب كما في ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾[1] - ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ قضية نبوع الفطرة عند تقطع الأسباب ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم﴾ كقلة قليلة ﴿مُّقْتَصِدٌۚ﴾ في دعوته ودعاءه، باقياً على إخلاصه لله مهما قل أو كثر ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ كهذه الفطرية، واضرابها من عقلية وعلمية وحسية أمّاهيه ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾: غدّار ﴿كَفُورٍ﴾: مليء بالكفر والكفران.

ف «منهم» هناك تلمح إلى قلة، و﴿كُلُّ خَتَّارٍ﴾ هنا إلى كثرة وكما هي طبيعة الحال في الناس وحتى في المؤمنين منهم، مهما اختلف شرك عن شرك.

ويا للهول العظيم - وعوذاً بالله العظيم - موج يغشاهم كالظلل بسرادقه المحيطة بهم من كل جانب، وهم في الفلك كالريشة الحائرة في خضمّ البحر المائر، مما يعرّي النفوس عن كل حالة مشركة خاترة غادرة حيث تقطعت الأسباب، فيتجهون عنها إلى رب الأرباب.

هنا يفتح كتاب الفطرة شاءوا أم أبوا، انفتاحاً أتوماتيكياً كما فطرهم الله ليقرأوها قراءة خاشعة خاضعة، ويدعوا الله حق الدعوة الخالصة ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌۚ﴾ قاصد قصد الفطرة، دون أن ينجرف بجارف الأمن والرخاء، ومنهم من يجحد ختاراً كفوراً.

هبهم هؤلاء الختارين الكفارين قد ينجون من ظلل البحار هنا، فمن ذا الذي ينجيهم عن ظلل الأخرى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾:

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٨٩.

جزى عنه: كفى، وهنا قد يجزي والد عن ولده مالاً أو حالاً، أم يجزي مولود عن والده حالاً أو مالاً، وفي يوم القيامة لا جزاءَ من أحد وإن كان أقرب الأقارب كالوالد والولد ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ لا حول عنه بأي حول ومحاولة ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أن تغفلكم عن الأخرى، أم تحسبوها كما الأولى قد يجزي أحد أحداً أو يجزى عنه ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ وهو الشيطان الرجيم الذي يرأس كل نمرود وليست الحياة الدنيا في حد ذاتها مذمومة، بل هي حسب ما يعامل معها إما حسنة وإما سيئة.

فـ «اثبت الناس رأياً من لم يغره الناس من نفسه ولم تغره الدنيا بتشويقها»[١].

وخير تعريف عادل بالدنيا في قول فصل ما يروى من كلام أمير المؤمنين عليه السلام لرجل سمعه يذم الدنيا من غير معرفة بما يجب أن يقول في معناها: الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، مسجد أنبياء الله ومهبط وحيه، ومصلى ملائكته، ومتجر أولياءه، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة، فمن ذا يذمها وقد آذنت ببينها، ونادت بفراقها، ونعت نفسها فشوقت بسرورها إلى السرور، وببلاءها إلى البلاء، تخويفاً وتحذيراً وترغيباً وترهيباً، فيا أيها الذام للدنيا والمغتر بتغريرها متى غرتك؟ أبمصارع آباءك في البلى، أم بمصارع أمهاتك تحت الثرى، كم عللت بكفيك ومرضت بيديك تبتغي لهم الشفاء، وتستوصف لهم الأطباء، وتلتمس لهم الدواء، لم تنفعهم بطلبك، ولم تشفعهم بشفاعتك، مثّلت لهم الدنيا مصرعك ومضجعك حيث لا ينفعك بكاءك، ولا يغني عنك احباءك»[٢].

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٢١٧ عن الفقيه عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه قال السائل: فأي الناس أثبت رأياً؟ قال: . .

(٢) المصدر عن ارشاد المفيد من كلام أمير المؤمنين عليه السلام لرجل سمعه يذم الدنيا. . .

عن علي بن الحسين عليه السلام «حب الدنيا رأس كل خطيئة والدنيا دنيا آن: دنيا بلاغ ودنيا ملعونة».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾:

عرض لشطر من اختصاصات العلم والقدرة الربوبية دون اختصاص بها علماً وقدرة، فـ ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ نموذج من خاصة القدرة، والأربعة الأخرى نماذج من خاصة العلم.

فليست الآية لتحصر اختصاصات العلم والقدرة بهذه الخمس وهناك مآت الآمت من الاختصاصات - علمياً وفي القدرة - بالله ذكرت بطيات آيات أخرى، فإنما هذه الخمس إجابة عما سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكما في قصته الروح واضرابها[1] فلا يصدق ما يفترى على رسول الهدى صلى الله عليه وآله وسلم إنه «قال» أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[2] فإن غيب

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٦٩ - أخرج ابن المنذر عن عكرمة ان رجلاً يقال له الوارث من بني مازن بن حفصة بن قيس غيلان جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا محمد متى قيام الساعة، وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب وقد تركت امرأتي حبلى فمتى تلد وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غداً وقد علمت بأي أرض ولدت فبأي أرض أموت فنزلت هذه الآية، وفيه أخرج ابن مردويه عن سلمة ابن الأكوع قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قبة حمراء إذ جاء رجل على فرس فقال: من أنت؟ قال: أنا رسول الله، قال: متى الساعة؟ قال: غيب وما يعلم الغيب إلا الله، قال: ما في بطن فرسي؟ قال: غيب وما يعلم الغيب إلّا الله، قال: فمتى تمطر؟ قال: غيب وما يعلم الغيب إلا الله.

(٢) المصدر أخرج أحمد والطبراني عن ابن عمران النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: . . وفيه أخرج مثله ابن مردويه عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: لم يعم على نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم إلا الخمس من سرائر الغيب هذه الآية في آخر لقمان.

فيه أخرج أحمد عن عامر أو أبي عامر أو أبي مالك ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم بينما هو جالس في مجلس فيه أصحابه جاء جبرئيل عليه السلام في غير صورته فحسب رجلاً من المسلمين فسلم فرد عليه السلام ثم وضع يده على ركبتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال له يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: أن تسلم=

الذات وصفات الذات وصفات الفعل وغيب المعجزات وكثير أمثالها لا يعلمها إلا الله وكما قال الله عنه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[1] فليست هذه الخمس إلا قسماً من الغيب لا كله.

وهكذا يفسّر ما يروى عن الرسول ﷺ من قوله: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله...»[2].

والغيب هنا يعم غيب العلم والقدرة، فإن ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ مفتاحه الأوّل هو القدرة وعلى هامشه العلم.

وقد يعلم غير الله أشراطاً من هذه الخمس وسواها بوحي الوحي أو العقل والعلم والحس[3] والضابطة العامة هي اختصاص علم الغيب بالله،

= وجهك لله وتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت، قال نعم ثم قال: ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين والموت والحياة بعد الموت والجنة والنار والحساب والميزان والقدر خيره وشره، قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت؟ قال: نعم، ثم قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن كنت لا تراه فهو يراك، قال: فإذا فعلت ذلك فقد أحسنت؟ قال: نعم، قال: فمتى الساعة يا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله خمس لا يعلمها إلا الله ان الله عنده..

أقول: خمس هنا وفي أمثاله يعني شطراً من المصاديق الظاهرة المسؤول عنها كراراً، ولا يعني الحصر فيها فإنه خلاف نصوص من القرآن.

ويشهد لهذا التوجه ما فيه أيضاً عن رجل من بني عامر قال يا رسول الله ﷺ هل بقي من العلم شيء لا تعلمه؟ فقال: لقد علمني الله خيراً وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله الخمس ان الله عنده علم الساعة ف «من» تبعيض فالآية بيان لبعض الغيب الخاص.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

(٢) المصدر - أخرج الفريابي والبخاري ومسلم وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: ... لا يعلم ما في عند الله إلا الله ولا متى تقوم الساعة الا الله ولا يعلم ما في الأرحام إلّا الله ولا متى ينزل الغيث إلّا الله وما تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله أقول: متى ينزل غير مستفاد من ينزل الغيث» الا على هامش القدرة ف «ينزل» فعل وليس - فقط - علماً».

(٣) المصدر أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن مردويه عن=

اللهم إلّا غيب الوحي الرسالي حيث يحمل الأحكام الرسالية، ويعض من سائر الغيب ليس منها هذه الخمس واضرابها المعدودة في الذكر الحكيم، فعلم الغيب الخارج عن واجب الوحي بحاجة إلى برهان أم ضرورة رسالية.

فالأحاديث القائلة إن علياً والحسين عليهما السلام كانا يعلمان مضجعهما، بين مطروحة ومؤولة إلى إجمال دون تفصيل[1] وكما يروى عن أئمة الهدى إن هذه الأشياء الخمسة لا يعلمها على التفصيل والتحقيق غيره تعالى.

فقد يعلم رسول أو أمام أو ولي بأي بلد يموت ولكنه ليس ليعلم مضجعه الخاص لمكان الإختصاص بالله فإنه من الخمس المذكورة في الآية.

فطالما يعلم إجمال الأرض التي فيها يموت، لا يعرف تفصيلها، أم يعرف ما في الأرحام - أذكر؟ أم أنثى؟ حي أو ميت؟ صغير أو كبير؟ - بالوسائل الحديثة ولكن لا يعلم ما في الأرحام على التفصيل[2].

= أبي هريرة أن رجلاً قال يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متى الساعة؟ قال: ما السمئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثكم بأشراطها إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها وإذا كانت الحفاة العراة رؤس الناس فذاك من أشراطها وإذا تطاول رعاء الغنم في البنيان فذلك من أشراطها في خمس من الغيب لا يعلمهن إلا الله ثم تلا هذه الآية.

(١) نور الثقلين ٤: ٢٢٠ في أصول الكافي بسند متصل عن الحسن بن الجهم قال قلت للرضا عليه السلام أمير المؤمنين عليه السلام قد عرف قاتله في الليلة التي يقتل فيها والموضع الذي يقتل فيه وقوله لما سمع صياح الأوزّ في الدار: صوائح تتبعها نوائح، وقول أم كلثوم: صليت تلك الليلة داخل الدار وأمرت غيرك يصلي بالناس فأبى عليها وكثر دخوله وخروجه تلك الليلة بلا سلاح وقد عرف ان ابن ملجم لعنه الله قاتله بالسيف كان هذا مما لا يحسن تعرضه؟ فقال: ذلك كان ولكنه خيّر في تلك الليلة لتمضي مقادير الله عزّ وجلّ.

وفيه عن مقتل الحسين لأبي مخنف: وأن الحسين لما نزل كربلاء وأخبر باسمها بكى بكاء شديداً وقال: أرض كرب وبلاء، قفوا ولا تبرحوا وحطوا ولا ترحلوا، فههنا والله محط رحالنا وهاهنا والله سفك دمائنا وهاهنا والله تسبى حريمنا، وهاهنا والله محل قبورنا، وهاهنا والله محشرنا ومنشرنا بهذا اعدني جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا خلاف في وعده.

(٢) المصدر في أمالي الصدوق بإسناده إلى أمير المؤمنين عليه السلام لما أراد المسير إلى النهروان =

﴿ٱلْأَرْحَامِ﴾ هنا طليقة فلا تختص بأنثى الناس، بل الجنة والناس وسائر ذوات الأرحام، من الحيوان والنبات بل والجماد، بل والأرض كلها فإنها تحمل من صنوف الكائنات الحية والميتة، وتحمل كل الميتات الإنسانية وسواها.

والعلم البالغ ما بلغ في معرفة الأجنة الإنسانية لا يحيط خبراً بما هو في الأرحام في كل لحظة وفي كل طور من فيض وغيض: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾[1].

ذلك العلم لم يصل إلى ما ليس به جرم ظاهر وحجم، ولا نوعية من ذكورة وأنوثة حين لا يملك أحد أن يعرف عن ذلك شيئاً في اللحظة الأولى لاتحاد الخلية والبويضة، ولا ملامح الأجنة وخواصها وحالاتها واستعداداتها، ولا أنها تموت في الأرحام أم تولد حية، ولا ملامح الأرواح

= أتاه منجم فقال له: يا أمير المؤمنين لا تسر في هذه الساعة وسر في ثلاث ساعات يمضين من النهار، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام ولم ذاك؟ قال: لأنك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك أذى وضر شديد، وإن سرت في الساعة التي أمرتك ظفرت وظهرت وأصبت كلما طلبت، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام تدري ما في بطن هذه الدابة أذكر أم أنثى؟ قال: إن حسبت علمت، قال له أمير المؤمنين عليه السلام من صدقك على هذا القول كذب بالقرآن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ...﴾ [لقمان: ٣٤] - «ما كان محمد يدعي ما ادعيت» فيه عن نهج البلاغة يؤمي به إلى وصف الأتراك: كأني أراهم قوماً كأن وجوههم المجانّ المطرقة يلبسون السرق والديباج، ويعتقبون الخيل العتاق ويكون استمرار قتل حتى يمشي المجروح على المقتول، ويكون المفلت أقل من المأسور فقال له بعض أصحابه: لقد أعطيت يا أمير المؤمنين عليه السلام علم الغيب؟ فضحك عليه السلام وقال للرجل - وكان كلبياً - يا أخا كلب ليس هو بعلم غيب، وإنما هو تعلم من ذي علم وإنما علم الغيب غيب الساعة وما عدده الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ...﴾ [لقمان: ٣٤] فيعلم سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أنثى وقبيح أو جميل وسخي أو بخيل وشقي أو سعيد ومن يكون للنار حطباً أو في الجنان للنبيين مرافقاً فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله وما سوى ذلك فعلم علمه الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ودعا لي أن يعيه صدري ويضطم عليه جوارحي» أقول: «ما سوى ذلك».. مطروح أو مخصوص بما سوى ذلك أضرابه من علم الغيب كما في صدر الحديث.

(١) سورة الرعد، الآية: ٨.

التي تحملها، ولا آماد أعمارها ولا... إلّا طرفاً ضئيلاً بالوسائل الحديثة على أخطاءها أم بسائر الوسائل.

كذلك وتنزيل الغيث، مهما استطاع الإنسان بالمجهود العلمية أن يحصل على غيث صناعي أحياناً قليلة ضئيلة، ولكنما الغيث النازل من السحاب المسخر في جو السماء لا ينزله إلّا الله، ومهما عرف ناس بتجارب ومقاييس أشراط نزول الغيث وقربه، ولكنهم لا يقدرون على خلق الأسباب التي تنشئه.

وكذلك ﴿مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾ من مكاسب روحية أم مادية كماً وكيفاً، نافعة أم ضارة، فإنه كقرنائه غيب مغلق عمن سوى الله.

و﴿غَدٗاۖ﴾ هنا تعم غد الدنيا والبرزخ والأخرى، فلكلّ مكاسب مهما كانت مكاسب الأولى هي التي تكسب للآخرين.

وفي رجعة أخرى إلى الآية تحديداً لمواقع الخمسة كلا على حده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ تختص بالله علم الساعة ككل، دون إبقاء منه لمن سواه اللّهم إلّا أشراطها ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ...﴾[1].

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ اختصاصاً في القدرة على إنزال الغيث، فليس العلم بنزوله من مختصاته حسب النص، اللهم إلّا العلم بإنزاله الذي يساوق القدرة، فإنه كما القدرة من مختصاته.

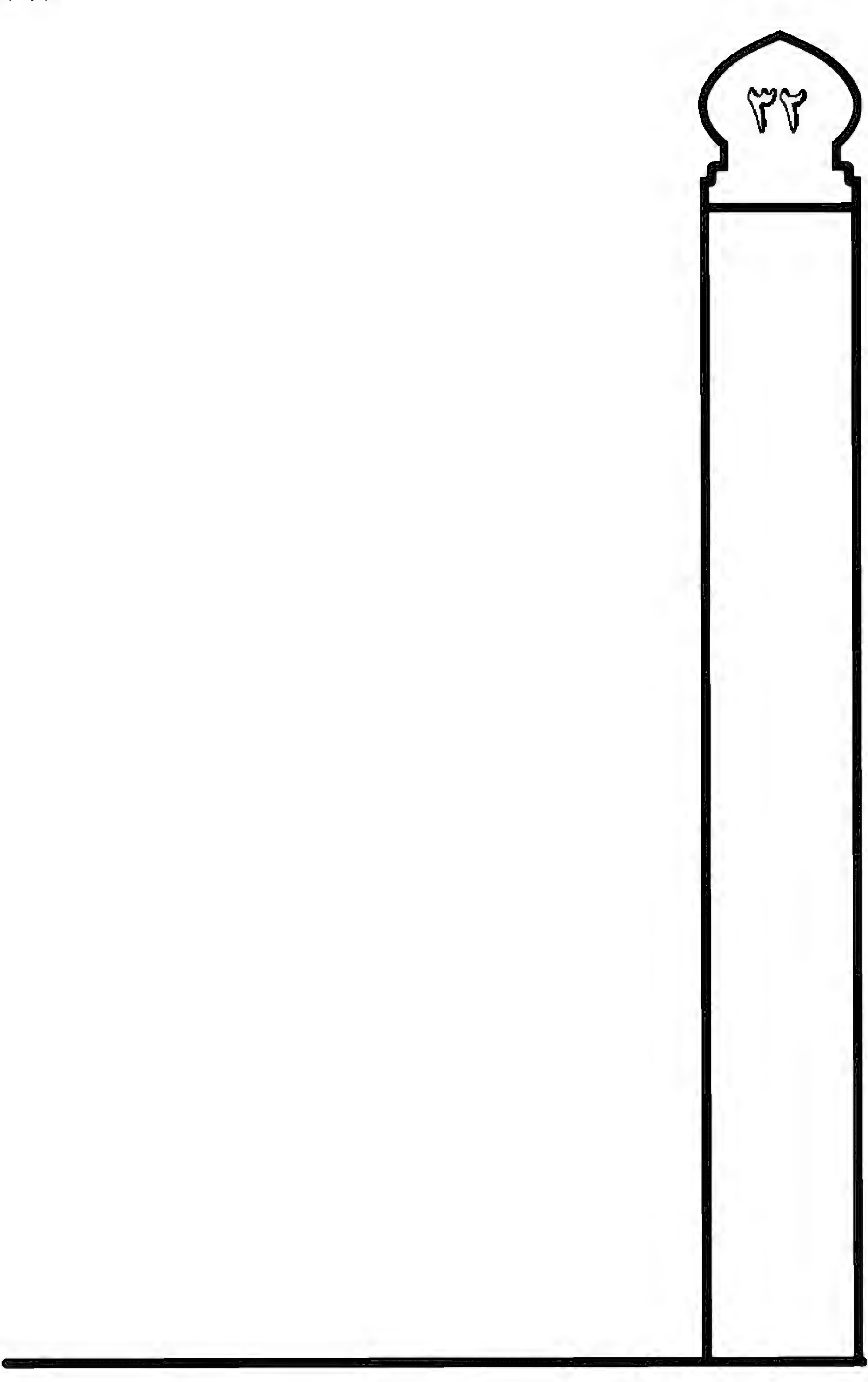
﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ ككلّ بما فصلناه فليس ينافيه علم بما في الأرحام بوسائل مصطنعة أم دونها أم فوقها، فلم يقل «عنده علم ما في الأرحام» حتى يحلّق على كل علم بكل ما في الأرحام دون إبقاء، وإنما ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ استغراقاً لكل علم، وبما أن علمه يساوق قدرته، فهو مختلف عن علم من سواه بشيء مما في الأرحام أيضاً فضلاً عن كله.

(١) سورة محمد، الآية: ١٨.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ استغراقان في السلب يختصان هاتين الدرايتين بالله، وأرض الموت هنا دون بلده تضيّق مكانه بخصوص المواضع التي تموت فيها كل نفس، فلا ينافيه أن يعلم الإمام الحسين أن مضجعه كربلاء دون المضجع الخاص فيها كما قال «كأني بأوصالي تتقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء».

ففي اختلاف التعبير سلباً وإيجاباً، وحصراً محلقاً وسواه، علماً وسواه، اختلاف المعني من هذه الخمس، وليست هي الخاصة بالله علماً أو قدرة دون سواها كما فصلناه.




٣٢

مكيّة وآياتها ثلاثون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞الٓمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٢) أَمۡ
يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ
مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ (٣) ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا
بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا
شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ
فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٦) ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ
ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ (٨) ثُمَّ
سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا
مَّا تَشۡكُرُونَ (٩) وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ
هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ (١٠) قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ
إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ (١١) وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ
رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوۡ
شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ

مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

سورة السجدة تتسمى بها لأنها تحمل آية السجدة الواجبة، مفتتحة بـ ﴿الٓمٓ﴾ وهي الخامسة بين السور المفتتحة بها، رابعة من مكياتها، مما قد تربطها بها لوحدة الافتتاح.

وهذه السورة تعالج قضية المبدء والمعاد بحجج لهما صارمة، دفعاً لما يخلج القلوب من تخلفات عارمة، وفيها تبيان فوارق بين فريقي الإيمان والكفر، وهي تلتقي مع سائر المكيات في خطاب القلب البشري بخفاياه ودروبه ومنحنياته، تخليصاً له عن الخطرات والخلجات المتخلفة عن أحكام الفطرة والعقلية السليمة.

وهي تعرض قضايا خمس، ابتداء بقضية الوحي وانتهاء إلى وحدة الوحي والرسالة بين موسى ومحمد، وبينهما قضية الألوهية، والبعث والمصير، ومشهد الإيمان والكفر في النشأتين.

وهي من العزائم الأربع، تجب السجدة بقراءة أو استماع أم وسماع آيتها، وهل يجوز قراءتها في الفرائض فتؤخر سجدتها عن الصلاة «فان السجود زيادة في المكتوبة»؟.

أم يسجد لها فيها قضية فور الأمر، ووجوبها يرفع محظور الزيادة في المكتوبة كما في زيادة ركن في الجماعة قضية التبعية؟.

أم تحرم قراءتها فيها فتبطل بها الفريضة قضية النهي عن العبادة؟.

أم لا تبطل حيث النهي ليس عن الصلاة، وإنما هو عن قراءة فيها؟.

هنا أحاديث متضاربة، يروي إخواننا عن رسول الله ﷺ جوازها قولاً

واحداً[١] ويروى أصحابنا عن أئمة أهل البيت كلا الأمرين[٢] إذاً فلا نتأكد حرمتها في الفريضة، والأحوط تأخير سجدتها عن الصلاة، وهي ضمن الصلاة خلاف الاحتياط وإن كان الأشبه عدم بطلان الصلاة بها، فإن الدالة من أحاديث النهي قلة غير قوية الأسناد، فلا تناحر الثّلة المروية من طريق الفريقين وكثيرة منها قوية الأسناد! والشهرة ليست بنفسها برهاناً شرعياً ولا الإجماع، اللهم إلّا الإطباق بشروطه وهو عادم هنا.

ومحور النهي فيما ينهى عنها أن السجود زيادة في المكتوبة، ولا بأس بهذه الزيادة لأن لها سبباً، ثم إذا أخرنا السجدة الواجبة لم يبق مجال لمشكلة الزيادة، ولا يترك الاحتياط بترك قراءتها في فريضة.

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٧٠ عن أبي هريرة قال كان رسول الله ﷺ في الفجر يوم الجمعة الم تنزيل السجدة وهل أتى ورواه مثله عنه ﷺ ابن عباس وابن مسعود وعن ابن عمران النبي ﷺ صلى الظهر فسجد فظنا أنه قرأ الم تنزيل السجدة ورواه مثله البراء قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في الظهر فظننا أنه قرأ الم تنزيل السجدة وعن أبي العالية قال كان أصحاب رسول الله ﷺ رمقوه في الظهر فخرر قراءته في الركعة الأولى من الظهر تنزيل السجدة.
ومن طريق أصحابنا حسنة الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل عن الرجل يقرء السجدة في آخر السورة؟ قال: يسجد ثم يقوم فيقرأ فاتحة الكتاب ثم يركع ويسجد، وصحيحه محمد بن مسلم عند أحدهما قال: سألته عن الرجل يقرأ السجدة فينساها حتى يركع ويسجد قال: يسجد إذا ذكر إذا كانت من العزائم، وصحيحة علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام قال: سألته عن إمام قوم قرأ السجدة فأحدث قبل أن يسجد كيف يصنع؟ قال: يقدم غيره فيتشهد ويسجد وينصرف هو قد تمت صلاتهم (وسائل الشيعة على الترتيب في أبواب القراءة ب ٣٧ ح ١ و٣٩: ١، ٢٣ و٤٠: ٥ و٦).

(٢) الأمر الثاني ما رواه زرارة عن أحدهما عليه السلام قال: لا تقرأ في المكتوبة بشيء من العزائم فإن السجود زيادة في المكتوبة» موثقة سماعة: من قرأ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] فإذا ختمها فليسجد فإذا قام فليقرأ فاتحة الكتاب وليركع وقال: إذا ابتليت بها مع إمام لا يسجد فيجزيك الإيماء والركوع ولا تقرأ في الفريضة واقرأ في التطوع «وخبر علي بن جعفر المروي عن كتابه وعن قرب الإسناد وقد سأل أخاه موسى عليه السلام عن الرجل يقرأ في الفريضة سورة والنجم ويركع وذلك زيادة في الفريضة ولا يعود يقرء في الفريضة بسجدة». (الوسائل ب ٤٠: ١ و٣ - وب ٣٧ ح ٢ صدره وذيله ب ٣٠: ٢ وب ٤٠: ٤).

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾:

علّ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ هنا هو النازل على الرسول ليلة القدر بإحكام، ثم نزل عليه ثانياً بتفصيل: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1].

أم وهو الكتاب المفصل المنزل عليه وقد تشملهما ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ أم وثالث هو الأول كوكنا وكياناً: ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[2]: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[3].

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في أصله ولا في تنزيله ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ - «تنزيل من رب العالمين - لا ريب فيه من رب العالمين» مهما شك فيه وفي تنزيله المتجاهلون، فإن الريب شك مسنود إلى برهان ولا برهان يسند إليه أياً كان يشكك الإنسان في وحي القرآن، بل البراهين كلها مجندة لا ثبات وحيه، لا مرد لها ولا ريب فيها.

و﴿تَنزِيلُ﴾ مصدراً مبالغة بالغة أن ليس الكتاب المفصل إلّا نفس المحكم بصورة أخرى، فلم يحصل في ذلك التفصيل إلّا تنزيل تقريباً إلى أفهام العالمين بعد غموضه في إحكامه.

وفي ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تلميحة لامعة أن هذا الكتاب يحمل ربوبيته العالمية، عرضاً لبعديها التكوينية والتشريعية دون إبقاء.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾:

أيصدقون - بعد - بوحي القرآن ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ على الله، فهو

(١) سورة هود، الآية: ١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٤.

كتاب من عنده أم اكتساب من كتب اخرى، أم تعلّم من ذي علم؟ ﴿بَلْ﴾ إن قولة الافتراء لا تملك برهاناً إلّا عليها، فإنه دون ريب ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ كلّه ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ الذي رباك، فكما إنك كرسول لست صنيع نفسك أو الآخرين، كذلك ذلك الكتاب ليس صنيع أحد إلّا رب العالمين، صنيعان اثنان هما صنوان يبرهن كلّ لزميله، ويستدل به ككامل دليله، فالسمة الربانية بارزة في القرآن ورسول القرآن، لا يحتملان ولا يتحملان سمة خلقية أياً كان.

﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ دون إبقاء لحق إلّا وهو فيه ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ حيث هم وآباءهم عائشون زمن الفترة الرسالية: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾[1] ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[2].

إنهم قوم لدّ في أصلهم العربي وفصلهم عن المنذرين، فإذا استطاع رسول القرآن أن ينذر به هؤلاء الألداء الأشقياء فهو بإنذار من دونهم أحرى وأقوى.

إذاً فليس هو - فقط - من الحق، بل هو الحق كلّه إذ بامكانه إنذار الألداء الذين لم يسبق لهم إنذار رسالي ولا رسولي، حيث عاشوا تيه الضلالة والمتاهة في ردح بعيد من الزمن ماله مثيل طول الزمن الرسالي في بعد الفترة بعد الشقاوة الأصلية.

وفي الحق إن الحق كيانه الهدى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد، كلما ازداد الحق توسعاً وعمقاً ازدادت الهدى على ضوءه، ولأن القرآن هو كتاب الخلود في هديه فليكن مستغرقاً الحق كله:

حقاً في طبيعته ومعناه ومغزاه ومرماه، تطابقة حقة بين أجزاءه دونما

---

(١) سورة يس، الآية: ٦.

(٢) سورة مريم، الآية: ٩٧.

اختلاف، وأخرى بينه كله وقضية الفطرة والعقلية الإنسانية وحاجات العالمين أجمعين.

حقا بكونه ترجماناً بالغاً لكل نواميس الكون، ترجمة قيمة مستقيمة كأنها هي الصورة الواقعية عن واقع الوجود.

حقاً بما يحققه ويطبقه من صلات أصيلات بين العالمين وما بينهم وما حولهم من قوى، ما ظهر منها وما بطن، دون أي تنافر وتفاوت وتهافت.

حقا يرسم منهاج الحياة لأعلى قممها المقصودة المرموقة، ملائماً مواتياً كل طاقاتها وإمكاناتها، كل نزعاتها وحاجاتها، معالجاً كل ما يعتورها من آفات وعاهات وابتلاءات.

وحقاً لا يزداد على تقدم العقل والعلم إلّا بهوراً وظهوراً ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ. . .﴾ وتراهم في هذه الفترة الخالية عن الإنذار، كانوا مكلفين دون شرعة تحكمهم، فيتساءلون إذا ناكرين موقفهم من فصيلة الرسالة: ﴿. . . رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾[1] ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾[2]؟.

إنهم مهما لم يعيشوا الإنذار الرسولي في هذه الفترة لم يكونوا ليخلوا عن الإنذار الرسالي، أم ولأقل تقدير الإنذار الفطري والعقلي وهما قد يكفيان حجة للتوحيد الحق، ولأن الإنذار الرسولي أقوى من الرسالي، وهو أيضاً أقوى من العقلي والفطري، فلا يهلكون بعذاب في الفترة الرسولية والرسالية، حيث الحجة ليست صارمة يستحقون بها العذاب حين يتخلفون: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٣٣ وَلَوۡ أَنَّآ

---

(١) سورة طه، الآية: ١٣٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾»[1].

«ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾»:

تعريف بالله في خالقيته المدبرة لما خلق، توحيداً له في تدبير الخلق كما في الخلق رغم ما يزعمه المشركون انه هو الخالق ولشركائه التدبير.

ومثلث «خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا» تعبير عن الكون المخلوق كله، و«سِتَّةِ أَيَّامٍ» هي الأوقات الستة للخلق وقد فصّلت في «فصّلت» وإنها ليست من أيام هذه الأرض، لأنها مقياس زمني ناشئ عن دورتها، فأين هيه قبل خلقها وخلق السماوات، فهي من أيام الله التي لا يعلمها إلّا الله، اللهم إلّا شبحاً بعيداً لنوعيته، دون حده وقدره.

والعرش المستوى عليه هنا هو عرش التدبير بكافة شؤون الربوبية، وهو عوان بين العرش قبل هذا الخلق حين «وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ»[2] والعرش بعد الدنيا «وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ»[3] والعرش العوان هو عرش التدبير: «ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ»[4] ومنه إغشاء الليل النهار: «ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ»[5] عرش الفعالية لما يريد: «ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾»[6] وكذلك عرش العلم: «ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا . . .»[7].

ولأن الولاية هنا والشفاعة هنا وهناك هي من شؤون عرش التدبير

---

(١) سورة طه، الآيتان: ١٣٣، ١٣٤.
(٢) سورة هود، الآية: ٧.
(٣) سورة الحاقة، الآية: ١٧.
(٤) سورة يونس، الآية: ٣.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٦) سورة البروج، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٧) سورة الحديد، الآية: ٤.

الموحّد، إذا فـ ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ يلي أمركم وأمر الخلق كله لأنه هو ذو العرش ﴿وَلَا شَفِيعٍۚ﴾ عنده في تكوين أو تشريع ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ بعد ذكريات الفطرة والعقلية والشرعة الربانية: أنه هو الولي والشفيع لا سواه فانى تؤفكون وتصرفون، ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[1]؟

وترى كيف يكون الله هو نفسه شفيعاً، فعند من يشفع إذا كلّ مشفوع له؟ وهو الذي يشفع عنده! ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾[2]؟.

علّه لأن الشفعاء عنده لا يشفعون إلّا بإذنه، إذا فهو الشفيع عنده باذنه، إذ ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾[3] ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾[4] ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[5].

والشفاعة - ككل - وهي انضمام سبب إلى آخر يكمله، إنها في تكوين وتشريع خاصة بالله، لأنها من شؤون عرش التدبير لكل شيء، فقد يشفع الله إسماً من أسماءه بإسم آخر منها إتماماً لتدبير ما يدبره، كشفع شارعيته بغافريته للتائبين، أم يشفع إسماً منها بحالة لخلقه كشفع غناه بفقرهم، بل كل تدبيره لخلقه ولاية وشفاعة في كافة حقول الربوبية.

ومن ذلك شفاعة العاصين، حيث يشفع عصيانهم بطاعة لهم، أم وبمقرب عنده، شفعاً لهما بغافريته وإكرامه للمقربين، فتتحقق الشفاعة بحق المشفوع لهم.

إذاً فلا مشكلة في شافعيته عنده حتى تؤول بما لا تتحمل، من تكلفات لفظية ومعنوية تبعد عنها ساحة الذكر الحكيم.

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
(٣) سورة يونس، الآية: ٣.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٧٠.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٥١.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾:

ذلك يوم التدبير ربوبياً يوم الدنيا، وهو واحد زمنه عند ربك ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[(١)] وهو/ ٣٥٥٠٠٠ ضعفاً بالنسبة ليوم عندنا، وعلّ خمسين ألف المعارجي هو واحد الزمن الربوبي في تدبير الأخرى، وألف السجدة كألف الحج هو واحد الزمن الربوبي يوم الدنيا، فقد ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ ككل ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو أمر تدبير الأرض ومن عليها ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ ف ﴿يُدَبِّرُ﴾ التي تقابل ﴿يَعْرُجُ﴾ مضمّن معنى النزول، أنه ينزل الأمر تدبيراً من السماء إلى الأرض ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ذلك الأمر، وعروجه كنزوله هما من تدبيره.

ثم ﴿فِي يَوْمٍ﴾ هل هو زمن النزول والعروج جميعاً فلكلّ نصف يوم؟

وهو ظاهر التعبير، أم هو فقط يوم النزول دون العروج؟ فلماذا أخر إلى العروج! أم هو العروج دون النزول؟ كأنه هو!، فإن ﴿يُدَبِّرُ﴾ بيان لأمر التدبير المستمر يوم الدنيا، و«ثم» الدالة على التراخي يؤخر ذلك العروج عن كل التدبيرات في النشأة الأولى وهي يوم الدنيا، فقد يكون عروج أمر التدبير للربوبية الأولى ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ كموقف واحد من المواقف الخمسين يوم الأخرى[(٢)].

فكما أن يوم الدنيا لخلقها أيام: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...﴾[(٣)] وهو ستة أيام

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٧.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٢٢١ في تفسير القمي في الآية يعني الأمور التي يدبرها والأمر والنهي الذي أمر به واعمال العباد كل هذا يظهر يوم القيامة فيكون مقدار ذلك اليوم ألف سنة من سني الدنيا.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

حسب التقسيم الداخلي لزمن الخلق، وكذلك يومها بعد خلقها أيام، فقد يكون يوم الأخرى - وبأحرى - أياماً، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون.

ولأن يوم الأخرى ليست لها نهاية بالنسبة لأصحاب الجنة، فخمسون ألف سنة قد تختص بما قبل دخول كل من أهل الجنة والنار مثواه، وقد ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[١] وهو واحد الزمن الربوبي المعارجي، المفصلة في المعارج.

هنا وفي الحج ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[٢] مهما اختلفت العندية هنا وهناك، ثم لا نجد في المعارج «عند ربك» مما يلمح أن يوماً فيها خمسون يوماً عند ربك[٣]، وقد جمعها ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[٤] يوم قد يعني منه الأيام الخمسون.

وكما أن الأيام الستة للخلق تختلف عن أيامنا، كذلك يوم العروج إلى الله ويوم المعارج، وعلى الجملة «يوم» كواحد الزمان «عند ربك» يختلف عن كل أيامنا في تقديراتنا الزمنية كما فصلت في تفسير المعارج.

وعلى أية حال فعروج أمر التدبير إليه وفيه انهدام الكون أرضياً وسماوياً يتطلب في العادة ألف سنة، ولكنه يحصل في يوم وهو واحد الزمان وهو الحركة الأصلية للمادة الأولية وكما فصلناها في المعارج.

فأمر الله ككل واحدة كلمح بالبصر: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ

(١) سورة المعارج، الآية: ٤.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٧.

(٣) نور الثقلين ٤: ٢٢٢ في أمالي الطوسي بأسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام أنه قال في كلام طويل: فإن في القيامة خمسين موقفاً كل موقف مثل ألف سنة مما تعدون ثم تلا هذه الآية ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]
أقول وهذه الرواية متظافرة ذكرت في تفسير آية الحج وآية المعراج.

(٤) سورة المعارج، الآية: ٤.

بِٱلْبَصَرِ﴾[١] ثم ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[٢] وكأن هذه الواحدة هي يوم عند ربك كألف ﴿سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ بياناً لنفاذ أمره وسرعته.

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ الله العظيم، الخالق المدبر الحكيم، هو لا سواه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ على سواء، إذ لا غيب عندنا إلّا وهو شهادة عنده، وكثير من الشهادة عنده غيب عندنا وهو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في علمه وقدرته ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في قدرته وعلمه وعزته، فإن الغيب أياً كان، ما لم يكن أو كان[٣]، والشهادة على أية حال، كل ذلك عنده شهادة.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾:

﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أن ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٤] فإنه من إحسان خلقه، كما أحسن كلا من الخلق والهدى لكلّ ما خلق وهدى، فلا أحسن مما فعل ولا اتقن، ومن ذلك: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ والمبدء هو آدم الأوّل حيث خلق قفزة من طين، مهما خلق نسله من أصول طينية ولكنه دون قفزة حيث تحولت إلى ماء مهين.

أترى ليس في خلق الله قبيح ولا غير حسن؟ وذلك ملموس! أم إنه ليس من خلق الله؟ وهو الذي ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ...﴾[٥]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[٦].

---

(١) سورة القمر، الآية: ٥٠.
(٢) سورة النحل، الآية: ٧٧.
(٣) تفسير البرهان ٣: ٢٨١ عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية الغيب ما لم يكن والشهادة ما قد كان» أقول ما لم يكن هو من أغيب الغيب كما ومما كان غيب، وما قد كان ليس كله شهادة، وإنما جله.
(٤) سورة طه، الآية: ٥٠.
(٥) سورة طه، الآية: ٥٠.
(٦) سورة الفرقان، الآية: ٢.

ليس يعني ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أنه خلق كل شيء سواء في الحسن، وإنما هو إحسان لكل خلق على حدّه، فهو إتقان وإحكام[١] لكل خلق حسب الحكمة الربانية بالظروف المواتية والملابسات المقتضية.

فلكل جماد ونبات وحيوان وإنسان أو ملك وجان شاكلة روحية وجسدية أمّا هية، هي - ككل - قضية الحكمة كضابطة لكلّ، أم قضية الملابسات كالعور والعمى والصم والشلل أما ذا من عوارض هي حصيلة الكيفية الخاصة لأصول الولادة وكيفيتها وما يطرء الولائد من طوارئ، فالخلق متقن على أية حال، فهو حسن من الخالق على أية حال، والنقائص الطارئة هي من خلفيات التخلفات الولادية قصوراً أو تقصيراً.

ثم القبح بين سائر الخلق خلقياً أصلياً ليس إلا نسبياً، فإذا كان العقرب والحية والسرطان وقسم من سائر الحيوان قبيحاً في نظرنا ومنظرنا قياساً لها إلى أنفسنا، لم يلزمه واقع القبح لكلّ بين قبيله ومثيله، فعلّنا نحن الأناسي أيضاً عندها كما هي عندنا، وكل حسب الواقع والحكمة حسن متقن في خلقه وهداه كما أعطى الله، مهما كان الحسن في الخلق درجات و﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[٢] رغم أنه ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾.

فالحكم بقبح أو غير الحسن لخلق من الخلق ليس إلّا نتيجة قصور النظر، أو القياس إلى الأحسن أو الحسن في المنظر، وليس يختص واقع الحسن للخلق بمنظر الإنسان أو أياً كان من الناظرين القاصرين، وعلى ضوء تقدم العقل نحصل على محاسن في الخلق كنا نحسبها مقابح.

فمن الحسن الجامع للخلق ككل أنك ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن

(١) الدر المنثور ٥ : ١٧٢ - ابن عباس عن النبي ﷺ في الآية قال: أما إن است القردة ليست بحسنة ولكنه أحكم خلقها.
(٢) سورة التين، الآية: ٤.

تَفَٰوُتٖۚ﴾[١] أجزاء كل خلق في كله، وافراد كل خلق في مجموعه، فلا تفاوت ولا تناحر هنا وهناك إلّا ما يخلقه المتخلفون من خلق الله، غير المتخلقين بـأخـلاق الله ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤﴾[٢].

فلأن الحسن في الخلق وهداه ليس إلّا على ضوء العلم المطلق والقدرة غير المحدودة والحكمة العالية والرحمة الشاملة دون نفاد في شيء منها ولا كساد ولا بخل وضنّة، فلا يعقل أن يحصل غير الحسن المتقن كما يصلح وأمكن، من الله العليم الحكيم القدير العلي الكبير.

ف ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾[٣] ومعيار صالح لنظام الكون ككلّ، دون إفراط ولا تفريط، من كل ذرة صغيرة إلى أكبر الأجرام، من خليّة ساذجة إلى أعقد الأجسام، ففي كلّ يتجلى كل إتقان وإحسان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٤]! ومن الحسن المزدوج خلقاً وهدى أن كلا مصنوع ليؤدي دوره المقسوم في رواية الوجود، مزوداً بمعدات صالحة ليؤدي دوره الآهل له تمام التأهيل، بتعجيل أو تأجيل، ولا خائن أخون في حمل الأمانة من الإنسان ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾[٥]! ثم سائر الكائنات تؤدي دوراتها المقررة لها حسب مراتبها وإمكانياتها إلّا أن يعرقل المسير ويصد المصير من قبل شرير ليست عرقلته من خلق الله، بل هي اختلاقة منه قضية الإختيار.

العين المعاينة في غير عمى وعمه، والعقل الخبير والقلب البصير يتحلى من جمال الكون الكثير الكثير، ممنوحة برصيد ضخم من ذخائر الحسن

---

(١) سورة الملك، الآية: ٣.

(٢) سورة الملك، الآيتان: ٣، ٤.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٨.

(٤) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

والجمال، مسكوبة في القلب بكل جلال ودلال، عائشة في ذلك المهرجان العظيم البديع، متملية آيات الإحسان والإتقان في كل ما يدرك أو يحس ويلمس بالحواس من الخمس.

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾:

بداية خلق الإنسان من طين، تقضي على نظرية أو فرضية النشوء والارتقاء الداروينية أن الأنواع تسلسلت من الخلية الواحدة في أطوار متتالية إلى الإنسان، وأن هناك حلقات نشوء وارتقاء متواصلة تجعل الإنسان في أصله المباشر الأوّل حيواناً بين القردة والإنسان.

وهذا التطور المزعوم ضرب من المستحيل في سنة التكوين، فهناك عوامل وراثة كامنة في كل خلية تحتفظ بخصائص نوعها دون تفلّت وتبعثر، محتمّة أن تظل في دائرة النوع الذي نشأت منه دون تطوّر إلى نوع جديد، كما الاستقراء في حالات الخليّات تؤكد ذلك الحفاظ الصارم لنوعياتها في ذواتها.

فالقطّ أصله قط وسيظل - قط - قطّاً على طول الخط، وكذلك الكلب والثور والحصان والقرد والإنسان، ولا يملك دارون في فرضيته القاحلة الجاهلة إلّا نفسه وأتباعه أنهم هم - فقط - من القرد، كما هم عاشوا في صورتهم الإنسانية قرداً، وحتى إذا صح تبدل نوع إلى آخر أم وكان واقعاً، فواقع خلق الإنسان الأوّل حسب النصوص القرآنية - وهذه منها - إنه بادى من طين، ولو كان تطوراً من حيوان آخر أم من الخلية البسيطة الأولى لكان حقّ التعبير ذكره، وآيات خلقه صريحة أن بدءه من طين دون حيوان آخر أم شيء سوى طين.

كما وأن خالجة خلق آدم كنسله هو من إنسان قبله، هذه خارجة عن صراح الآيات، وما آية اصطفاءه آية انتساله من آخرين: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ

﴿ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1] إذ يكتفي لاصطفائه أن كانت معه زوجه وولده، ثم «العالمين» الشامل لهم منذ خلق آدم إلى يوم الدين يوسع نطاق اصطفاءه كزملاءه، فقد اصطفى الله منذ البداية إلى النهاية آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين» وهم النبيون والمعصومون أجمعون، طيّاً لأدوار الزمان وأنحاء المكان، جمعاً بين العالمين ككل، وجمعاً بني المصطفين عليهم ككل.

هنا ﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ يعم أصله ونسله، والفصل بين أصله ونسله أن أصله - وهو آدم الأول - بدء من طين ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾.

﴿مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ هو المني، و﴿سُلَٰلَةٖ﴾ منه هي النطفة، وهي الدودة المنوية التي تتحول إلى جنين، فليس الماء المهين بكله نسل الإنسان، بل سلالة منه هي النطفة الجرثومية.

و﴿نَسۡلَهُۥ﴾ هنا هو الانتسالات والتطورات الجنينية التي تخطوها سلالته إلى جنين كامل، المدلول عليها بـ«سوّاه»:

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩﴾:

﴿ثُمَّ﴾ هنا تراخي اكتمال الجنين جسدياً من سلالته، فإنها تتحول إلى علقة إلى مضغة إلى عظام وإلى كسو العظام لحماً - ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ﴾ هنا هو ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾ هناك، وقد تعم ﴿سَوَّىٰهُ﴾ الإنسان ككل، أصله ونسله مهما اختلفت التسويتان، قفزة من طين في الأولى، وتطورات الجنين في الأخرى.

ولا تعني ﴿مِن رُّوحِهِۦۖ﴾ بعضاً من روح الله نفسه، إذ ليس له روح وسواه

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٣.

من أجزاء كونية مخلوقة كخلقه، وذلك النفخ ولادة وليس خلقاً! فإضافة الروح إلى نفسه المقدسة هي إضافة تشريفية، حيث الأرواح المخلوقة درجات، من نباتية إلى حيوانية إلى جنينية أما هيه إلى إنسانية، وهذه أعلاها وأرقاها، لحدّ تستحق الانتساب الخاص إلى الله، كأنها - فقط - هي الأرواح التي خلقها الله.

ثم ولا تقتضي الإضافة أدبياً كون المضاف جزء من المضاف إليه إلّا في زاوية واحدة من الأربع في الإضافات، من إضافة الشيء إلى نفسه كـ «نفسي» وإلى كله كـ «يدي» وإلى مغايره مخلوقاً كنفسه كـ «غلام زيد» أم خالقاً له كـ «روحه» فكيف تقدم زاوية إضافة الجزء إلى كله بين هذه الأربع، والبراهين الساطعة عقلياً ونقليا تثبت أن: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1] وأنه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[2] وأنه «ليس هو في خلقه ولا خلقه فيه» فلا تجانس ولا تماثل بينه وبين خلقه أياً كان، روحاً وسواه.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ...﴾[3] «لكم» هناك «سواه» هناك تعم الإنسان ككل، حيث الإنسان أياً كان، هو قبل نفخ الروح ليست له هذه الثلاث إلّا وسائلها أذنا وعيناً وقلباً، فلما ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ جعل به هذه الثلاث: السمع والأبصار والأفئدة - فالأولان هما من أهم النماذج في الإدراكات الحسية الخمس، والأفئدة وهي القلوب المتفئدة، هي أهم الإدراكات الروحية، وهذه الثلاث هي التي تتبنّى إنسانية الإنسان الكاملة الكافلة لعروجه في درجاته، وخروجه عن دركاته، وأنتم مع كل هذه النعم السابغة: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ مهما كان من قصور أو تقصير.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١.

(٢) سورة الإخلاص، الآية: ٣.

(٣) سورة النحل، الآية: ٧٨.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٠ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ۝١١﴾:

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ هؤلاء المشركون، الناكرون للوحي والحشر ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ...﴾؟ هنا ضمير المتكلم مع الغير «نا - نا» و«هم» تعني شيئاً واحداً وهو الإنسان بجزئيه روحاً وجسماً، فهم يستبعدون ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾ وجداً كما كانوا تحولاً عن ضلالهم في الأرض، كأنهم حين يضلّون عن أبصار الناضرين وعلمهم، يضلون كذلك عن رب العالمين.

﴿ضَلَلۡنَا﴾ هنا تعم كل الضلالات الحاصلة للموتى في جزئيهم بأجزائهما، عامة كتناثر الأجسام ورفات العظام، ضلالاً عن البنية الإنسانية والماهية الجسدانية، وضلال الأرواح عن الأبدان انفصالها عنها، أم وفناءها كما يزعمون.

وخاصة أن تتبدل أجزاء للنباتات والحيوانات ومن طريقها إلى أجزاء أناسي آخرين، فقد يضلّ كلّ أجزاء الإنسان في أجزاء الآخرين فلا يحشر - إذاً - بشخصه إلّا ضمن الآخرين، أم يضل بعض أجزاءه فيهم فلا حشر - لو كان - إلّا لبعضه، وقد يعبر عن الأخير بشبهة الآكل والمأكول: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾ وقد ضلت أجزاءنا أم نفدت في آخرين، فالضلال العام يقضي على الحشر العام، وحتى لو صح العام فالضلال الخاص يحرم البعض عن حشرهم فكيف إذا ﴿خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾؟

والجواب أولاً ﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾ حيث الإيمان بلقاء الرب، إيماناً بالقدرة الخلاقة فالإعادة له أهون من البدء، وبالحكمة العالية فالعود أوجب من البدء، وبتواتر الحياة والموت في الأحياء والميتات نباتية وحيوانية وإنسانية أما هيه من حجج الإيمان، كل ذلك برهان لا مرد له على إمكانية وضرورة الحياة بعد الموت.

وجواب ثان: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ...﴾ لا فحسب أن ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا...﴾(١) بل و﴿مَلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ...﴾ ثم الملائكة الأعوان، فمنهم من يتوفون الطيبين ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾(٢) وآخرون يتوفون الظالمين: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾(٣).

وليس التوفّي هو الإماتة فحسب، بل هو الأخذ وافياً دون إبقاء بعلم وقدرة، في إماتة أم إنامة، أم رفع إلى السماء كما في المسيح ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾(٤).

ففي توفي الموت إزهاق الأرواح عن الأبدان، دون أن تتفلت عن المتوفّين أو تضل عنهم بضلال عام أم خاص، فكل الأجزاء للكيان الإنساني محفوظة في علم ملك الموت وهي في قبضته أينما حلت وضلت، ولا سيما الأجزاء الأصلية لكل إنسان التي فيها يحشرون، فإنها مهما ضلت في الأرض أو أصبحت أجزاء لآخرين، ليست لتضل عن ملك الموت، ولا لتصبح أجزاء أصلية لآخرين.

كل الأجزاء الإنسانية نفسية وجسمانية هي محفوظة محفوفة بعلم رب العالمين، مقبوضة بقدرته، فلا تعزب عن علمه ولا عن قدرته في النشآت الثلاث: دنيا وبرزخاً وعقبى، بل و﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ وكالة ربانية أن يتوفاكم: أخذاً وافياً دون عزوب ولا غروب لكل أجزاءكم، فمهما ضلت عامة أو خاصة عنكم وعن الآخرين، ليست لتضلّ عن رب العالمين، بل ولا عن ﴿مَلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ ولا عن الملائكة

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٢.
(٢) سورة النحل، الآية: ٣٢.
(٣) سورة النحل، الآية: ٢٨.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.

الأعوان، فالله هو المتوفي أصلياً، وملك الموت يتوفاكم فرعياً، والملائكة الأعوان بفريقيهم يتوفونكم كأعوان لوكيل الأموات:

«هل يحس به أحد إذا دخل منزلاً أم هل تراه إذا توفى أحداً، بل كيف يتوفى الجنين في بطن أمه، أيلج عليه من بعض جوارحها، أم الروح أجابته بإذن ربها، أم هو ساكن معه في أحشائها، كيف يصف إليه من يعجز عن صنعة مخلوق مثله»؟[١]

ولقد يروى عن رسول الهدى ﷺ قوله «الأمراض والأوجاع كلها بريد الموت ورسل الموت، فإذا حان الأجل أتى ملك الموت بنفسه فقال: يا أيها العبد كم خبر بعد خبر، وكم رسول بعد رسول، وكم بريد بعد بريد؟ أنا الخبر الذي ليس بعدي خبر، وأنا الرسول أجب ربك طائعاً أو مكرهاً، فإذا قبض روحه وتصارخوا عليه قال: على من تصرخون وعلى من تبكون، فوالله ما ظلمت له أجلاً ولا أكلت له رزقاً، بل دعاه ربه، فليبك الباكي على نفسه، وإن لي فيكم عودات وعودات حتى لا أبقي منكم أحداً»[٢].

---

(١) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) نور الثقلين ٤: ٢٢٥ عن المجمع روى عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: وفيه عن الفقيه سئل رسول الله ﷺ كيف يتوفى ملك الموت المؤمن؟ فقال: إن ملك الموت ليقف من المؤمن عند موته موقف العبد الذليل من المولى فيقوم هو وأصحابه لا يدنو منه حتى يبدأ بالتسليم ويبشره بالجنة» فيه عن عوالي الآللى - في الحديث ان ابراهيم عليه السلام لقى ملكاً فقال له من أنت؟ قال: أنا ملك الموت، فقال: أتستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن؟ قال: نعم أعرض عني فأعرض عنه فإذا شاب حسن الصورة حسن الثياب حسن الشمائل طيب الرائحة فقال: يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن إلّا حسن صورتك لكان حسبه ثم قال: هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح الفاجر؟ فقال: لا تطيق فقال: بلى، قال: أعرض عني فأعرض عنه ثم التفت إليه فإذا هو رجل أسود قائم الشعر منتن الرائحة أسود الثياب يخرج من فيه ومن مناخره النيران والدخان فغشي على إبراهيم ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى حالته الأولى فقال: يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر إلّا صورتك هذه لكفته.

وفي الدر المنثور ٥: ١٧٣ - أخرج الطبراني وأبو نعيم وابن منده كلاهما في الصحابة عن=

ومن النفوس ما لا يقبضها إلّا الله ومنها ما يقبضها ملك الموت نفسه، ومنها ما يقبضها الملائكة الأعوان وإذا كان الله هو الذي يقبض أرواح بعض الشهداء فالرسول ﷺ وذووه أحرى بذلك وأولى[(١)].

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم﴾ هكذا فلا مفلت - إذاً - عن حيطته، ولا مغلط في علمه وقدرته، ولا ضلة أو زلة في توفيه، «ثم» بعد اكتمال النشأة البرزخية ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ الذي رباكم وتوفاكم ﴿تُرْجَعُونَ﴾ في خلق جديد كما الأوّل بل هو ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[(٢)] لو كان عنده هين وأهون.

والرجوع إلى الرب هنا رجوعان، رجوع الحياة، ورجوع للحساب فالثواب أو العقاب، و﴿رَبِّكُمْ﴾ تعني هنا ربوبيته الجزاء الحساب قضية عدله، كماله ربوبية النشأة الأولى قضية فضله.

ليست هناك مشكلة شائكة تحول دون الحشر إلى الله ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ فإنما الدافع الأصيل لاختلاق هذه الشبهات والاستبعادات هو الكفر بلقاء ربهم، حيث يلقي على أنفسهم ظلّ الشك والاعتراض على الأمر الواضح الذي وقع مرة في خلقهم، ويقع ما هو قريب منه في كل لحظة،

= الخزرج سمعت رسول الله ﷺ يقول: ونظر إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال يا ملك الموت أرفق بصاحبي فإنه مؤمن، فقال ملك الموت طب نفساً وقر عيناً واعلم بأني بكل مؤمن رفيق، واعلم يا محمد إني لأقبض روح ابن آدم فإذا صرخ صارخ قمت في الدار ومعي روحه فقلت ما هذا الصارخ والله ما ظلمناه ولا سبقنا أجله ولا استعجلنا قدره وما لنا في قبضته من ذنب فإن ترضوا بما صنع الله تؤجروا وان تسخطوا تأثموا وتؤزروا وأن لنا عندكم عودة بعد عودة فالحذر الحذر وما من أهل بيت شعر ولا مدر بر ولا فاجر سهل ولا جبل إلا أنا أتصفحهم في كل يوم وليلة حتى أنا اعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم والله لو أردت ان اقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو يأذن بقبضها.

(١) الدر المنثور ٥: ١٧٣ - أخرج ابن ماجة عن أبي أمامة سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله وكل ملك الموت يقبض الأرواح إلّا شهداء البحر فإنه يتولى قبض أرواحهم.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٧.

ومن ضرورة العدل والحكمة الربانية وقوعه مرة أخرى هي أحرى من كل ما وقع.

﴿ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؟!

وفي رجعة أخرى إلى هذه الشبهة وبصورة أوسع، قد يتصور الضلال في الأرض، الذي يستبعد معه أو يستحيل ﴿خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ كالتالية:

١ - ضلال الانعدام؟ وإعادة المعدوم ممتنعة! ولكن الموت ليس انعداماً، إنما هو انفصال الروح عن البدن الدنيوي باستمرار اتصاله بالبدن البرزخي، ثم تحول الأكثرية الساحقة من أبدانها رفاتاً ورماداً، وليس المعاد إلّا الروح حيث يعاد إلى البدن بعد خلقه جديداً مرة أخرى.

٢ - ضلال الأبدان في أبدان أخرى تحولاً إلى نباتات وحيوانات وأطعمة لأناسي آخرين، ثم ضلال الأرواح في أبدان أخرى تناسخاً، كعملية مستمرة في الأموات والأحياء؟

لكن الأرواح لن تضل في أبدان أخرى بل تظل أرواحاً لأبدانها التي انفصلت عنها قضية الحكمة العادلة الربانية، ثم الأبدان لها مختلف الأجزاء، الجزء الجرثومي الأم وهي النطفة التي خلقت منها، ثم الأجزاء المكتملة له العائشة معه طول العمر ولا سيما في دور التكليف، ثم الأجزاء غير الأصيلة التي لها دور التغذية والتنمية، سواء أكانت من أجزاء الأموات، أصلية أو فرعية، أماهيه من أجزاء غير إنسانية.

فالأجزاء التي لا بد أن تخلق في المعاد مرة أخرى لتجزى بالأرواح جزاءها الأوفى، هي التي تعيش مع الأرواح في دور التكليف، لتذوق الأرواح وبال تخلفاتها، وتنال منال تعبداتها، سواء في أفعالها بواسطة الأعضاء أم سواها كالنيات والاعتقادات.

فهذه الأجزاء الأصلية مهما ضلّت عندنا في أبدان وسواها، لن تصبح أجزاء أصيلة لأبدان آخرين، ولن تضل عن علم الله وقدرته، فهي تخلق مرة أخرى فتعاد الأرواح فيها ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ...﴾[1] ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ...﴾ أخذاً وافياً لما يعاد من أرواح وأجساد دونما تفلّت لها ولا تلفّت عنها، فالمعاد في المعاد اثنان: عود الصورة الماثلة للأجزاء الأصلية البدنية ثم عود الأرواح بأبدانها البرزخية إليها.

ثم لا ضرورة في إعادة سائر الأجزاء غير الأصيلة، بل هي مستحيلة في هذه التي كانت أصيلة لآخرين حيث يظل أصحابها بلا أبدان إذا ضلت في أبدان آخرين.

فالمعاد حسب ما يرسمه القرآن وتقبله الفطرة والعقلية الانسانية والإيمانية، ليس فيه ضلال للأجزاء الأصيلة للإنسان أرواحاً وأبداناً، ولا ترد الشبهات حول هذا المعاد عن بكرتها، وليست الأقاويل المشركة، أو الفلسفية الطائلة إلّا حول معاد خيّل إليهم فاضطروا إما إلى نكرانه أم تأويله، أم تورطاً في قاله وقيله، ومعاد القرآن في غنى عن كل قال فيه وقيله، إذ لا تروّي غليلاً ولا تشفي عليلاً!.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾:

«لو» هنا في موقف الترجّي أن يرى رسول الهدي ﷺ ﴿إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ وهم الناكرون ليوم الحساب ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ إطراقة وطأطأة في ذلّ وانكسار ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في يوم الرب وموقف حسابه بهول المطّلع، قائلين ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ آياتك في الآفاق وفي أنفسنا بعد إذ عمينا وصممنا يوم الدنيا، فلم

(١) سورة طه، الآية: ١٥.

يبق لنا بعد صالح الإيمان إلّا صالح أعمال الإيمان ﴿فَارْجِعْنَا﴾ إلى الحياة الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ لما أبصرنا وسمعنا فـ ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ لا نحتاج بعد إلى تحصيل اليقين، ولكن لات حين مناص وقد فات يوم خلاص ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(١) فـ ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾(٢) وحتى إذا صدقوا في وعدهم فلا رجوع بعد تمام الحجة ووضوح المحجة: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾(٣).

ويا له من مشهد خزي، إقراراً بالحق الذي جحدوه، وإعلان اليقين بالذي أنكروه، فطلباً للعودة حتى يجبروه، ولكنه كلّه بعد فوات الأوان حيث لا يفيد إيقان بإعلان وغير إعلان! وقد تعذر موقفهم المخزي يوم الدين ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(٤) إذ تمت عليهم الحجة فتركوا المحجة، وهم أولاء ليسوا إلّا أنفسهم لو رجعوا(٥).

وذلك من خلفيات الإختيار، والدنيا على ضوءه هي دار الإختيار وليس الإجبار بمشية الملك الجبار:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾:

«لو» تحيل هذه المشية المسيّرة إلى الهدى قضية الحكمة في الاختبار

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٨.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٧.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠٧.

(٥) الدر المنثور ٥: ١٧٤ - أخرج الحكيم الترمذي عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول - إن الله يعتذر إلى آدم يوم القيامة بثلاثة معاذير يقول. . .
ويقول: يا آدم إني لا أدخل أحداً من ذريتك النار ولا اعذب أحداً بالنار إلّا من قد علمت في سابق علمي إني لو رددته إلى الدنيا لعاد إلى شر ما كان فيه لم يراجع ولم يعتب. . .

وبالاختيار، و﴿لَآتَيْنَا...﴾ تبيين لمشيئته الطليقة بالنسبة لكل ممكن ذاتي، ولكن في ذلك الإيتاء خلاف الحكمة اللائقة بشأن الربوبية للمربوبين، و﴿هُدَاهَا﴾ هي الهدى المطلوبة لكل نفس، فحين تؤتى هداها دون سعي منها بطل التكليف والإختيار، مهما ظل الاختيار باقياً على الهدى المؤتاة لكل نفس أم لم يظل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾(١) وليس في ترك هذه المشية المسيّرة ترك لبالغ الحجة ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٢).

وترى أنه تعالى لم يؤت كل نفس هداها؟ وقد هداها بمثلث الفطرة والعقل والشرعة! إنها ليست إلّا دلالات الهدى دون واقعها الحاصل بالاستدلال بها واقتفاء آثارها، فالهدى الدلالية شاملة كاملة، وواقع الهدى ليس إلّا لمن اهتدى، و﴿هُدَاهَا﴾ إنما هي واقعها الذي لا يضل عنها مهديها.

﴿وَلَكِنْ﴾ لم نشاء ولن، بل ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾(٣) - ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(٤) ولأن الأكثرية الساحقة من المكلفين كافرون، لذلك ﴿حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

وتراه قولاً يستغرق كل الجنة والناس؟ ومنهم مؤمنون! أم يخص الكافرين؟ فلماذا ﴿أَجْمَعِينَ﴾! قد يعني ﴿أَجْمَعِينَ﴾ ملأ ورودها ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾(٥).

---

(١) سورة يونس، الآية: ٩٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.
(٣) سورة البلد، الآية: ١٠.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٩.
(٥) سورة مريم، الآيتان: ٧١، ٧٢.

أم يعني ملأهم ورد العذاب كما وعد ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾[1] وذلك بعد ما هددهم الشيطان إذ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2] ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[3].

صحيح أن الله آتى غير النفوس المكلفة من حيوان وسواها هداها، التي تهتدي إليها، ولكن المختار لهذا الكائن المختار أن يختار طريقه هدى أو ضلالة، وهو مهدي بالفطرة والعقل وهدي الشرعة، ليؤدي دوره الكامل الكافل لكل أدوار الكمال بين الخليقة، حيث الوصول إلى الكمال في عرقلة السبل آصل وأوصل إلى الآمل وكما أصبح رسول الهدى ﴿أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[4] وأفضل العارفين، وحتى من الملائكة الكروبيين:

﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾:

﴿فَذُوقُواْ﴾ عذاب الخزي ﴿بِمَا نَسِيتُمْ﴾ نسيان التغافل التجاهل التناسي ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ الذي كنتم به تكذبون ف ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ كما نسيتمونا: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[5] فـ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[6].

نسيان بنسيان جزاءً وفاقاً وأين نسيان من نسيان، فكما أن هذا النسيان تناس عامد دون المرفوع من النسيان، كذلك الله يتناساهم في عالم رحمته، وإذ لا رحمة فهو العذاب ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إخلاداً إلى الحياة الدنيا واطمئناناً بها.

---

(١) سورة ص، الآيتان: ٨٤، ٨٥.
(٢) سورة ص، الآية: ٨٢.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٤٠.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٨١.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٥١.
(٦) سورة ص، الآية: ٢٦.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ
رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ
لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن
كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ
جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ
كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ
ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ
ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ
ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ
يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟
أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ
وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ
يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾﴾:

﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ لها مرحلتان، عامة ﴿إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ كلكل سماعاً أو استماعاً للقرآن، والسجود هنا هو غاية الخضوع تذكرا بالقرآن، وأدناه الاستماع له والإنصات إليه كما في آية (٧: ٢٠٤) وآية الأسرى: ﴿... إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾[1].

ومرحلة خاصة هي السجود بالأركان إضافة إلى الجنان حين استماع أو سماع القرآن، وهذه من آياته كآية الحج والعلق والنمل إجماعاً، وآيات أخرى دلالة كما الأسرى وأضرابها، بل ولا فرق دلاليا بينها وبين آية الأسرى، فكل الآيات الآمرة بالسجود هي في الحق من العزائم الواجبة السجود لاستماعها أو سماعها على الأقوى.

﴿إِنَّمَا﴾ هنا حصر بصادق الإيمان، أن التفكير بآيات الله يخرّرهم سجداً لله مسبحين بحمد ربهم دونما استكبار، مما يدل - لأقل تقدير - على وجوب استماع القرآن ككلّ، فإنه أقل سجود له وخضوع، وتركه - إذاً - خلاف واجب الإيمان.

وإنها صورة ووضيئة للأرواح المؤمنة الشفيفة الحساسة اللطيفة المرتجفة من خشية الله وتقواه حين تذكّر بآيات الله، حيث تتلقاها بتوفّز الحس واستيقاظ القلب واستنارة الضمير.

و﴿سُجَّدًا﴾ عرض لحالتهم الخاضعة: الخاشعة في سمع وعقل وقلب أمام ذكريات القرآن، بل هم بكل جوارحهم وجوانحهم يسجدون له صاغين إليه، حاصرين حواسهم وإحساساتهم وإدراكاتهم فيه.

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٧.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾:

﴿الْمَضَاجِعِ﴾ هنا هي فراشات ومكانات النوم، وتجافي الجنوب عنها هو تنحّي الشقق عن مضاجعهم، لا أنهم يأخذون مضاجعهم متجافين فيها، وإنما «عن مضاجعهم» كيلا يأخذهم النوم عن الصلاة الأخرى عشاء أو عصراً، أم وبعد العشاء عن صلاة الليل[1] حيطة على فرض الأوليين ونفل الأخرى كيلا تفوت أو تتأخر عن أوقاتها.

فعن بعض الأصحاب قال: ما رأيت رسول الله ﷺ راقداً قبل العشاء ولا متحدثاً بعدها فإن هذه الآية نزلت في ذلك[2] وكما يروى عنه ﷺ فيها

(١) نور الثقلين ٤: ٢٢٦ عن تفسير القمي حدثني أبي عن عبد الرحمن بن أبي نجران عن عاصم بن حميد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما من عمل يعمله العبد إلا وله ثواب في القرآن إلا صلاة الليل فإن الله عزّ وجلّ لم يبين ثوابها لعظيم خطره عنده فقال جل ذكره: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ - إلى قوله -نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجدَة: ١٦-١٩].

وفيه عن العلل بأسناده إلى أبي عبيدة الحذاء عن أبي جعفر عليه السلام قال في الآية: لعلك ترى أن القوم لم يكونوا ينامون، قال قلت: الله ورسوله وابن رسوله اعلم، قال فقال: لا بد لهذا البدن أن تريحه حتى يخرج نفسه فإذا خرج النفس استراح البدن ورجع الروح قوة على العمل فإنما ذكرهم ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ . . .﴾ [السَّجدَة: ١٦] أنزلت في أمير المؤمنين عليه السلام وأتباعه من شيعتنا ينامون في أوّل الليل فإذا ذهب ثلثاً الليل أو ما شاء الله فزعوا إلى ربهم راغبين مرهبين طامعين فيما عنده فذكر الله في كتابه فأخبرك بما أعطاهم أنه أسكنهم في جواره وأدخلهم جنته وآمنهم خوفه وأذهب رعبهم، قال قلت:

جعلت فداك إن أنا قمت في آخر الليل أي شيء أقول إذا قمت؟ قال: قل الحمد لله رب العالمين وإله المرسلين والحمد لله الذي يحيي الموتى ويبعث من في القبور فإنك إذا قلته ذهب عنك رجز الشيطان ووسواسه إنشاء الله تعالى

أقول: ورواية أهل البيت متظافرة في تفسير الآية بصلاة الليل وهذا من باب التفسير بالمصداق الخفي، وإلا فكيف ينحصر الإيمان الصحيح بصلاة الليل وليست إلّا مندوبة؟.

قد يروى في تفسير الآية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة.

(٢) الدر المنثور ٥: ١٧٤ - أخرج عبد الرزاق في المصنف وابن مردويه عن أنس قال: . . . =

قال: هم الذين لا ينامون قبل العشاء فأثنى عليهم..»[١].

وقد تعني ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ إضافة إلى ترك النوم تداوم الصلاة وذكر الله بين الصلاتين، كما تلمح له ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وكذلك خدمة خلق الله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

وعلى أية حال فهي من آيات الفصل بين العشائين، أم والظهرين كما دلت عليه آية النور.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾:

هذا! وفي حديث قدسي قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر..[٢].

و﴿نَفْسٌ﴾ هنا هي النفس المؤمنة المراعية حق الله غير المرائية في جاهرة الأعمال لله، كما «هو العبد يعمل سراً أسره إلى الله لم يعلم به الناس فأسر الله له يوم القيامة قرة أعين»[٣].

= وفيه عن أنس قال: نزلت فينا معاشر الأنصار كنا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع النبي ﷺ فنزلت فينا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ...﴾ [السَّجدَة: ١٦].

(١) المصدر - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: تتجافى... فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه فوقتها قبل أن ينام الصغير ويكسل الكبير.

(٢) الدر المنثور ٥: ١٧٦ - أخرج جماعة عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال قال الله تعالى:... وروى مثله عنه ﷺ سهل بن سعد وأضاف: ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ - الآيتين.

وفيه عنه عن رسول الله ﷺ قال: والذي نفسي بيده لو أن آخر أهل الجنة رجلاً أضاف آدم فمن دونه ووضع لهم طعاماً وشراباً حتى يخرجوا من عنده لا ينقص ذلك مما أعطاه الله.

(٣) المصدر أخرج جماعة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي ﷺ عن الروح الأمين قال: يؤتى بحسنات العبد وسيئاته.. فقلت: أفرأيت قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ...﴾ [السَّجدَة: ١٧] قال: هو العبد...

وفيه أخرج جماعة عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى النبي ﷺ أن موسى عليه السلام سأل ربه فقال: رب أي أهل الجنة أدنى منزلة؟ فقال: رجل يجيء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة فيقال له =

ثم ﴿نَفْسٌ﴾ نكرة في سوق النفي تستغرق كل نفس، و﴿أُخْفِيَ﴾ ماضياً دليل صارم أن ﴿قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ لهم كائنة معهم في ملكوت أعمالهم يوم الدنيا، وإلّا فكيف ﴿أُخْفِيَ﴾ غير الموجود؟ وذلك من براهين أن الجزاء هو نفس العمل بملكوته، إن خيراً فبفضل الله مزيد، وإن شراً فبعدل الله على قدره ولا يزيد.

و﴿مَّآ﴾ المجهول لكل نفس تعم كلا الكيف والكم ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ و﴿أَعْيُنٍ﴾ دون «عينيها» تقرر أن المخفي لكل نفس هو قرة أعين كلّ نفس ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أن زاد الله في ملكوت أعمالهم الصالحة مزيدات ومزيدات.

وإنه تعبير عجيب يشي بمدى الحفاوة الربانية لهؤلاء الأكارم حيث يتولى الله ما يخفيه لهم بنفسه المقدسة إعداد المذخور لهم عنده، الذي لا مطلع لأحد فيه إلّا له، فيظل مستوراً لهم عنده حتى يوم القيامة، ثم يكشف عنه عند لقاءه هناك.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾:

استفهام إنكاري عن هذه التسوية الظالمة بين من كان مؤمناً، ومن كان فاسقاً عن الإيمان، لا كل فاسق إذ يجتمع الفسق العملي مع الإيمان، أم في

= أدخل فيقول كيف أدخل وقد نزلوا منازلهم وأخذوا أخذاتهم فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا فيقول: نعم أي رب قد رضيت، فيقال له: فإن لك هذا وعشرة أمثاله معه، فيقول: أي رب رضيت فيقال له: فإن لك مع هذا ما اشتهت نفسك ولذت عينك، فقال موسى عليه السلام أي رب فأي أهل الجنة أرفع منزلة؟ قال: إياها أردت وسأحدثك عنهم إني غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السّجدَة: ١٧].

تسوية الجزاء عند البعث[١]، بل ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾ فليكن هناك بعث فيه يحاسبون[٢] ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[٣]:

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾:

«النزل» ما يعدّ للنازل، وهو يوم الحساب بين ثواب وعذاب، فنزل الثواب هو للذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[٤] ونزل العذاب للذين كفروا وعملوا الطالحات: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾[٥] ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾[٦].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٧٨ عن قتادة في الآية قال: «لا في الدنيا ولا عند الموت ولا في الآخرة».

(٢) المصدر أخرج أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني والواحدي وابن عدي وابن مردويه والخطيب وابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عتبة لعلي بن أبي طالب عليه السلام أنا أحدّ منك سناناً وابسط منك لساناً وأملأ للكتيبة منك فقال علي عليه السلام: أسكت فإنما أنت فاسق فنزلت ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا...﴾ [السّجدَة: ١٨] يعني بالمؤمن علياً وبالفاسق الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

وأخرج مثله ابن إسحاق وابن جرير عن عطاء بن يسار، وابن أبي حاتم عن السدي وعن عبد الرحمن ابن أبي ليلي» أقول: اتفقت كلمة المخرجين حول هذه الآية على ما نقلناه عنهم قولاً واحداً، كما اتفقت روايات أصحابنا في ذلك قولاً واحداً، وقد أنشأ حسان في ذلك شعره:

أنزل الله والكتاب عزيز ... في علي وفي الوليد قرآناً
فتبوء الوليد من ذاك فسقا ... وعلى مبوّء إيماناً
ليس من كان مؤمناً عرف الله ... كمن كان فاسقاً خوانا
سوف يجزى الوليد خزيا ونارا ... وعلي لا شك يجزى جناناً

(٣) سورة طه، الآية: ١٥.

(٤) سورة الكهف، الآية: ١٠٧.

(٥) سورة الكهف، الآية: ١٠٢.

(٦) سورة الصافات، الآية: ٦٢.

﴿فَسَقُواْ﴾ هنا فسق عن كلا الإيمان وعمل الصالحات، فلا تشمل فساق المؤمنين إذ ليسوا من الخالدين أبداً مهما دخلو النار.

و﴿كُلَّمَآ...﴾ هنا بيان لأمد الخلود في مأوى النار أنه ما دامت النار: ﴿... فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾[1].

صحيح أن المؤمن العادل لا يسوّى بالمؤمن الفاسق في أية نشأة من النشآت ولكن الفاسق هنا يقابل المؤمن ككلّ، فهو الفاسق عن الإيمان، وكما يؤكده ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ وليست النار مأوى فساق المسلمين خلودا فيها مهما دخلها من يستحقها.

أفهم يستوون هنا ويوم الدين في ميزان الحق والعدل المطلق، كلا «لا يستوون» سواء في عدم البعث لو لم يكن، أم في شرعة الحق يوم الدنيا.

ولا تعني ﴿كُلَّمَآ﴾ هنا وهناك الكل الأبدي اللانهائي، وإنما هو ما دامت النار، فإذا فنت النار بمن فيها فلا دور لآلية في نفي الخروج وإيجاب الإعادة لمكان نفي الموضوع ناراً وأهل نار.

نعم لو دلت دلالة قاطعة على الأبدية اللانهائية للنار، لصدق الخلود اللانهائي بهذه الصيغة، ولكنما الأدلة عقلية ونقلية تثبت فناء النار بمن فيها، وتصدق على غرارها هذه الشرطية ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ وهي بطبيعة الحال ما دام الموضوع.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾:

«هم» هنا الفاسقون، أوعدهم الله أن يذيقهم من العذاب الأدنى دون

---

(١) سورة الحج، الآيات: ١٩-٢٢.

العذاب الأكبر، فالعذاب الأكبر هو عذاب القيامة دون ريب، فما هو العذاب الأدنى؟

هل هو عذاب القبر[١]؟ ورجاء الرجوع عن فسقهم فيه غير وارد! أم عذاب في الرجعة؟[٢] والمعذبون فيها هم من محض الكفر محضاً ولا رجاء لرجوعه، إلّا اشتداد كفره! وعديد من الآيات تحيل الرجوع إلى الحياة الدنيا ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾[٣]! أم هو عذاب الاستئصال لمن يستحقه؟ ولا مجال للرجوع - إذاً - إلى الإيمان فإنه الموت بالعذاب فكيف يرجعون؟! إنه «هي المصائب والأسقام والأنصاب عذاب للمسرف في الدنيا»[٤] «هي لنا زكاة وطهور»[٥] وقد يكون من العذاب الأدنى الدابة والدجال[٦].

فكل عذاب يبقى بعده المعذّب ويرجى رجوعه عن فسقه فهو العذاب الأدنى، ونفس ذلك العذاب حين يشمل المؤمن هو له زكاة وطهور، فأما عذاب الرجعة وعذاب الاستئصال فهما عوان بين العذاب الأدنى والأكبر.

وفي الحق إن العذاب الأدنى رحمة لمن يرجعون عن فسقهم، وللمؤمنين ترفيعاً لدرجاتهم، وزحمة على من لا يرجعون.

---

(١) المجمع وقيل هو عذاب القبر عن مجاهد وروي أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام.

(٢) نور الثقلين ٤: ٢٣١ عن تفسير القمي قال في الآية العذاب الأدنى عذاب الرجعة بالسيف، معنى قوله: لعلهم يرجعون - يعني فإنهم يرجعون في الرجعة حتى يعذبوا - أقول و﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١] هي نتيجة ذوق العذاب المترجاة دون العكس المختلق هنا.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.

(٤) الدر المنثور ٥: ١٧٨ - أخرج ابن مردوية عن أبي إدريس الخولاني قال سألت عبادة بن الصامت عن هذه الآية فقال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنها فقال: هي.. قلت: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فما هي لنا؟ قال: زكاة وطهور.

(٥) المصدر.

(٦) المجمع في الآية: والأكثر في الرواية عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أن العذاب الأدنى الدابة والدجال.

وهكذا يتراءى ظلال الرحمة من وراء العذاب الأدنى، قارعة توقظهم وتستيقظ فطرهم وفكرهم حيث يردهم من أكبر العذاب إلى الصواب والثواب.

كما ويتراءى ذل العذاب الأكبر من وراء العذاب الأدنى لمن ظلم وأعرض:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

ذلك المجرم اللّدود الذي لا ينفعه التبشير، ولا ينذره التنذير، ولا يوقظه العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر، بل ويعرض عن آيات ربه إذا ذكّر بها، ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ قد نجمع له العذاب الأدنى هنا، إلى الأوسط كعذاب الاستئصال في الرجعة أو قبلها، وفي البرزخ، والأكبر في الأخرى، لأنه بالغ في الظلم بآيات الله أسفل دركاته.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾:

هنا عرض إيتاء الكتاب لموسى تسلية لخاطر النبي ﷺ الجريح من تكذيب قومه، فلأنه أشبه النبيين به في كتابه وشرعته ورسالته ووحيه، وأنه يصدقه أهل الكتاب كلهم، يأتي هنا بذكره وإيتاءه الكتاب كما آتاه، وجعله هدى لبني إسرائيل كما جعله هدى للعالمين.

وفي التقاء الرسولين والرسالتين تزول كل مرية من لقاء الله هنا وفي يوم الله، والتفريع في ﴿فَلَا تَكُن...﴾ على ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا...﴾ يقرّب هذا المعنى بين ما قد يعنى، فكما الرسالة نفس الرسالة والرسول موسى نفس الرسول محمد ﷺ، والكتاب الرسالي نفس الكتاب مهما كانا درجات، فاللقاء. - إذاً - نفس اللقاء، كل يلاقي ربه بما تأذى في سبيله، وتصبّر على عبأه وحمله في حملها.

وأما لقاءه موسى ليلة المعراج أم بعد الموت، ولقاء موسى إياه كذلك، فلا صلة له بإيتاء موسى الكتاب، إذ ليس لزامه ذلك اللقاء، بل هو لقاء الله المذكور في كل كتابات السماء، وكتاب موسى نموذج بارز منها قبل القرآن، فليقرن بالقرآن كما قرن نبيه بنبيّ القرآن، والتشابه بينهما في القضايا الرسولية والرسالية اكثر من كافة المرسلين.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾ بني إسرائيل ﴿أَئِمَّةً﴾ رسلاً ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ تكويناً وتشريعاً، فإنهم حملة أمر الله، ويهدون دلالة وإيصالاً إلى الهدى بأمر الله ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ فالصبر في قضايا الإيمان على رزاياه هو من معدّات الإمامة والهداية بأمر الله كما ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

فالإيقان بآيات الله، والصبر في مسير الإيقان ومصيره، هما جناحان يطير بهما صاحبه إلى سماء الرحمة الربانية حتى يصير إماماً للناس.

وكلما ازداد الابتلاء في الله، والنجاح فيه تجاه أمر الله، اتسمت دائرة الإمامة وازدادت قوة وبهورا وكما في إبراهيم: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...﴾[1] وكذلك من ذرية إبراهيم حسب درجاتهم ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[2] وأفضل الأئمة في ذريته هو الرسول محمد ﷺ وقد جعله الله إماماً عليه وعلى كافة الأئمة رسلاً ونبيين وسواهم من المعصومين[3].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

(٣) نور الثقلين ٤: ٢٣٢ في أصول الكافي بسند متصل عن حفص بن غياث قال قال أبو عبد الله عليه السلام في حفص أن من صبر صبراً قليلاً وأن من جزع جزعاً قليلاً ثم قال: عليك بالصبر في جميع أمورك فإن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ فأمره بالصبر والرفق - إلى قوله - فصبر =

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ . . . بِأَمْرِنَا﴾ دليل صارم لا مرد له أن الإمامة ليست إلّا بجعل الله، كما الهداية من الإمام ليست إلّا بأمر الله «لا بأمر الناس يقدمون أمر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم»(١) وتأويل هذه الآية يأتي في أئمة المسلمين بعد الرسول ﷺ بأحرى وأولى لأنهم أعلى منهم وأقوى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

طمأنة أخرى لقلبه المترجرج الجريح من بأس قومه الألداء، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك بهذه التربية الفائقة الرسالية ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ أولاء المختلفين في الحق الذي آتيناك ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فصلاً واضحاً ناصعاً لا ريب فيه ولا شك يعتريه، واقعاً لا قبل له، مهما فصل هنا بينهم بآياته البينات، ولكنهم ﴿كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وأما هناك ففيه فصل القضاء الحاسم حيث يزيل كل الخلافات والاختلافات فيعلمون أن الله هو الحق المبين.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

= حتى نالوه العظائم فضاق صدره فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨] ثم كذبوه ورموه فحزن لذلك فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٣-٣٤] فألزم النبي ﷺ نفسه الصبر فتعدوا وذكر الله تبارك وتعالى وكذبوه فقال: قد صبرت في نفسي وأهلي وعرضي ولا صبر لي على ذكر إلهي فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٨-٣٩] فصبر النبي ﷺ في جميع أحواله ثم بشر في عترته بالأئمة ووصفوا بالصبر فقال جل ثناءه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فعند ذلك قال ﷺ: الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد.

(١) نور الثقلين ٤: ٢٣٣ عن تفسير القمي بسند عن جعفر محمد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: الأئمة في كتاب الله إمامان: قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤] لا بأمر الناس. . .

إذاً لم يهد لهم إنذار المنذرين ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ ذلك الواقع المبين: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الماضية المكذبة بآياتنا، وهم الآن ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ - ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾(١) حيث ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾(٢).

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ السير الماشي والمشي الساير المبصر ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ لقوم يبصرون ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ إلى هذه الذكريات:

سمع الاتعاظ الإيقاظ؟. أم لا يسمعون إلى أخبار الهلكى في القرون التي مضت؟ وإذا لم يروا إلى الموتى كيف تحيى يوم الأخرى فجولة في الأرض الميتة حين تدب فيها الحياة:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

﴿ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ هي الخاوية عن الإنبات الخالية عن النبات لعدم الماء، ثم ﴿أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ﴾ سوقاً جوياً، أم برياً من ظاهر الأرض أم باطنها ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ فلما اجتمع الماء الميت مع الأرض الميتة ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ حيّا من جمع هذين الميتين ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ ذلك الإحياء المتواتر ليل نهار.

فهذه الأرض الميتة الجافة البور، هم يرونها يسوق الله إليها الماء المندي المحيي، فإذا هي ممرعة بالزرع ممتّعة بالحياة، مما يفتح نوافذ القلب المغلقة لاستجلاء الحياة بعد الممات، وتجيش مشاعر الإنسان تقبّل تلك الحياة واستقبالها بعد الممات!:

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٨.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٥.

كذلك الله يسوق ماء الحياة إلى أرض الأبدان البالية الجرز فيحييها ويخرج بذلك زرع الأعمال صالحة وطالحة يوم يقوم الحساب، وهو يوم الفتح للذين آمنوا وانهزام الذين كفروا.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾:

وما أحمقهم حجة لتكذيب يوم الفتح أن يخبرهم المؤمنون به بمتاه، بعدما ثبت أصله ومداه! فهل يصح في قياسهم نكران الولادة للمواليد الذين لا يعلمون متى ولدوا، أم نكران موتهم إذ لا يعلمون متى يموتون؟ وأيّة صلة بين العلم بمتى يوم الفتح وتصديقه!

وقد يعم ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ يوم عذاب الاستئصال قبل الرجعة[1] أم فيها، حيث الإيمان عند رؤية البأس لم يكن ينفعهم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[2].

ولقد سمي انتصار الحق بالفتح أياً كان وأيان: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾[3] - ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[4] فقد نسمي غرق الباقين الباغين فتحاً كنجاة المؤمنين.

---

(١) نور الثقلين ٤: ٢٣٣ عن تفسير القمي قال قال في الآية: هو مثل ضربه الله عزّ وجلّ في الرجعة والقائم عليه السلام فلما أخبرهم رسول الله صلى الله عليه وآله بخبر الرجعة قالوا متى هذا الفتح إن كنتم صادقين، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ [السّجدَة: ٢٩]...

(٢) سورة غافر، الآيتان: ٨٤، ٨٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٢.

(٤) سورة الشعراء، الآيات: ١١٧-١٢٠.

ثم الفتح ككل يعم الفتح العرفي والواقعي، أنهم سوف يعلمون حق الله، ويبتلون بنكرانه حقه من ذي قبل، حيث الفتح هو فصل القضاء الحاسم بين المتخاصمين.

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿قُلْ﴾ ماذا ينفعهم متاه وهم ليسوا ليؤمنوا به حتى متاه، ثم ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ إذا وقع، عرفوا متاه من ذي قبل أم لم يعرفوا ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ هناك ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أن يقولوا آمناً، وإذا أنظروا فلا ينظرون عن عذابه.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أن تواجههم بعد في حجاج ما دام كله لجاج بعد أن نفضت يدك من أمرهم وإمرهم، فدعهم لمصيرهم المنتظر، يوم الفتح ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ وأين انتظار من انتظار، أنت تنتظر رحمة ربك وهم منتظرون عذابه!.



الفهرس

تتمة سورة القصص

سورة القصص، الآيات: ٤٣ - ٥٦ .... ٧
سورة القصص، الآيات: ٥٧ - ٧٥ .... ٢٢
سورة القصص، الآيات: ٧٦ - ٨٨ .... ٤٢

سورة العنكبوت

سورة العنكبوت، الآيات: ١ - ١٣ .... ٧٣
سورة العنكبوت، الآيات: ١٤ - ٢٧ .... ٩٦
سورة العنكبوت، الآيات: ٢٨ - ٤٠ .... ١١٣
سورة العنكبوت، الآيات: ٤١ - ٦٩ .... ١٢٢
نسوج العناكب ١٢٥
العنكبوت البناء ١٢٧

عناكب البساتين ١٢٧

سورة الروم

سورة الروم، الآيات: ١- ١٨ .... ١٧١
سورة الروم، الآيات: ١٩ - ٢٩ .... ١٨٨
سورة الروم، الآيات: ٣٠ - ٤٥ .... ٢٠٥
حب الكمال المطلق ٢٢٤
سورة الروم، الآيات: ٤٦ - ٦٠ .... ٢٥٢
سورة لقمان، الآيات: ١ ١١ .... ٢٦٥
سورة لقمان، الآيات: ١٢ - ١٩ .... ٢٧٥
سورة لقمان، الآيات: ٢٠ - ٣٤ .... ٢٩٢

سورة السجدة

سورة السجدة، الآيات: ١ - ١٤ .... ٣١٥
سورة السجدة، الآيات: ١٥ - ٣٠ .... ٣٤٠